1989

مكتبة نوبل

كاميلو خوسيه ثيلا

لحن ماثوركا على ميتّين

ترجمة : علي أشقر

علي مولا

لحن ماثوركا على ميّتين

مكتبة نوبل

Author : Camilo Jose' Cela
Title: Mazurca Para dos Muertos
Translator: Ali Ashkar
Al- Mada : P. C.
First Edition 1999

Copyright © Al-Mada

اسم المـــؤلف : كاميلو خوسه ثيلا
عنوان الكتـاب : لحن ماثوركا على ميتين
ترجـــمـــة : علي أشقر
النـاشـــــر : المدى
الطبـعـة الأولى : ١٩٩٩

الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون ٢٧٧٦٨٦٤ - ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada · Publishing Company F.K A Cyprus
Damascus - Syria , P O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means , electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

١٩٨٩

مكتبة نوبل

كاميلو خوسه ثيلا

لحن ماثوركا على ميتين

ترجمة

علي أشقر

«لحن ماثوركا على ميتين» ، تستمد عنوانها من حادثتي قتل وثأر . حادثتان ليستا في الحقيقة سوى نقطتي ارتكاز في نسيج العمل الضخم الذي ينبسط في لوحات متعدّدة متنوّعة من حيوات بشر ، موسومةٍ بالجنس والهمجيّة والعنف الجسدي ، تحت غطاء من التكرار الدوري لمواضيع كالمطر ومحور العربة اللذين يشيران إلى استمرارية الزمن دون تبدّل فيه . دعامة العمل الرئيسة أُذُنُ ثيلا المرهفة الدقيقة القادرة على التقاط طيف الأصوات كلها سواء أكانت الحسنة المتناغمة منها ، أم الحادّة المخيفة ، ثمّ هذه الموسيقى اللفظيّة الرنّانة التي تجعل كل مرحلة من مراحل العمل واقعاً لا يُدحض . الزمن في الرواية دائري دون أن يسيء إلى تسلسل الأحداث الزمني . زمنٌ يلتفت على نفسه وكأنه يوحي بتكرارية الأفعال البشرية بخاصة أحداث التاريخ الإسباني . تبرز الحرب الأهلية الإسبانية كموضوع أول في منتصف الرواية ، وتضع ضمن منظور تاريخي ، هذه التكرارية ، بتقنية عالية ذات قدرة تعبيرية لا تخيب ، وتصل إلى صفائها الأكمل وسحرها الأعظم استناداً إلى جمالية لا تتملّص من مواجهة ما هو مشؤوم وبربري . الانطباع الأخير الذي نحصل عليه هو ما نجده في العادة عند ثيلا لكنه يدفع به هذه

المرة إلى مداه الأقصى ، ذلك بأن المصير البشري والتشاؤم والنذالة والقسوة العمياء اللا معتدلة لا يمكن علاجها أبداً . وتبدو الكائنات الضعيفة والمسلوبة القدرة من الدفاع عن نفسها «الحيوانَ البائس المجروح والمخنوق» الذي كان يتحدث عنه شكسبير في عرضه للوضع البشري . ماثوركا على ميتين أعظم أعمال ثيلا ومنذورة لتكون عملاً كلاسيكيا بل أرفع الأعمال الكلاسيكية في الأدب الإسباني .

---

* أسماء الأعلام كُتبت كما تلفظ في الغليشية .

* راعينا في معظم الأحوال كتابة علامات الترقيم كما شاء لها المؤلف .

أفـكـارنـا مـشـلـولـة ذاويـة

وذكـريـاتـنـا غـدّارة ذابـلـة.

إدغار آلان بو

تمطر رَهْواً ودون انقطاع ، تمطر دون رغبة ، لكنها تمطر بأناة ما بعدها أناة ، كما الحياة كلها ، تمطر على الأرض التي صارت بلون السماء نفسه : لون بين أخضر ناعم وأشهبَ رمادي رخو . وقد امّحى حرف الجبل منذ فترة طويلة .

ـ منذ ساعات كثيرة ؟

ـ لا! بل منذ سنين بعيدة . امحى حرف الجبل مُذْ مات لاثرو كودِسال ، ذلك بأن ربَّنا شاء ألا يراه أحد مرة أخرى .

لاثرو كودسال مات ، في موقع تيزي عزّة ، في المغرب ،على الأرجح قتله مغربي من قبيلة تفرسيت . وكان لاثرو كودسال يبدي مهارة فائقة بإحبال الفتيات ، وكان ذلك غرامه وهواه ، فقد كان ذا شعر أحمر ونظرة زرقاء . وماذا نَفَعَ لاثرو كودسال الذي مات شاباً ولما يبلغِ الثانية والعشرين ، إتقانُه المبارزةَ بالعصا كما لا يتقنها أحد في دائرة قطرها خمسة فراسخ أو تزيد ؟ لاثرو كودسال قُتِل غدراً وهو يستمني تحت تينة ، وكل الناس تعلم أن ظلّ التين ملائم جداً لارتكاب الخطئية بهدوء ؛ وما كان ابنُ أنثى ليقتلَ لاثرو كودسال مواجهة ، لا مغربيٌ ولا أستوري ولا برتغالي ولا

ليوني ولا أحد : ثم امّحى حرفُ الجبل لما قُتل لاثرو كودسال وأصبح لا يُرى أبداً .

تُمطر برتابة تشبه الإصرار منذ عيد سان رامون نوناتو(١) ، أو بالأحرى قبل ذلك أيضاً ، وها نحن في يوم عيد سان ماكاريو(٢) الذي يجلب حسن الحظ في اللعب بالورق وسحب أورق اليانصيب . تمطر ببطء ودون انقطاع منذ ما يزيد على تسعة أشهر على عشب الحقل ، وعلى زجاج نافذتي ، تمطر ، لكن دون بَرْدٍ ، أعني دون برد شديد ؛ ولو كنت أعرف العزف على الكمان ، لقضيتُ الأماسي عازفاً على الكمان ، لكنني لا أعرف العزف ، ولو كنت أعرف العزف على الهارمونيكا ، لقضيت الأماسي أعزف على الهارمونيكا ، لكنني لا أعرف العزف عليها . أمّا الآلة الوحيدة التي أعرف العزف عليها ، فهي مزمار القربة ، وليس ملائماً العزفُ على مزمار القربة داخل البيوت . أمّا وأنّي لا أعرف العزف على الكمان ولا على الهارمونيكا ، وإذْ لا ينبغي لي النفخُ في مزمار القربة تحت سقف ، فكنت أقضي الأماسي في السرير ممارساً الخبائث مع بينيثيا ، (سأذكر فيما بعد من هي بينيثيا ، المرأة التي حلمتا ثدييها بحجم حبتي كستناء) . في العاصمة يستطيع المرء أن يذهب إلى السينما ليشاهد/ لِيْلي بونز/ مغنّية السوبرانو الشابة المتميزة صاحبة الدور النسوي الأول في فيلم/ أحلم بإفراط/ حسب قول الصحف ، لكن ، هنا لا توجد سينما .

في المقبرة ، يتدفّق ينبوعٌ ذو مياه نقية تغسل عظام الموتى وأكبادهم الباردة على شكل عجيب ، يُدعى ينبوع ميانغيرو ، فيه يستنقع المجذومون

---

(١) ٣١ آب . (المترجم)

(٢) ١٥ كانون الثاني حسب التقاويم التي بين أيدينا . تقويم العرسيسكان يجعله يوم ١٢ آب ، ذلك حسب اعتبار عيد القديس يوم مولده أم يوم وفاته . (المترجم) .

ليخفِّفوا من عنائهم ، والشحرور يغني على سروة يعزف عليها البلبل شكواه وحيداً في الليل . واليوم ، لم يبقَ مجذومون ، أو ليسوا كثيرين كما في الماضي حين كانوا يصفرون كالبومات ليحذِّروا بعضهم بعضاً من قدوم رهبان البعثات باحثين عنهم ليمنحوهم الغفران .

تستيقظ الضفادع عادة كلَّ عام ، بعد انقضاء عيد سان خوسِه ، ويعلن غناؤها عن أن الربيع قادم ُشيئاً فشيئاً ، بأخباره السيئة وأعماله المرهقة . الضفادع حُيَيوينات سحرية فيها شيء من التطيّر . ولو طُبخت رؤوس الضفادع بمقدار خمسة أو ستة منها مع زهرة الإصطراك أو اللُبنى ، لأمكنَ الحصولُ على شراب يزيد في الهِمَّة ويشفي ضلال الفتيات المخطوبات ، وحرقة غشاء البكارة . الضفادع عصيّة على الترويض ، لأنها ، ما إن تُراض حتى يفقد مدرِّبُها الصبرَ ، ويتخلّى عنها مرة واحدة . بوليكاربو بن البغنييرا خير من يروّض الضفادع في البلد كله . يروض ضفادع وشحارير وبنات عرس وثعالب وحيوانات أخر . بوليكاربو يروض كل الحيوانات حتى ثعلب الماء والوشق حين كان ما يزال الوشق موجوداً . أمّا ما لم يستطع ترويضه فهو الخنزير البري لأنه حيوان ضعيف الذكاء والانتباه والتفكير . بوليكاربو بن البغنييرا الذي فقد ثلاثة أصابع من يده ، يعيش في ڤِيلا ديكمبرّون ، ويقترب أحياناً من الطريق العام ليشاهد حافلة سنتياغو حين تمرّ ، حافلة يسافر فيها دائماً خوريان أو ثلاثة وهم يأكلون تيناً مجفّفاً . فقد بوليكاربو أصابعه الثلاثة : السبابة والوسطى والخنصر من يده اليمنى نتيجة عضّة حصان ، لكنه كان يتدبّر أمره جيداً بالبنصر والإبهام .

ـ لا أستطيع العزف على مزمار القربة ولا الأكورديون ، لكن ، ماذا عليَّ إن لم أعرف ذلك أيضاً ؟

لكن ، كان في بيت/ لابَرّوتشا/ في مدينة أورينسيه عازفُ أكورديون أعمى لا شكّ في أنه مات . نعم ، الآن أذكر بوضوح أنه مات في ربيع عام ١٩٤٥ ، قبل موت هتلر بأسبوع واحد تماماً . كان يعزف ألحاناً ومارشات شعبية ليروّح عن التيوس . أنا أتحدث عن أيام زمان . اسمه/ غودنِثيو بيرا/ ، وكان طالباً في مدرسة دينية ، ولكنه طرد منها لما أُصيب بالعمى ، بل قبل أن ينطفئ نور عينيه تماماً .

ـ أوَ كان يعزف على الاكورديون بإتقان ؟

ـ غاية الإتقان فيما أحسب! الحقيقة أنه فنان حقيقي ، كلُّه ذكاء وصفاء وإحساس ، يعزف بعمق كبير وحماس .

غودنثيو يعزف مجموعة متنوّعة إلى حد ما من القِطع في بيت العواهرحيث يكسب رزقه . لكنّ بين الألحان ، لحنَ الماثوركا/ صغيرتي ماريان/ لم يعزفه سوى مرتين ، مرة في تشرين الثاني عام ١٩٣٦ ، لما قتِلَ آفوتو ، ومرة أخرى في كانون الثاني عام ١٩٤٠ لما قُتل موتشو . ولم يشأ أن يعزفه مرة ثالثة أبداً .

ـ كلا! كلا! أنا أعرف ما أصنع ، أعرفه معرفة جيدة . لحنُ الماثوركا هذا فيه شيءٌ من المرارة ولا يمكن عزفه دائماً .

بينيثيا بنتُ أخت غودنثيو بيرا ، وابنة عم بعيدة لأبناء غاموثو التسعة ، ولبوليكاربو بن البغنييرا وللمرحوم لاثرو كودسال . كلُّنا في المنطقة ذوو قربى إلى هذا الحدّ أو ذاك ، ما عدا آل كرّوبو الذين لا يخلو أحد منهم من رقعة جلد خنزير في جبينه .

تُمطر فوق مياه الآرنيغو التي تُدير الطواحين وتخيف المسلولين ، بينا

كاتوكسا المغفّلة بنت مرتينيا تتنزّه عاريةً في تل إسْبرّادو وقد تبلّل ثدياها وشعرها الذي يصل إلى خصرها .

ـ ابتعدي ، يا امرأة ، يا فاسدة ، أنت ترتكبين الخطيئة المميتة ، ولا بد من أن تحترقي في مرجل الشيطان .

تمطر فوق مياه البيْرمون الذي يقفز صافراً كالكيري ويلحس أشجار السنديان ، بينا فابيان منغيلا ، أو قل موتشو طائر الموت ، يشحذ سكّينه على حجر المِسنّ .

ـ ابتعدْ ، ابتعد ، أيها المسيحي الضالّ! ستلقى جزاء أعمالك في الحياة الآخرة .

ريموندو ابن آل كسندولفس يحسب أن فابيان منغيلا يمضي في دروب الحياة حاملاً علامات ابن القحبة التسع .

ـ وما هي ؟

ـ اصبر عليّ : ستعرفها شيئاً فشيئاً .

أكبر الأخوة غاموثو يُدعى بلدوميرو . حسن! كان يُدعى لأنه مات . بلدوميرو ماربين بِنْتيلا ، أو فرناندِس ، بعضهم يسمّيه فرناندس فقط ، وهو أمر واحد كان مشهوراً باسم آفوتو ، لأنه كان جريئاً لا يخشى أحداً لا ميتاً ولا حياً . فقد جرّد عام ١٩٢٣ يوم عيد الحواري في تيثيديراس الواقعة على الطريق بين غودينيا ولالين قبل بلوغ النصب الحجري في كورّديرا ، زوجاً من الحرس المدني من سلاحهما وربط أيديهما وراء ظهريهما وساقهما إلى الثكنة واستلم إيصالاً بهما . قيل له إنه سيلقى عقاباً صارماً ، لكنّ شيئاً من هذا لم يحدث ، وإنما صُرف الحارسان من الخدمة بسبب عدم كفاءتهما

وجبنهما . سارا ولم يُعرف عنهما شيء قطّ لأنهما ليسا من أهل البلد ولا يُعلم من أية أرض هما . آفوتو يحمل وشماً فاضحاً جداً على ذراعه ، يمثّل أفعى حمراء وزرقاء ملتفّة حول جسم امرأة عارية .

وُلد آفوتو عام ١٩٠٦ أيام عرس الملك آلفونسو ١٣ وتزوّج في العشرين من عمره بلولينا موسكوسو رودريغيث ، امرأة ذات طباع قوية حتى لم يجدْ وسيلة لإخضاعها إلا بالعصا . ماتت لولينيا بطريقة غبيّة ، إذ داسها ثور هائج وسحقها بحصرها بباب الإسطبل . كانت لولينا أرملاً لما ماتت ، أرملاً منذ أربع سنين أو خمس لم يكن لآفوتو غيرُ الأخوة الذكور ، ولم يكن له أختٌ واحدة .

أبوا الأخوة غاموثو التسعة ، بلدوميرو ماربيس كاسارِس المشهور بتريبيرو ، وتيريسا بِنْتيلا (أو فرناندس) بَلْدويْدِهِ المشهورة بكَتْشيفا ، ماتا في عام ١٩٢٩ في حادث تصادم قطارين مشهورٍ في محطة ألباريس حيث قُتل أكثر من مائة شخص ، والقلّة التي خرجت سالمةً من نفق ديل لاثو الذي كان يشبه قبراً دون قعر ، قبراً لا يمتلئ أبداً ، كانت على شفا الاختناق ، وسرت إشاعة في المنطقة بأن مصابين كثيرين دُفنوا أحياء لتوفير عبء الإجراءات الرسمية ، لكن ذلك ، على الأرجح ، غير صحيح .

تانيس ثاني الأخوة غاموثو ، مُلقّب بـ بِيْريلّو أي الشيطان ، لأنه سريع الخطا نحو الشر ، تانيس متزوّج بروسا روكون بنتِ جمركي من أورينسه . روسا مولعة بشرب عرق اليانسون ، وتقضي نهارها منوّمة ، لا بد من القول إنها لم تكن سيّئة ، لكنها أضاعت نفسها قليلاً في اليانسون ، تانيس يزرع الأرض ويربّي الماشية ، مثله مثل أخيه الذي يكبره ، مثله متل ابن عمه بوليكاربو بن البغنييرا مروّض العصافير والضفادع ، وحييوينات الجبل . وكان

الثلاثة يُغنون بالدواب هوايةً وإشباعاً لرغبة وليس مهنة . وكانوا ماهرين في مطاردة جياد الجبل البرية ، وقنصها ووَسْمِها بعلامات وسط سحب من الغبار والصهيل بنوعيه الغاضب والمذعورِ ، والعرق ، نعم ، العرق الغزير . كان تانيس حاذقاً ويربح دائماً رهانه مع الغرباء .

ـ تخلَّ عن الريالات الأربعة التي خسرتها ، يا غريب ، واشرب كأساً معنا ، إذ لا نرغب في أن ننمّي أعداء لنا ، وتذكر دائماً ما سأقوله لك فهو يعزّيك كثيراً : سبحان الله يغني الشحرور ، وبعد كل صيف يأتي شتاء .

بيريلّو كان يعجبه حين يأتي الحرّ ، أو قبل أن يأتي ، أنْ يغطس مع كاتوكسا بِنْته بنتِ مرتينيا عاريين في سدّ طاحونة لوثيو مورو ليعبثا بجسديهما اللذين هما شبه أفعى وشبه قطّ بري . حسن! إذا قلنا يعبث بالمعنى الصحيح للعبث ، فإن تانيس لم يكن يعبث ، لأنها هي ، لم تكن تهرب وما كانت تتعب أبداً ، فوق ذلك ، تصفّق وتُبدي إعجابها بعد كل غطسة وعومة . بنت مرتينيا لا تعرف السباحة ، وكان يبعث على الضحك رؤيتها تغطس وهي تحرّك عجيزتها بإيقاع راقص .

بينيثيا له حلمتا ثدي كحبتّي كستناء جافّتين ، كل الناس تعلم أنهما كحبتي كستناء يوم عيد سان خوان[1] ، أي حين تصيران يابستين ؛ لكنها ذات نشاط فائض ، فلا تتعب ولا تضجر أبداً . ولها عينان زرقاوان ، وكانت مُفْرِحة في السرير وشَبِقة للغاية . كانت بينيثيا متزوّجة ، أو بالأحرى ما تزال متزوّجة ببرتغالي شبهِ مخنّث يتاجر في هذه الأنحاء وما يليها ، ويصل أحياناً بتجارته إلى ما بعد ليون . لكنها هربت من زوجها ذات يوم وجاءت بلدَها مرّة أخرى . أمّ بينيثيا هي أخت غودِنثيو الأعمى الذي يعزف على

---

(١) ٢٤ حزيران

الأكورديون في بيت لابرّوتشا . بينيثيا سِغَادهِ بيرا ذات مظهر قويّ وتضحك دائماً ضحكة فيّاضة . أمها تعرف القراءة والكتابة ، لكن بينيثيا لا تعرف . تتدهور العائلات أحياناً ، حينئذٍ لا يوقفها أحد إلى أن تتحطّم أو تكتشفَ جدولاً فيه عروقُ ذهب ، واليوم لم يبق منها جدول واحد . أم بينيثيا تدعى آدِغا وتعزف على الأكورديون بإتقانٍ يقارب إتقان أخيها . تعزف لحن البولكا (فنفينيت) بذوق رفيع .

ـ أنا جئتُ من بيلار ديمونْتِه ، بين هضاب سَرْنوسو وهضبة إسْبرّادو ، وأعرف الحليب الذي رضعه كلُّ مخلوق فيها . أمّا أنت سيد دون كاميلو فقد وُلدت من الشِجار ، وكان لذلك ثمنُه ، إذ قتلَ جدُّك بالعصا أُكْسان آمييروس صاحب طاحون عند جدول بِدْرِيْنياس ، وكان عليه أن يتنحّى لمدة خمسة عشر عاماً ، هرب إلى البرازيل وأنت تعلم ذلك . أصْلي من بيلارديمونتِه التي تقع ما وراء سيلبابوا وريكوبيكو . لبلوغها يتعيّن عليك أن تصعد هضاباً وتهبط منحدرات . لكنّ زوجي المرحوم ثِيْدران سِغَاده جاء من كاثورّاكِه أسفلِ هضاب بورتيلينا التي لا تلتقي أبداً مع هضاب سَمْنيروس ، ذلك بأن ريح الله لم تهبَّ عليها ولا رغبته ولا إرادته . أقول ذلك لتعلم أني جديرة بالثقة ولستُ غريبة في وقت تسرح فيه عصابات الصعاليك حرّةً طليقة . خزاني الله إن لم أقسم لك بأننا ربما كنا قريبَيْن! جدك رحل إلى البرازيل منذ ما يزيد على قرن ، أي أيام حكم إيسابيل الثانية . وقيل إنه كان على علاقة شائنة ـ واعذرني يا سيدي ـ بِمَنْتشيتا آمييروس التي كانت أخت أُكْسان ، وأخت شخص آخر لا أذكر اسمه ، وأظنه فوكو . نعم ، كان يدعى فوكو الذي لم يكن له إلا عينٌ واحدة ، ليس لأنه فقد الأخرى ، وإنما وُلد هكذا بعين واحدة في جبينه . كان جدك ومنيتشا آمييروس يلتقيان في كهف صنوبر داس بوثاس حيث أقاما عشّاً من أعشاب الهورطنسيا اليابسة ،

وأثفيّة لشيّ النقانق وللتدفئة أيضاً . ذات ليلة ، كمن أخوا منيتشا لجدّك لقتله في مضيق كلابيليينيو ، وهما مسلّحان ، الأول بسكّين كبيرة والآخر بعصا ضخمة من الحديد . لكن جدّك اقتحم مربضَهما بالحصان وأسقطهما . أفلت فوكو ذو العين الوحيدة عصا الحديد وانطلق هارباً كمحكوم بالإعدام . ولكن أكْسان ثبت لجدك ، وتصارعا . ضرب أكْسان جدّك بالسكّين بين أضلاعه ، غير أن دون كاميلو الذي لم يكن كبير الحجم بل كان شجاعاً ، قاوم الألم وانهال على خصمه بعصا الحديد التي تخلّى عنها أخوه الذي فرّ كالجبان . بعد تشريح الجثّة ، بدت رئتا القتيل ـ حسبما قيل ـ كالماء . وكانتا فرجةً للناظرين ، لا شكّ في أنه تلقّى «علقة» كبيرة .

ثالث الأخوة غاموثو يُدعى روكِه . هو وإن لم يكن خورياً ، فكان يدعى كريغو (كاهن) ديكوميسانيا ، ولا يعلم أحد لماذا . كرديغو ديكوميسانيا كان يتمتّع بقضيب كبير الحجم شُهِر به في كل أنحاء المنطقة ، بل كان يتحدّث به الناس فيما وراء بونْفِرّادا في مملكة ليون . قد يكون كريغو كوميسانيا مزهواً بقضيبه زهْوَ خُوري سان ميغيل ديبوثينيوس الذي سيظهر في هذه القصّة الحقيقية متى حان وقته . فإذا أُريدَ إثارة دهشة السيّاح يُشار عليهم بالفرجة على دير أوسيرا حَيْث الأثرُ الذي تركه الشيطان مطبوعاً على صخرة كرغدئيرو على هيئة دوس عنز وعلى قضيب روكه الذي يقال عنه إنه بركة .

ـ روكِه ، أرِ هذين الزوجين من مدريد ما تعلم ، ولك كأسٌ من الخمر .

ـ اجعلها كأسين اثنتين .

ـ لك ذلك .

حينئذ ، يفكّ روكه أزرار فتحة البنطال ويجعل المطلوب يهوي بصورة

حرّة حتى يصلَ إلى ركبتيه كأنه ثعلب مشنوق . روكه وإن كان اعتاد هذا الأمر كما ينبغي له ، فإنه كان يُصاب بالاضطراب في تلك اللحظة الحرجة .

ـ عذراً يا سيدتي ، لكنه يخالف المنطق في ذلك . كيف لم يكتسب الثقة بنفسه بعد كل تلك العروض ؟!

وإذا ما طلب دون روكه إلى زوجه تشيْلو دومِنْغيث بنت آبيلا ثينوس أن تُفرج ما بين ساقيها ، فكانت تربطه بمنشفة كيلا يُولج كاملاً ، وهكذا كانت تحتمي بشكل حسن .

ـ ليَحْمِني سان كاريّان! وليقبضنا الله إليه مؤمنات معترفات . آمين!

آدِغا تعلم كلَّ ما حدث لكنها كانت تكتمه خلال فترة طويلة .

ـ وأنت أصبحتِ لا تستطيعين السكوت أيضاً ، ما دام يسري في عروقنا دم واحد .

ـ لا ، يا سيدي . لا أريد أن أسكت ، فقد سكتُّ كفايتي . أتريد جرعة من خمر أوروخو ؟

ـ نعم ، بالطبع ، وشكراً جزيلاً .

تبعث على الرضا رؤيةُ تهافتِ الابتهال المملوء رِفْقاً ودَعَة . هو كالابتهال سماعُ سقوط المطر يصبرٍ على الحقل وفوق السطوح وعلى بلّور المرقب .

ـ أخي سيكونديـنو سرق الأوراق من محكمة كريبّينو ، أو بالأحرى سمح له بسرقتها الكاتبُ كسيان موستيرون الملقّب بكوكسو ديمارنييس الذي كان شرطياً من قبلُ في مكافحة التهريب . لأن أخي الذي لم يكن يبالي بالمال أعطاه خمسة بيزوات رشوةً وخمسة أخرى صدقةً فصارت عشرة .

آفوتو قتله قاتل قُتِل هو أيضاً ، حقّاً قُتل ، وهذا أمر تعرفه أنت أيضاً خيراً مني ، ولا أقول لك ذلك دون سبب ، أبناء كاثورّاكه كانوا سادة كباراً ، لذلك كانت النساء مغرماتٍ بهم ، سواء كانت نساء بيلار ديمونتِه ، أو نساءَ الأرجاء الأخرى ، لأن ما تريده المرأة في نهاية المطاف ، أن تجد من يمخض زبدتها . موتشو أصله من منطقة بعيدة جداً . ولِئن أقام أبوه وعائلته هنا فترة طويلة ، فإنهم ظلّوا غرباء قَدِموا من مكان بعيد . هم في نظري نصف مَرَغَرَتِيّين ، لكنني لا أستطيع الجزم بذلك . حسن! هذا زعم ، ولا أحبّ أن أخدعك . فلو اتّخذتَ خادمة لك حفيدتي اكْسيِلا التي هي في الثانية عشرة من عمرها ، ولم تبدأ بالفاحشة بعدُ ، حسب ظني ، فسوف أهدي إليك الأوراق وحذاءالقتيل الذي قتل آفوتو ، أعلَمُ أنها ذاتُ قيمة ضئيلة ، لكنها تشكّل دائماً ذكرى . أخي سيكونديـنيو كان يملأ الحذاءَ تبغاً لأنه كان يبعث فيه ضحكاً كثيراً ، حتى قال له سِيلبيو خوري سانتا ماريا ويكربيّيدا التي كان منها قريبُك القديس فرناندِس ، إن لم يدفنْ هذا الحذاء حسب الطقوس المقدسة فسوف يكون مأواه الجحيم . وما كان أخي يبالي به أبداً ، لأنه لم يكن يخشى الجحيم ، فهو يعتقد بأن الله صديق الحياة والطعام أكثر مما هو صديق الموت والجوع . صبَّ لنفسك مزيداً من الخمر ، فالطقس بارد جداً .

أولى علامة من علامات ابن القحبة الشعرُ المخلخل . ففابيان منغيلا كان ذا شعر مُبعْزق مبعثر .

ـ وماذا كان لونه ؟

ـ ذلك يتوقّف على كل مرحلة من مراحل العمر .

الابنان الرابع والخامس من آل غاموثو ثلستينو وثِفِرينو . توأمان .

وصارا خوريين كليهما . كانا درسا في مدرسة دينية في أورينسيه ونشأا محترمين بعض الاحترام ، كما يزعم . ثلستينو يلقب بـ كاروتشا ، وهو في خورنية سان ميغيل ديتابو آديلا ، وثفرينو يلقب بـ فوريلو ، وكان في خورنية سان أدريان ديسابو في أقصى ناحية ريريث ديبيغا ، ونقل الآن إلى سانتا ماريا ديكربييدا في بينيور ديثيا حيث خلف المرحوم دوسلِبيو .

نعم ، يبعث على الرضا رؤيةُ المطر يهطل كالعادة ، وهو يهطل دائماً ، في الشتاء ، وفي الصيف ، في النهار وفي الليل ، على الأرض وعلى الخطايا ، وعلى الرجال والنساء والدوابّ .

ما كان أحد يستطيع مواجهة بلدوميرو آفوتو ، لأنه كان شجاعاً كذئب ثاكوميرا . وكذلك كان أخوه تانيس قادراً على رفع رجل بقبضته دون أن يأخذ نَفَساً ، لكن أخاه كريغو ديكوميسانيا ، أو روكه ، كان مخجلاً إلى حد ما . أما أخواه ثلستينو كاروتشا ، وثفرينو فوريلو ، فكانا ينشدان القداس ، كما هو معلوم ، ويلعبان التشاميلو والكورّلاتيبا[1] جيداً . كاروتشا صياد يصطاد أرانب وترغلاً ، وفوريلو صياد سمك يصطاد البِنْكا والبنيَّ ، وإذا حالفه الحظ ، بعض التروتشا . لا يزال لدينا أربعة آخرون من الأخوة غاموثو .

آدغا امرأة محترسة ، لكنها كريمة أيضاً . لا شك في أنها كانت في شبابها مضيافة جداً وشبقة وميّالة إلى اللهو .

ـ يقال إن القتيل الذي قتل آفوتو وقتل زوجي أيضاً وآخرين كثيرين بلغوا دستة تقريباً ، والمشهور بابن القحبة ، ومعذرة يا سيدي ، ركبته رغبة

---

(١) ضربان من ضروب اللعب بالدوميتو

في اللعب بالنار . أنا لا أعلم ذلك على وجه اليقين ، لكن لما قُتِل القاتلُ أشعلتُ شمعة نذراً لسانتو كريستو ديسانتا ماريا ريال في أوسيرا . بعض الموتى يثير الأسى ، لكنّ بعضهم يبعث على الضحك . أليس صحيحاً ، يا سيدي ؟ وموتى آخرون يبثّون الخوف كالغرقى وضحايا الوباء . وبعضهم الآخر ، على العكس من ذلك ، يبعث على الضحك خاصة بعض المشنوقين حين تحركهم الريح ؛ لما كنت صبية ، رأيت في/ بوتادا فوندو/ مشنوقاً كان الصبيان يمسكون بقدميه ويتأرجحون بهما وكأنه لا شيء ، حتى أبعدهم الحرس المدني ، لأن السيد القاضي جادّ جداً ، وكان قشتالياً معتبراً للغاية ، ويدعى دون ليون ، ولا يطيق المزاح ، وإني أتذكره جيداً ، واليوم أخذت العادات تتلاشى ، والمسألة مسألة سرعة فقط .

ذكرى لاثرو كودسال لم تمّحِ من الأذهان بعدُ ، وليست آدغا وحدها من يعرف القصص ، كان لاثرو كودسال يهبط ذات ليلة سفح كابريرا وهو يغني ، وكان يغنّي دائماً لينبّه إلى أنه غادٍ أو رائح ، فأوقفه أحد الأزواج عند معبر تشوسكو .

ـ أنا وحدي هنا ، وأنت تسير وحيداً أيضاً وتحمل عصا .

ـ تنحَ عن طريقي . أنا لا أريد مشاكل ، ودعني أتابع سيري .

دارت الأمور بصورة سيئة ، وتبادل الطرفان الضربات ، تبادلا ما يزيد على مائة ضربة ، بل ما يزيد على مائتين . طرح لاترو كودسال خصمه أرضاً ، وربط يديه خلف ظهره بعصاه ذاتِها ، ثم خلّى عنه .

ـ اذهب إلى بيتك كيما تفكّ زوجُك وثاقك ، ولا تشتبك بعد اليوم مع الناس المسالمين ، أو يجري لك ما جري .

أثناء ذلك ، كان حرف الجبل ما يزال منظوراً ، ولولا المغربي الغادر ، لربما ما امحّى حرف الجبل أبداً . أشجار التين هنا لا تعطي ثماراً طيّبة ، ولو كنت غنياً لبحثتُ عن مكان حيث أشجار التين سليمة وقوية ، ولاشتريت مائة تينة إحياءً لذكرى لاثرو كودسال ، الشاب الذي كان لا يجاريه في المبارزة بالعصا أحد ، كيما تأكل العصافير ثمار التين كلها . يؤسفني أنني لستُ غنياً للقيام بأشياء وأرى العالم وأهدي خواتم إلى النساء ، وأشتري تيناً… أمّا وأنك لا تعرف العزف على الكمان ولا على الهارمونيكا ، فإنك تقضي الأماسي في السرير . بينيثيا هي مثل خنزيرة طيعة ، لا تقول لا لأحد . بينيثيا لا تعرف القراءة ولا العزف على الكمان لكنها شابّة وتتقن صنع الكعك ، وتعرف أن تثيرَ الإعجاب أيضاً في الوقت الملائم ، وحلمتا ثدييها حلوتان كبيرتان وصلبتان كحبتي كستناء . آدِغا تعرف قصة المشنوقين .

ـ بِيْدْويروس المغفل كان ابناً غير شرعيّ للخوري سان ميغيل ديبوثينيوس ، لم يشنقْ نفسه ، وإنما شُنق على سبيل التجربة .خوري سان ميغيل ديبوثينيوس يُدعى مِرْكْسيلدو أغْرِيْكسان فِنْتيرا ، وكان مشهوراً بضخامة قضيْبه.، وحين يُثار مركسيلدو ، يبدو ـ والعياذ بالله ـ كأنما يحمل تحت ردائه شجرة-صنوبر . إلى أين تسعى بذلك يا سيدنا الخوري ؟ ـ لأرى إن كانت تهدّئ من ثائرته جماعة الدير ، ياتيس الشيطان (أو عاهرة الشيطان إن كانت امرأة) ، ومعذرة ياسيدي . اسمع ، سيد دون كاميلو ، أريد أن أقدّم لك قليلاً من النقانق لتذوقها ، هي جيدة جداً ومقوّية أيضاً ، زوجي المرحوم ثيْدران كان ذا قوة خارقة لأنه كان يبتلع النقانق كاملة . أقول لك إن القتيل الذي قتله ما كن ليقتلَه إلا غدراً ، قل يا سيد ، إن الرصاص أُطْلِق على زوجي المرحوم من الخلف دون أن يُفسح له المجال لينظر إلى

القاتل . ولو أُتيح له النظر إلى القاتل وشركائه ، إن كان له شركاء ، لظلّوا فارين يركضون حتى يومنا هذا .

كان خوري سان ميغيل ديبوثينيوس يعيش مُحاطاً بالذباب ، على الأرجح كان ذا طعم حلو .

ـ أما كان يزعجه ذلك ؟

ـ بلى ، لكنه كان يتحمّل . ألديه وسيلة أخرى ؟

/ تشوفريتيرو/ هو سادس الأخوة غاموثو ، ويدعى ماتيّاس ويعرف شيئاً من التنبّؤ بالمستقبل عن طريق ورق اللعب ، ويقوم أيضاً ببعض أعمال الخفّة . وكان ماتياس يكافح كلاب الخورنية ، لكنه لما قتل عدداً ضئيلاً منها ، انتقل إلى العمل في كربيّينو في معمل توابيت إيل روبوسو حيث كان يكسب أجراً جيداً .

تشوفر يتيرو نشيط ويرقص على الإيقاع ويغنّي بصوت حلوٍ دون نشاز ، ويلعب البلياردو ويربح . (بعض الأشهر يربح حتى ألف بيزيتة ونيف) ، تشوفر يتيرو محبّ للنكتة ويقصّ قصصاً لأوتو وفريتز ، مُسبغاً عليها نغمة ألمانية . تشوفر يتيرو أرمل . زوجه المرحومة بورينيا التي نقلت إليها الساحرة مرض السل بشكل ما وماتت به ، كانت أخت لولينيا موسكوسو زوجِ الأخ الأكبر . يبدو أن البنات في هذه العائلة لا يعمّرن طويلاً ، بل يمتن قبل أن يصاب أزواجُهن بالسأم .

ـ أوكنّ يُثرْن اضطراباً كبيراً ؟

ـ لا! بل بالحدود المعتادة .

آدِغا تبحث عن النقانق والخمر . نقانق آدغا وخمرها موضعُ ثقة ومغذّيان جداً .

ـ بدؤوا تجاربهم بالمغفل بيدويروس ، وبالمرحوم زوجي أيضاً ، ولكن بطريقة أخرى . يوجد دائماً ناس سيئون جداً ، لكنهم يزيدون سوءاً أيام الحرب . وكان حقاً على الله أن يعاقبهم لأن الأمور لا يمكن لها أن تسير هذه السيرة ، فقد دعا داعي الموت جمعاً كبيراً منهم ، وقليل منهم مات على سريره كما جرت العادة بوقوف الأبناء الكبار إلى جانبهم ليُطبقوا جفونهم . وها أنت ترى النهاية التي حلّت بالقتيل الذي قتل آفوتو ثم ثنّى بزوجي ، قتل ناساً كثيرين وأسرف في القتل ، لكنه ، في النهاية ، لم يُوفّق في الخروج سالماً من مضيق ميكسو إيروس ، من يسفكِ الدم ، يغرق في الدم . أنت تعلم خيراً مني أن القتيل الذي قتل آفوتو و المرحوم زوجي ضيّق عليه قريبك ودفعه ليتوجّه إلى غدير داس بوثاس ديغاغو حيث لقي مصرعه ، ولا داعي كيما أتكلم ، وإذا شئت فأنا لا أقول شيئاً . روساليا تراسولفِه لُقِّبتْ بكابوكسا تولا أو العنز المجنونة ، لأنها حمقاء جداً ، وكانت كذلك دائماً ، روساليا تراسولفه شقّت قَميصَها وأبرزت ثدييها ، وقالت للقتيل الذي كان يقتل البشر : تعال . ارضعْني ، أنا لا يهمّني شيء ، ما أريده أن أظلّ حية . واليوم ، هي تقول : هذان الثديان مصّهما القتيل القاتل حقاً ، ومصّ أنحاءَ أخرى من جسمي أيضاً . لكنني ها أنا ذا مازلتُ حية ، وفوق ذلك غسلت جسدي كلّه جيداً وغسلت الثديين والفرج وحتى الإرادة ، يبعث على الدهشة سماعُها تقص ذلك .

كل واحد من الأخوة غاموثو له لقبُه . هذا ليس قاعدة ثابتة ، ولكنه أحياناً ، نعم . خوليان ماريبس بِنْتيلا ، أو فرناندس ، أو خوليان غاموثو ملقّب ببكسرولو أو اليقظ ، لأنه ذكيَ كالبرق ، سريع كالشرارة وظريف جداً ، بكسرولو يملك معمل ساعات في تشَنْتادا . زوجه من مكان آخر بعيد ، ولكنها استقرتَ هنا . إذاً ، تزوج بكسرولو بأرمل من تشنتادا

صاحبة معمل ساعات بيلار مورهِ بيرناس . وصارت صاحبة محلّ ساعات بمصادفة عجيبة : زوج بيلار الأول ، أو المدعوّ أوربانو دابينا اسْكيرون ، مالك معمل الساعات توفيّ بانسداد في الأمعاء ، وانتقلت ملكية المعمل إلى ابنهما أوربانيتو الذي لم يلبث أن توفي بفقر الدم ، فقد كان هزيلاً جداً . حينئذ ، انتقلت ملكية المحلّ إلى بيلار ، هذا هو النظام الذي تحدّده القوانين . وكان لبكسرولو وبيلار خمسة أبناء وثلاث بنات كلُّهم أصحّاء متألقون . احتمال أن يصبح بكسرولو مالك المعمل ضئيل جداً ، وهذا مؤكد . لكنه ما كان يُبالي بذلك ، ورضي بأن يكون ساعاتياً بالمشاركة ويرى أبناءه يأكلون طعاماً ساخناً ويستطيعون متابعة دراستهم .

ـ كابوكسا تولا ، أو العنز المجنونة ، رضع ثدييها القتيلُ الذي قتل آفوتو وزوجي المرحوم وربما اثني عشر أخرين ، ولكن ابن القحبة صار الآن ميتاً وربما لم يُدفن ، لأن امرأة ـ سأقول لك اسمها ذات يوم ، سيد دون كاميلو ، وستحتفظ به سراً ، وإذا شاء الله لا أتكلم إلا بما ينبغي لي ـ أقول : هذه المرأة سرقت بقاياه من المقبرة ، وصنعت بها ما لا يمكن معرفتُه أبداً ، ما دامت هي لم تقل شيئاً حول ذلك . يجب علينا الالتصاق بالتراب ، ولئن تكنْ تراباً ، خير لك من أن تكون ماء . كابوكساتولا ، العنز المجنونة ، ليس فيها من الجنون شيء ، وما تزال تعيش ـ كما أظن ـ مع ابنتها إيلْدِميْرا التي تزوّجت في سِرّيا بعنصر من الحرس المدني . هي في مثل سنّي ، أو ربما زادتني سنة أو سنتين ، وكنا صديقتين حميمتين دائماً . نحن ـ النساء جميعاً ـ مصّ أثداءَنا أحدٌ ما ذات مرة . لذلك خُلقنا ، والرضا به لا ينزعه منا أحد . المهم ألا نُصاب بالاشمئزاز : مصّها شابّ في المتبن ، وآخر في الإسطبل ، والخوري في مستودع الكنيسة ، وتاجر قرب المدفأة ، وطحّان في الطاحون ، وغريب في الجبل والزوج متى يشاء... المهم ألا نصاب

بالاشمئزاز . ثدياي هذان ، كانا ، لما كنت أرضع بنتي بينيثيا ، ثديين حقيقيين مثلَ كل الأثداء : كبيرين وصلبين ومملوئين بالحليب . رضعتهما الأفعى أيضاً ، ولكن المرحوم زوجي شقّ رأسها بالمِعزقة وقتلها . هنا ، لا ترى غَيْرَ الموتى ، والريحُ الجائعة تهبّ نافخةً المارش الملكيّ بين البلوط .

تمطر على مفرق البينيور ، وعلى شلال ألبارونا الذي تحرسه الذئاب بينا تسير عربة روكينيو التي يَجُرّها ثوران في الدرب ، جاعلة المحور يغنّي لتخيفها . الحلزون البزّاق يصير ماء في الشتاء وينام متشبثاً بجذيرات الفريز البري ، الحلوة المختبئة ، وأرواح الموتى في المطهر تشرب أيضاً من ينبوع ميانغيرو مثلها مثل المجذومين . وحين تسأم تهيم على وجوهها على ضفاف النهر مع الصحبة المقدسة . بينيتو غاموثو سُمّي بـ لاكراو ، أي العقرب ، لأنه قاتم كالعقرب حقاً ، وإن كان لا يحوي سماً . لاكراو أصمّ أخرس ، لكنه ذكي ويقوم بأعمال جيدة جداً ، فهو ينشر الخشب ويربي أرانب ويقلي الكعك بشكل حسن مثل بينيثيا تقريباً . لاكراو عازب ويعيش في كربيّينو مع أخيه ماتياس ، ويعمل في معمل التوابيت ويكسب ما يكفيه . لا كراو يقصد مرة واحدة في الشهر المواخير في العاصمة وينفق دون حساب ، يقطن مع تشوفر يتيرو ولاكراو أيضاً أخ ثالث ، هو سالوستيو الساذج والضعيف . والحق أنه يرضى بأي شيء ، ولا يقوم بعمل أبداً . تشوفر يتيرو لا يفكّر في الزواج مرة أخرى ، لأنه لا يعلم ماذا سيكون مصير أخويه .

- وضعي حسن هكذا! وبعد كل شيء أخواي من عيال الله أيضاً .

الابن التاسع والأخير من آل ماربيس يدعى مِكْسير يكيرو أو البكّاء لأنه يقضي حياته شاكياً بصوت كصوت الجُدْجُد . على الأرجح يؤلمه شيءٌ في داخله لا يستطيع الإفصاح عنه .

آدِغا لا تريد أن تموت دون أن ترى البحر .

ـ ليس السوء في أن نموت ، وإنما أن يُعلم بموتنا . السوء هو الضحكة التي يبعثها الموت في نفوس الأحياء الباقين . تمنّيت أن أحيا يوماً واحداً بعد موت القاتل ؛ وها أنا عشت أياماً طوالاً . القتيل الذي قتل زوجي المرحوم مات ، حقاً مات . وأنا ما أزال أحيا . المهم أن ترى كيف يموت الآخرون ؛ والآن ، لا أريد أن أموتَ حتى أرى البحر الذي لا بدّ من أن يكون جميلاً . قالت لي كابوكساتولا إنه كبير ، على الأقل بكبر منطقة أورينسه ، بل ربما كان أكبر منها . القتيل الذي قتل آفوتو ثم قتل زوجي ، قد مات ، وهذا يبعث على العزاء . ينبغي لنا أن نلتصقَ بالماء ، ولئن تكنْ ماء ، خير لك من أن تكون هواء . كابوكساتولا كانت تنكبّ بحماسة على ترويض وتدريب عصافير وحييوينات أخرى . كانت تصنع ذلك بمهارة تضاهي مهارة بوليكاربو أُوبِنْثا ابن البغنييرا ، كانت تدرّب بوماتٍ وغرباناً... البومات أغبى من الغربان والعلاجيم والماعز . فهذه كلها سهلة الترويض . كانت تروض ظرابين وخفافيش أو ما تشاء يا سيدي . كابوكساتولا كانت تعرف تصبير الدجاج والأفاعي ، وتجعل الثعالب ترقص «الغالوب» بفرك مؤخّراتها بقرن فليفلة حار شُقّ نصفين... فليفلة بلدها الجيدة ، وتضحك حينئذ ما شاء لها الضحك! كابوكساتولا خير من كثير من الرجال . كل النساء مارسن الفاحشة ذات مرة مع كلب ، أو مع طفل غرير ، ويفضّل أن يكون ممن يقاد باليد ولا يبكي ، وألا يكون الطقس بارداً جداً . هذه عادة من عاداتهن ، وسنّ الشباب تشفع كل شيء . أما الرجال فيبحثون عن عنز قرناء كيما يمسكوا بها جيداً من قرنيها ، ثم يتمرّغون فوقها كما يشاؤون . هذا شيء تفرضه الطبيعة . حسن! لكن كابوكساتولا كانت تتصرّف مع الذئاب ، ما كنا نتصرف به مع الكلاب ، هذا أمر لا يصدّقه أحد ، لكنه حقيقة ، ورأيتها بعينيّ

هاتين ، كانت حيوانات الجبل تطيع كابوكساتولا ، لأن أمّها لَقِحت منها وهي على متن حصان يجري أثناء هبوب عاصفة سان لورنْثينيو ديكْسفيغيرو التي تقتل كل عام قشتالياً وغجرياً ورجلاً أسود وطالباً دينياً . هي عاصفة قاسية جداً ، ومخربة وشديدة المرارة . كابوكساتولا تنفخ في الأوكارينا محذّرة من هبوب العاصفة الحيواناتِ الضعيفةَ التي لا تملك دفاعاً عن نفسها ؛ كخلد الأرض ، والحريش البري ، وعنكبوت الجلبان والحلزون ، وغيرها .

بوليكاربو بن البغنبيرا لم يكن يُلقّب بأوبِنْثا وإنما بـ بورتو موريسكو . أُوبِنْثا اسم جدته التي كانت امرأة ذاتَ بوادرَ ونفوذٍ كبير .

آل كرّوبو يحملون جميعاً رقعة دقيقة من جلد الخنزير في جباههم ، وكأنها علامة صناعية ، أو شامة تَصِمُهم باللعنة . موتشو يحمل في عروقه دماً من آل كرّوبو ، ولم يكن مستقيماً ولا أهلاً للثقة . لا يُعرف من أين جاء آل كرّوبو . وهم ليسوا من أهل البلد . وعلى الأرجح قدِموا من مَراغَتّريا الواقعة وراء بونفرّادا ، جاؤوا هاربين من الجوع أو العدالة . من يدري! فابيان منغيلا كان يقضي وقته بسنّ موساه وصقلها . موسى سيجُبر ذات يوم على ابتلاعها . آل كروبو لا يحرثون الحقل ولا يربّون الماشية ، وإنما هم «قعدة» . تطلق الناس كلمة قعدة على الذين يعملون قاعدين ، أو على الأقل ، لا تمطر فوقهم كالحذائين ، والخياطين وغلمان المحلات والحلاقين والكتبة ، وأصحاب أعمال أخر لا تتطلب قوة ولا أرضاً . العلامة الثانية من علامات اللئيم ابن القحبة ، الجبهة الضيقة الضامرة . أرأيت جبهة فابيان منغيلا ؟ إذاً ، هي من ذلك الطراز .

مونتشو ريكيكسو كسبولادو ، الملقب بمونتتشو بريغيتاس ، لأنه لم يكن له همٌّ إلا السفر ورؤية الدنيا . ،كان في حرب مليلة مع لاثرو كودسال

غروباس ، على الأرجح لم يكن يلقّب بلقبه الثاني يومئذ . لكنه فرّ من رصاص المغاربة وخرج سالماً وإن فقد إحدى ساقيه . طاف مونتشو بريغيثاس حول العالم مبحراً دائماً على متن سفن هولاندية . إن أعجب بشيء فقد أعجب بمدينة غوياكيل .

ـ بساق خشبية جيدة الصنع والمقاس ، يمكن للمرء أن يحيا دون سوء . قد لا تصدّقون ذلك . لأن سكان نيوتيتانيك الجزيرة التي أغرقها الانكليز في المحيط الهادي قصفاً بالمدافع لأنها أرادت إقامة نظام متري عشري ، يرون في حمل ساق خشبية علامة مميزة ، إذْ أرادوا أن ينصّبوني رئيساً عليهم ، لكني لم أوافقْهم لأني كنت أرغب في العودة إلى البلد .

كان مونتشو بريغيثاس يحمل كلّ صفات الرائد على الطريقة القديمة ، فهو كذوب ومدّعي حب ومقدام وكسول ومحشوّ بالخرافات . فقد عَثَر في ساحل بِستّيانينيو على شجرة نادرة جداً تدعى أوميبل تسقط أوراقها في الخريف على الأرض هامدة من الحزن ، ثم تتقلّص برفق شديد كجسم الحلزون وتتحوّل إلى وطاويط دون عيون ، وذات رؤوس منقّطة على الأجنحة بلون أحمر . فإذا هبّت الريح أمكنها أن تنهض وتنطلق حية وتطير . أو لا ، تُترك ملتصقة بالأرض إلى أن تموت من الجوع ، لأن قتلها مرة أخرى يجلب الكوارث . لكن ، إذا تُركت لاصقة بالأرض لا يحدث شيء وتظل الأمور كما هي .

آدِغا صديقة حميمة لمونتشو بريغيثاس حتى كادا يصبحان خطيبَيْن ذات مرة ، لكن ، مضى عليهما الآن سنوات طوال لم يلتقيا خلالها .

ـ انظر ، سيد دون كاميلو : دعْك من الخرافات . أسأل نفسي أحياناً إن كنت من المؤمنين بالخرافة أم لا . الجميل أن تموت بعد الموتى المحكوم

عليهم بالموت ، بعد الموتى الذين يحملون الموت مطبوعاً على عيونهم وجباههم وقلوبهم ، بعد الموتى الذين كيانهم كله يريد الموت . نعم ؛ هذا قانون الرب : من يسفح الدم ، يتسمّم دمه ، ويقضِ غارقاً في الدم . وفوق ذلك ، ليس له مخرج ، لأن كل الأبواب توصد أمامه ؛ ينبغي لنا التشبّثُ بالهواء ، ولئنْ تكنْ هواء خير لك من الموت . تعب الناس من هؤلاء الصفر الشاحبين الذين زرعوا الموت . ولما جاءت ساعة الثأر ، وهي تجيء متى أمر ربّك بها ، لكنها تجيء دائماً ، زرع الذين ذرفوا الدموع لكنهم ما يزالون أحياء ، شجرة فستق مقابل كل قتيل من الصفر ، ليُعرف عدد القتلى ولتبتهج الخنازير البرية . ما أكثر أشجار الفستق المغروزة هنا! ـ كان يقول الشاحبون الصفر لأولئك الذين لم تحن ساعة قتلهم . ـ تعالوا نتخذْ منها عبرة وعظة! ـ كلا! يا سادة . ـ كانوا يجيبونهم ـ . هذه الأشجار هي حدود ما بيننا . إنها تنشأ وحدها من أجل أن يحصل الخنزير البري على فستق طازج .

قالت آدِغا الكلمات الأخيرة بصوت أبَح ، ثم بلعت ريقها وابتسمت .

ـ اعذرني يا سيدي! أتريد أن أعزف لحن البولكا/ فنفينيت/ على الأكورديون ؟ صرت عجوزاً . لكنني ما زلت أعزفه بشكل صحيح ، وسوف ترى .

ما تزال آدِغا تعزف على الأكورديون حسب الأصول وبأسلوب جميل .

ـ تعزفين اللحن جيداً جداً .

ـ كلا! مُذْ قُتل زوجي ، لم أحصل على الراحة أبداً . وهكذا لا يوجد من يعزف جيداً على الأكورديون . ولا على شيء آخر . أتسمح لي بالبكاء ؟ لن أطيل أبداً .

سكبت آدغا دمعة أو دمعتين .

ـ لما قُتل القاتل الذي قتل زوجي ، ظننت أنني سأتنفّس براحة كبرى . لكن ، لا ! من قبلُ ، كنت أبغض ، وصرت الآن أحتقر ، وفي هذا تخونني قواي . من قبل كنت صامتة ، والآن صرت أتكلّم ، ربّما أكثر مما هو ضروري . العزف على الأكورديون كشرب الماء من الينبوع ، بعض الأيام تجد نفسك عطشان ، وفي أيام أخر لا تشعر بالعطش . أظن أن الأمر الوحيد الذي أُتقن صنعه هو الاحتقار . وقد كلّفني ذلك جهداً كبيراً كيما أتعلّمه . لكنني صرت الآن أحتقر كإلّه ، وأستطيع القسم على ذلك . المهم أن تعرف أن رأسك قد يَوْجَعك ، وإن لم يكن يوجعك . أنا بنت هذه الأرض ، ومنها لن يخرجني أحد ، ويوم أموت سأتحول إلى تراب يغذّي الرَّتم . سأتحول إلى زهرة الرتم الذهبية . وإلى أن يحين ذلك ، سأنتظر!

لاذت آدغا بالصمت وصبّت كأسين أخريين من الخمر واحدة لها وأخرى لي .

ـ بصحتك!

خلف بيت الآنسة رامونا حديقة تندفع حتى النهر بأقصابه وسراخسه وبركه وسمكه والمنتحرين فيه . ثلاثة منتحرين خلال أحد عشر عاماً ليس شيئاً كبيراً . فهذه الأرض لا تُطلع منتحرين بوفرة ، وتقتصر المسألة على عجوز ما دون رعاية ، أو فتاةٍ ما مخفقة في حبها ، أو امرأة متزوجة أكلها الضجر وأتخمها تأنيبُ الضمير . ولا يعلم أحد إن كانت أمُ الآنسة رامونا أغرقت نفسها بإرادة منها أم دون إرادة .

ـ أنت وأنا قريبا ريموندو كسندولفس . أنت من جهة الأم ، وأنا من جهة الأب ، أي أننا قريبا الأقربا. . ولو بحثت قليلاً ، لربما تبيّن لك أننا

قريبان أيضاً . نحن هنا جميعاً ذوو قربى إلى هذا الحدّ أو ذاك ، ما عدا آل كرّوبو الذين طاروا من عالم آخر وحطّوا هنا ، واليوم ينمون كالفطر السامّ .

تبدو الآنسة رامونا في الثلاثين من عمرها ، وربما تربو عليها قليلاً ، وعليها سيماءُ الاعتداد بالنفس ، مع شيء من النزق ، والاطمئنان أيضاً ، هذا إن لم نقل الشرود والخجل والغموض . الآنسة رامونا ذات عينين كبيرتين سوداوين ككهرمان كومبوستيلا الأسود ، وهي سمراء البشرة ، على الأرجح نصف مكسيكية ، لأن إحدى جدّات كسندولفس أو جدة جدتهم كانت مكسيكية . وكان للآنسة رامونا ثلاثةُ خطّاب لكنها ظلّت عازباً بدافع الكبرياء ، الآنسة رامونا تنظم الأشعار وتعزف سوناتات على البيانو وتعيش مع خادمين هرمين وخادمتين عجوزين ، وَرِثَتهم جميعاً من أبيها أُبْريخيمو فَرَمِيْنياس خُوثِيْن الذي كان مهتمّاً بتحضير الأرواح ، وهاويَ عزف على البانخو ، ومات وهو برتبة مقدّم في الشؤون الإدارية العسكرية . خدم الآنسة رامونا أربعُ كوراث ، بل قل أربعة إخفاقات ، لكنها ما كانت تستطيع طردهم من البيت الذي يموتون فيه جوعاً وبؤساً .

ـ كلا! ظلوا هنا حتى أقبركم . أرجّح ألا يطوّل بكم العمر .

ـ شكراً ، يا آنسة! جزاك الله على إحسانك خيراً .

ورثت الآنسة رامونا من أبيها أيضاً سيارة باكارد سوداء رسمية ، وأخرى من طراز إيسوتا ـ فراتشيني بيضاء أنيقة للغاية ، ما كانت تخرجهما من المرآب . الآنسة رامونا تعرف القيادة ، وهي المرأة الوحيدة في المنطقة ، التي تحمل شهادة سوق . لكنها ما كانت تخرج السيارتين من المرآب قطّ .

ـ هما تستهلكان كثيراً من الوقود . دعهما تتأكسدا .

عُلِّقت في قاعة الآنسة رامونا لوحتان من رسم دون فرناندو ألباريس سوتو مايور ، إحداهما تمثّلها هي ذاتها بالزِّيّ المحلي ، والأخرى تمثل أمها بطرحة إسبانية .

ـ يبدو الشبه بينهما كبيراً . أليس كذلك ؟

ـ لا أدري ، أنا لا أعرف أمك!

ـ سواء عليك عرفت أم لم تعرف ، كل اللوحات تشبه بعضها بعضاً .

ريموندو كسندولفس هو ابن سلبادورا أخت أمي الصغرى ، وهو ذو ثقافة ومظهر حسن جداً . كلما جاء ريموندو في زيارة لبنت عمنا ، أهدى إليها وردة كاميليا بيضاء .

ـ خذي ، مونتشا ، كيما تَرَيْ أني أحبّك وأتذكرك دائماً .

ـ أشكرك جداً ، يا ريموندينيو ، ما كان ينبغي لك أن تزعج نفسك .

عند الآنسة رامونا كلب من نوع لولو ، وقط أنغورا ، وغواغامايو كبير الحجم وذو ألوان شتّى ، وببغاء أخضر ، وقرد من نوع تيتي وسلحفاة ، وطائرا تمّ يسبحان في بركة الحديقة ويسعيان أحياناً حتى النهر ، لكنهما يعودان دائماً . الآنسة رامونا صديقة حميمة للحيوانات ، أما الحيوانات الوحيدة التي لا تعجبها ، فهي تلك التي تصلح لشيء ما : كالأبقار والخنازير والدجاج ، يُستثنى من ذلك الجياد ، لأن الآنسة رامونا تملك حصاناً أصيلاً عمره حوالي عشرين عاماً .

ـ الجياد كالرجال ، جميلة وفارغة ، وبعضها ذات مشاعر نبيلة .

كل حيوانات الآنسة رامونا لها أسماء ما عدا الببغاء ؛ فالكلب يُسمّى وايلد وينام مع الآنسة ؛ والقط ، كينغ ؛ والغواغايامايو ، رابيتشو ؛ والقرد ،

خريمياس ، والسلحفاة ، كساروبا ؛ والحصان ، كاروسا ؛ وطائرا التمّ رومولو وريمو ؛ كان القطّ مخصياً ، لأنه خرج ذات ليلة تلبية لنداء الغريزة ، ولم يعد إلا في اليوم التالي متّسخاً محزوناً جريحاً . وكان أمر الآنسة رامونا قاطعاً .

ـ يا للحيوان البائس! لن يجري له ذلك مرة أخرى . فَلْيخصِ .

وخصي بالطبع ، ولم يهرب مرة أخرى . ولأي شيء يهرب ؟ الغواغامايو أزرق ، أبيض أحمر كالعلم الفرنسي ، تخالط هذه الألوانَ بعضُ الريشات الخضر والصفر . يقضي الغواغامايو وقته على مَرْبأة مربوطاً بسلسلة ذات طول كافٍ . يهبط الغواغامايو المربأة ويصعدها ، ويتعلّق بها ثم يتسلقّها اعتماداً على قدميه دون حماسة كبيرة ، مُبدياً استسلامه لليأس . أمّا القرد فيستمني ويسعل ، والسلحفاة تقضي حياتها نائمة ، وطائرا التمّ يبحران بضجرهما بأناقة . وكان الحصان الحيوانَ الوحيد في بيت الآنسة رامونا الذي لا يُشار إليه بإصبع الكآبة .

ـ لا تضحك مني ، سيد ريموندينيو . ليس السوء في كوني وحيدة . كل حياتي كنت وحيدة ، ولقد تعوّدت على الوحدة منذ فترة طويلة... ، وإنما السوء في أن أقضي أيامي وذهني فارغ ، مفكرة في أمور سخيفة ، وكأنني فقدت عقلي . كل يوم يمر نزداد بعداً عن ذواتنا شيئاً يسيراً ، ونصبح أكثر ضجراً أيضاً . ألا تظنّ أن من واجبي الذهاب إلى مدريد للإقامة فيها ؟

تمطر بغزارة فوق الخطاة ، وتلونت الأرض بلون السماء الهادئ الخضل . سماء لا يشق فضاءها عصفور لعدم وجوده . وإذْ كنت لا أعرف العزف على الكمان ولا الهارمونيكا ، ولم أجد مفتاح الخزانة حيت أحفظ مجموعة الطوابع ، فإني أقضي أمسياتي في السرير مع بينيتيا أقرأ قصائد

لخوان لاريا ، وأسمع تانغو . بينيثيا كانت في اليوم الفائت في أورينسه . وجلبت لي معها ركوة قهوة هدية . بينيثيا عملية جداً وتعدّ فنجاني القهوة في إنائين ، أحدهما لي والآخر لها .

ـ أتريد مزيداً من القهوة ؟

ـ لا مانع عندي!

بينيثيا ترتكب الخطيئة بسلامة وفرح ، وحلمتا ثدييها كبيرتان غامقتان وصلبتان وحلوتان أيضاً ، وعيناها زرقاوان ، وهي متسلّطة جريئة في السرير ، وتتصرّف مع الضجيع بمعرفة كبيرة واستبداد . بينيثيا لا تعرف القراءة ولا الكتابة ، لكنها تضحك دائماً باطمئنان كبير .

ـ أتحبّ أن نرقص تانغو ؟

ـ لا! أنا بردان . تعالي هنا .

بينيثيا تبثّ الدفء دائماً ولو كان الطقس بارداً ، وهي آلة تمنح الحرارة والرغبة ويفرحني أني لا أعرف العزف على الكمان ولا على الهارمونيكا .

ـ أعطيني قبلة!

ـ نعم .

ـ صبّي لي كأساً من العرق .

ـ نعم .

ـ اقلي لي قطعة من النقانق .

ـ نعم .

بينيثيا هي كخنزيرة طيعة لا تقول لا ، أبداً لأحد .

ـ ابقي هذه الليلة عندي!

ـ لا أستطيع . سيزورني فوريلو غاموثو ، خوري سان آدريان الذي صار الآن خوري سانتا ماريا ديكريبيدا . يزورني كلّ أول ثلاثاء من الشهر .

ـ اذهبي!

لاثرو كودسال قتله مغربي وهو يستظلّ بتينة بإطلاق الرصاص عليه غدراً من بندقية ، في وقت كان أبعدَ من أن يموت بهذه العجلة . لما طرق الموتُ أذنَ لاثرو كودسال ، كانت تجول في خاطره صورةُ آدغا عاريةً مفرجة ما بين ساقيها وهي تتشمّس شيئاً قليلاً على السفح . كلنا جميعاً كنا شباناً ذات مرة . على ضفاف ينبوع الميانغيرو الذي يغسل فيه المجذومون اليوم جراحهم ، لا يزال ينمو التين ذو الأفنان التي تحوّلت إلى رماح كيما يستردّ أهالي فيغيرواس من المسلمين ، الفتيات السبعَ المحبوسات في برج بنيتو بورديلو . في يومنا هذا ، لا يتذكّر أحد هذه القصةَ . كان لمرآكا حطّابةِ مرجٍ فرنثيلوس التي ذكرها أحد أصدقاء آدغا في كتابٍ كتبه ، اثنتا عشرة بنتاً ، لم تبلغ واحدة منهن سنّ العاشرة وهي عذراء . كلهن كن يكسبْن عيشَهن من فروجهن الخبيثة . إيلبيريتا عاملة في مقهى دونياروسا في أورينسيِه تعرفت على إحداهن المسماة كارلوتا في ماخور بيلونا . ماء ميانغيرو النقيُّ لا يمكن شربه ، حتى العصافير لا تشرب منه ، لأنه يغسل عظام الموتى ، ورئات الموتى وبؤس الموتى ويحمل معه ألماً كبيراً .

الأعمى غودنِثيو سهل القياد جداً ولا يتعب من العزف على الأكورديون أبداً .

ـ غودنثيو ، اعزف باسودوبله[1]!

ـ سمعاً وطاعة ، يا سيدي .

الأعمى غودنثيو يقطن في ذات المكان حيث يكسب رزقه ، أي في ماخور برّوتشا ، على مَرْتبة من التبن موضوعة في خزانة ثياب تحت الدرج ، وبذلك كان يوفّر نفقة السكن . حظيرة غودنثيو دافئة ومريحة . لا نور فيها بالتأكيد ، لكنه ما كان يحتاج إليه أيضاً . وسَواء على العميان وجودُ النور أم عدمه .

ـ لكن ، ألا يَرَوْن شيئاً ؟

ـ لا أدري! أظن أنهم لا يرون .

إذا فَرِغَ غودنثيو من عزف الموسيقى في الساعة الخامسة أو الخامسة والنصف صباحاً ، كان يسعى إلى كنيسة لاس مِرْثيدِس في شارع آمارغورا ، لسماع القدّاس ثم يعود ويضطجع حتى منتصف النهار . وعند وفاته ، اشترت العواهر له إكليلاً من الأزهار ، وطلبْن أن يُقام له قداس ، لكنهن لم يستطعن الذهاب إلى المقبرة لأن الشرطة منعتهن من ذلك .

ـ جدُّك رَحَلَ إلى البرازيل لمدة أعوام . كان ذلك ، لما قتل أُكسان آميبروس وطرد فوكو ، لكنه أعطى منيتشا خمسين ألف ريال عداً ونقداً ـ وكانت تشكّل في تلك الأوقات ثروة ـ ، ومثلها على شكل أسهم في شركة سكة الحديد م . ث . آ[2] . وبطاقة تمثّله لدى مودستو فرناندس غونثالث ، مؤلف كتاب « إرث أجدادنا » ، والذي يكتب مقالاتٍ في المجلة الإسبانية ـ

---

(١) أي الخطوة المزدوجة ، رقصة إسبانية سريعة حديثة ميزانها ٢/ ٤ . وتطلق على اللحن المرافق لها أيضاً . (المترجم . نقلاً عن مجلة الحياة الموسيقية) .

(٢) مدريد ـ ثامورا ـ آرروسا .

الأمريكية المصورة ، وفي مجلة بريد إسبانيا بتوقيع كاميلو ديثيلا . قصدت منيتشا مدريد وافتتحت مؤسسة لاأورينسيانيا في شارع سان ماركوس . وإذْ كانت كفؤاً أو ذكيّة ولا تهاب العمل ، استطاعت أن تدّخر وتزدهرتجارتها ، ثم تزوّجت بموظف من مجلس النواب يدعى دون ليون روكا إيبانييس ، أنجبت له ثماني بناتٍ تزوّجن جميعاً زواجاً موفّقاً ، وابنين اثنين ، أحدهما صار تاجر آلات ، والآخر مدّعياً عاماً . بل وصل حفيد دون ليون منيتشا ابن البنت الرابعة ماروخيتا من زواجها الثاني ، إلى مركز نائب وزير في العهد الجمهوري ومات في بروكسيمييتو في فنزويلا عام ١٩٤٩ . كان نائباً عن اليسار الجمهوري ، ويُدعى دون كلارو كوميسانيا روكا . أما كنية آمييروس فتأتي في المحل الرابع . كانت منيتشا دائماً ذاتَ مظهر حسن وقوي حقاً . كذلك أبناؤها وأحفادها كان لهم أيضاً حضور حسن ، وإن لم يكن في مثل حضورها . إحدى بنات نائب الوزير ، وبالتالي حفيدة بنت منيتشا المدعوّة هايده كوميسانيا بيتنكورت أصبحت ملكة جمال بروكسيمييتو حوالي أعوام ١٩٥٠ .

بعض المغفّلين محظوظون ، وبعضهم منكود الحظ . هذا يجري مذ كان العالم عالماً وسيظل كذلك دائماً . فقد أُبقي روكينيو بورّين المغفل المنكود الحظ ، قرابة خمسة أعوام داخل صندوق ، ذلك كيلا يزعج أحداً ، ولما أُخرج كان مثلَ عنكبوت شاحبة شعراء .

ـ هو لا يبالي . ألا ترى أنه مغفل ؟

ـ لا أدري ، يا امرأة . أرجح أنه ربما كان يحب أن يروض عموده الفقري ، ويشم هواء نقياً .

ـ ربما! لا أقول لك لا!

أم روكينيو بورّين تظن أن المغفلين لا يحسّون ولا يعانون .

ـ وإذ كانوا مغفلين...!

من قبلُ ، كان يمكن اصطحابُهم إلى المهرجاناتْ الدينية ، لكنّ الجوع سيدُ الموقف اليوم ، ولا يريد الناس حتى أن يَرَوْهم . هم الآن يتلهّون بأشياء أخر ويتهامسون ويقصون على بعضهم البعض همومهم بصوت خفيض أيضاً . هنا لا داعي يدعو إلى رفع الصوت . يتدلّى من عريش خادم الكنيسة صفٌّ من الثعالب المشنوقة ، تشبه كلاليب تتفسخ تحت المطر ، وتطلق رائحة جثّة عفنة . كاتوكسا بنته المغفّلة بنت مرتينيا ، تقترب من دالية خادم الكنيسة حين لا يلمحها أحد وتبرز ثدييها للحيوانات الميتة .

ـ خذي ، خذي ، كل شيء ستأكله اللعنة . سان خوان تاديو ، يا حواريّ ، يامجيد ، اجعلْ أحزاني تنقلب فرحاً . خذي ، خذي . لا بدّ للمطر من أن يمحو كل شيء . سان خوان تاديو الذي في السماء ، اجعل لأحزاني عزاء . خذي ، خذي كل شيء ستمحوه الريح .

ويطرد خادم الكنيسة المغفّلة بنت مرتينيا بالحجارة عادة .

ـ انقلعي من هنا ، يا مغفلة ، يا نجسة! هيا اعرضي ثدييك على الشيطان ودعي الأشخاص المحترمين بسلام .

تخبّئ المغفلة ثدييها وتضحك مقهقهة ، ثم تنصرف منحدرة في طريقها محاطة بأنفاس المطر ، وضاحكة دائماً وناظرة إلى الوراء كل ثلاث خطوات أو أربع ؛ كاتوكسا بنته مغفلة ساذجة وليست ذاهلة حمقاء خبيثة ، وتعيش على المصادفات والعطالة أيضاً ، لأن الموت جوعاً ليس أمراً سهلاً للغاية ، تسعل أحياناً وتبصق قليلاً من الدم ، لكنّ حالتها تتحسّن عند حلول عيد

سان خوان وتنقشع الغيوم شيئاً فشيئاً ؛ كاتوكسا بنته في العشرين من عمرها ولا يعجبها شيء كالسباحة عارية في سد طاحونة لوثيومورو .

خوري سان ميغيل ديبوثينيوس يقضي أيامه مُحاطاً بسحابة من الذباب . ترافقه على الأقل ، ألفُ ذبابة أينما حلّ ورحل ، لجسمه حلاوة وكذلك مادّة الحبوب التي يتناولها بوفرة . لما قصد خوري سان ميغيل ديبوثينيوس أورينْسِهِ لالتقاط صورة ، اضطُرّ إلى البقاء نصف ساعة في الظلام إلى أن هَدَأَ الذباب وسكن .

ـ ولِمَ لم يُلقِ عليه مبيد ذباب ؟

ـ لا أدري . ربما لم تجرِ العادة بذلك .

خوري سان ميغيل ديبوثينيوس يعيش مع خادم عجوز قطعاء ، لها رائحةُ نفتلين ، وتسكر كل يوم تقريباً بمشروب له طعم القهوة .

ـ دولورِس!

ـ مرني ، سيد مركسيلدو!

ـ هذا الخبز يابس . كليه أنت .

ـ سأفعل ، ياسيدي .

أُصيبت دولورِس منذ أعوام بورم في ذراعها ، يُرجّح أنه كان ورماً خبيثاً ، فأرسلها الطبيب إلى المشفى ليُقطعَ ذراعُها تجنّباً لمضاعفات صحية . وكالعادة ، قطع ذراعها .

ـ وإن فقدتُ ذراعاً ، فأنا أرتّب أموري جيداً . الناس كسالى جداً وليس من عادتهم حبُّ العمل .

خوري سان ميغيل ديبوثينيوس كبير الحجم كثور ، وله فُواق كفواق الأسد .

ـ نحن ـ الرجال العاديين ـ لا داعي يدعونا لنحيا في الخفاء والنميمة والكلام المُبهم . هذا أليق بالمهرجين والمختّثين .

ـ نعم ، يا سيدي ، هو أليق بهم .

خوري سان ميغيل ديبوثينيوس يحب الأكل والشرب بنهم .

ـ وأصوم أيام الصوم كما تقضي أوامر الكنيسة . لِمَ لا يُقال ذلك ؟

ـ هذا هو السؤال : لِمَ لا يقال ذلك ؟

كما أن خوري سان ميغيل ديبوثينيوس يحبّ أشياء أخر لا موجب للكلام عنها ، فالجسدُ ضعيف ، ومن كان خالياً من الخطيئة فَلْيرمِ أوّل حجر .

ـ ذلك بأن البلد ملآن بالمشعوذين فاقدي الحياة .

ـ نعم يا سيدي ، ويتكلّمون دون خشية من الله ، وينطقون بالباطل ويشهدون الزور .

يقال إن لدون مركسيلدو أغْرِيكْسان خوري سان ميغيل ديبوثينيوس ، خمسةَ عشر ابناً غيرَ شرعي .

ـ وما ذنبه ، إنْ كانت النساء لا يدعنْه في سلام ؟

الإناث يلاحقن خوريَّ سان ميغيل ديبوثينيوس ، ككلبات شبقات ، ويقصصن على بعضهن البعض مقاس أعضائه ، ولا يسمحن له بالراحة ليلاً أو نهاراً .

ـ معذرة ، يا سيدي مِركْسيلدو ، لماذا تتحمّلهن ؟

ـ ولِمَ لا أتحملهن ؟ يا للمسكينات! كل ما يردنه أن يجدن عزاء!

انهار الطابق العُلويُّ من بيت بوليكاربو بن البغنييرا في ڤيلا ديكمبرّون يوم توفّى والده . هوى إلى الأرض بساكنيه . نسأل الله اللطف! لم يقع موتى ، لكن تكسّرت أضلاع وتهشّمت رؤوس ، وانحطّت قوى وإرادات ، ذلك بأن الدعائم تقوّضت لما انشقّت أرضية الطابق نصفين ، وصرنا جميعاً في الإسطبل وتغطّت وجوهنا بالروث ، وكان لا بد من إعادة ترتيب وضع المتوفّى لأن كل شيء فيه خرج من مكانه لما تطوّح في الهواء .

ـ لا يمكن وضعُه في العراء ، فسوف يتبلّل . ألا ترى أنه يتبلل ؟ قرِّبْه من الحائط .

هربت من بوليكاربو بالفوضى التي ثارت ، ثلاثٌ من بنات عرس التي كانت تطيع كالأيتام وترقص على أنغام الدّفّ .

ـ كانت حُبيويْناتٍ من الطراز الأول ، ولن أجد مثلها أبداً .

توفّي والد بوليكاربو وهو في التسعين من عمره بعد حفلة سُكْر . كان العجوز مولعاً بالخمر الذي لم يكن يصيبه بأذى كبير ، والبرهان أنْ عاش هذا العمر المديد . طاقة الشبان اليوم على التحمّل ضعيفة . لكن الناس من قبل ، كان عليهم أن يعملوا حقاً ، وكانوا يشربون الخمر ويدخّنون التبغ ، ومع ذلك كانوا قادرين على مواجهة الخنزير البري وشقّه بالسكين من أعلاه إلى أسفله .

ـ ما أجمل تلك الأزمان!

ـ أتؤمنين حقاً بأنها أجمل من أيامنا ؟

أب بوليكاربو بدّد ثروة بسلوكه حياةً على هواه . أب بوليكاربو لُقِّب في حياته ببينيغنو بورتو موريسكو توربِسنكيدو ، وجاء إلى الدنيا من عائلة

ميسورة . ثم ضاقت ذاتُ يده حتى لم يبقَ معه فلس . وهذا أمر آخر . دون بينيغنو كان مملوءاً بالأوهام وكان يرى الخيانة أينما اتّجه . واعتقد دون بينيغنو دائماً أن المرأة أكثرُ الإناث عهراً وخيانة ، أكثر من الأفعى ذاتِها . بينيغنو تزوّج بدوروتيا إكسبوسيتو أو البغنييرا ، وهي خادمة جميلة نحيلة فيها شيء من الغموض ، كانت تخدم في بيت والدته . رُزِق منها طفلاً وحيداً حياً وهو بوليكاربو ، وكان الأخير في سلسلة من أحد عشر أُجهضوا أو ماتوا أجنّة . كانت دوروتيا بارعة الجمال . وما كان دون بينيغنو يرى في أوهامه غير القرون والدعارة الغبية في كل جانب .

ـ هذا ما حدث لي نتيجةَ الغباء والثقة . من أوصاني بأن أعتق فرّوجاً من بيت اللقطاء ؟ هذه المرأة عاهرة مثل أمها التي لم يعرف أحد عنها شيئاً . هناك أشياء ، من الخير ألا تُعلم لأنها تؤذي المشاعر كثيراً .

كان دون بينيغنو يفوق اليابانيين غيرة . وكل ذلك كان رَجْماً بالغيب ، لأنه لم يستطعْ قطّ أن يكتشف ما كان يتوهمه ، وحوّل حياة دوروتيا إلى جحيم وحبسها في غرفة لمدة اثني عشر عاماً تعيش فيها على الماء والخبز ، أي منذ ولادة بوليكاربو إلى أن سئمتِ الحياة واحتمال البؤس ، فقضت على نفسها بقطع شرايينها بقطعة من زجاج . يا للرعب! كيف تسنّى له تدبير ذلك كله!

كان يقوم على حراسة دوروتيا ومراقبتها طالبٌ ديني سابق تعتاع أنمش يدعى لويسينيو بوثيلو ، أوبرّولو ، خصاه دون بينيغنو بالمنجل لمّا أدخله في خدمته وأطلعه على مهمته ، ذلك كيما يتجنّبَ سوء الأفكار والخيانة . شعر الفتى في البداية بشيء من الغضب ، لكنه لما رأى أن الأمر لا علاج له ، وأنْ ليس بيده صنعُ شيء ، تكيّف مع الوضع .

ـ خير لي هكذا! بزوال السبب ، يزول الخطر . وفوق ذلك آكل في هذا البيت طعاماً ساخناً .

دون بينيغنو لم يكن يريد أن تُدفن زوجُه حسب الطقوس المقدسة ، وكان لا مناص من تدخُّل ثفرينو فوريلو خوري سانتا ماريا ديكربييدا لتجنّب الفضيحة ، في تونس أقيمت جنازة فخمة للأميرة جنينة زوج الباي أحمد باشا .

ـ حسن! ذلك لا يعنيني .

ثفرينو فوريلو ، أو قل فوريلو غاماثو كان يزور بينيثيا كل أول وثالث ثلاثاء من الشهر ، كان يصل ليلاً وينصرف قبل الفجر حفاظاً على الشكليّات . وما ينبغي لأحدٍ أن يُشغل نفسَه بحياة شخص آخر خاصة إذا كان خورياً . والخوارنة هم رجال أيضاً ، وحاجة الرجل إلى المرأة ليس فيها من السوء شيء . بينيثيا تلتهب في الفراش وتحب العراك .

ـ آي . دون ثفرينو ، كم تعجبني! اضغط! اضغط! شقّني نصفين! ذلك يرويني . آي! آي!

بينيثيا كانت تراعي الاحترام الواجب للسيد ثفرينو ، وما كانت تخاطبه دون كلفة أبداً .

ـ تعالَ أغسل قضيبك! ما أبرعك ، يا سيد ثفرينو! كل يوم تزداد شباباً .

ـ كلا ، يا امرأة...

لما كان دون ثفرينو يقبض العُشر والبواكير ، واليوم لا يوجد عشر ولا بواكير . أو إذا أهدت إليه رعيته زوجاً من الفراريج ، وبعض البيض والنقانق . أو سلة تفاح ، أو إذا اصطاد هو سمكاً ، كان يحمل دائماً قسماً من كل ذلك إلى بينيثيا .

ـ لا بدّ من أن نأكل جميعاً ، والله يعاقب على البخل ، نعم ، البخل خطيئة مميتة سيئة . وفوق ذلك ، كل ما في إسبانيا للإسبان .

بينيثيا بطبيعتها شكورة .

ـ أتريدين أن تخرجي ثديك من الياقة ؟

ـ لا! في وقت آخر .

مونتشو ريكيكسو ، أو مونتشو بريغيثاس رفيق لاثرو كودسال في حملة مليلة ، يتحدث دائماً بهدوء كبير .

ـ «من قبل ، كان يسود العائلات قدر هامّ من الاحترام والرعاية والنظافة . بنت خالتي خيورخينا التي تعرفها جيداً قتلت زوجها الأول بأن طبخت له زهرة سان دييغو أو عشبة الخُوذَان ؛ وأبقت زوجها الثاني على شفا الهاوية بإعطائه كلَّ سبت مطهَّراً من حبيبات زيتونية . وانتبهْ إلى أنها ليست زيتوناً وإنما هي شيء آخر . ناولني ساقي الخشبية إذا سمحت . هي معلّقة على المشجب ، أريد أن آخذ قليلاً من التبغ . شكراً . بنت خالتي آديلا أخت خيورخينا ، تقضي حياتها ماضغة عشبة الخوري وبذور الحرمل التي لا تنبت هنا ، وقد جلبت لها منها صفيحة منذ سنتين ، وهي تزرعها اليوم في بعض الزوايا . أوراق الأومبيل تشبه أكياساً فارغة ، أو كيس الصفن الفارغ ؛ أوراق فيها أسرار كبرى . أم قريبتي هاتين ، أو قل خالتي ميكائيلا ، كانت تداعب عضوي كل ليلة عند ركن المدفأة ، في حين يقص الجد قصّة كارثة كابيتِه[١] . من قبل ، كانت العائلات أكثر اتحاداً وتهذيباً» .

اكتشف مونتشو بريغيثاس في آرخبيل كاتيكاس حيث الجزيرة

(١) معركة دمّر فيها الأسطول الأمريكي الشمالي الأسطول الإسباني في البحر الكاريبي عام ١٨٩٨ . (المترجم)

نيوتيتانيك غارقة ، عصفوراً بشكل زهرة عود الصليب ، له جلد بدلاً من الريش ، جلد بلون أخضر لماع ، يدعوه السكان المحليون باسم يسوع الجافي ، ولا يُعرف السبب أبداً ، ويستخدم في إسال رسائل للعشيقات ، ولا يصلُح من أجل الزوجات والخطيبات ، وإنما من أجل العشيقات فقط . جلب مونتشو بريفيثاس كميّةً من هذه العصافير للبلد ، لكنها نفقت في الطريق ، ولم تطق الإبحار في البحر الأحمر .

المغفّلات يمارسْن الدعارة خيراً من المغفلين لأن ذهنهن لا يشطّ . كاتوكسا بِنْتِه مغفلة ، وهذا معلوم ، وإلا لما تُسميت المغفلة بنت مرتينيا ؛ لكن إذا بلغ القضيب محلّه ، تحركت بمعرفة كبيرة .

ـ وكيف تعرفين ذلك ؟

ـ وأنت ، ماذا يعنيك ؟

تمطر دون أية رحمة ، على الأرجح برحمة كبرى على العالم الذي يظلّ دون حرف الجبل الذي امّحى في هذا الجانب . ما يجري وراء الجبل لا يُعلم ، وليس مهمّاً أن يُعلم . تمطر على الأرض التي تطنّ كالجسد وهوينمو ينمو أوكزهرة طالعة ، وتهيم في الهواء روح معذّبةٌ تطلب ملاذاً في قلب من القلوب ، تضطجع مع امرأة وإذا ولدت ابناً وعلى الأرجح بنتاً تهرب منك بعد خمسة عشر عاماً مع ليونيّ متسكّع ، وما تزال تمطر على الجبل كالعادة . نحن في وسط الكل ، البداية هي وسط كل شيء ، ولا يعلم أحد كم يلزم لبلوغ النهاية . كلبان تعاظلا منذ قليل تحت المطر ، وهما الآن ينتظران ناظرَيْن كلٌّ في اتّجاه ، الأول جهة الشرق ، والأخرى جهة الغرب ، إلى أن يعود دم العضوية إلى كيانه .

ـ انظر أنتَ ، إن كنت تعاظل مثل وايلد!

ـ لا تكوني وقحة ، يا مونتشا!

تفكّهت الآنسة رامونا بعد الانفعال الطارئ بقطع من الشوكولا .

ـ جزاك الله خيراً ، يا سيد ريموندينيو! لقد جعلتني جد سعيدة .

ظلتّ الآنسة رامونا مطرقة لحظات ثم ضحكت .

ـ انظر ، إن كان للقضيب أربع سرعات ، كما للسيارة!

ـ لا تكوني قليلة الحياء!

تنظر الآنسة رامونا محلولةَ الشعر مُشرعةَ الثديين اللذين تهدّلا قليلاً ، إلى ابن عمها الذي يلف لفافة وهو جالس على كرسي هزّاز .

ـ كلا ، يا أحمق! نحن النساء عارياتٍ نستطيع أن نتكلم كما يحلو لنا . ما يُقال في السرير لا أهمية له ، سأسكت متى لبستُ ثيابي .

ماركوس آلبيتِه مورداس فقد ساقيه ويعيش فوق صندوق ذي أربع عجلات مدهونٍ بلون برتقالي . في المقدّمة نجمةٌ خضراء ذات خمسة رؤوس ، وأحرف اسمه الأول م ، آ ، م مرسومة بمسامير ذات لون ذهبي . ماركوس آلبيته عضّه ثعلب مسعور في ساقيه وسبّب له شللاً ، ثم تعفّنت الساقان ، وأخيراً ، كان لا مناص من قطعهما من الأصل . كل ذلك جرى بهذا الترتيب . وجه ماركوس آلبيتِه مُتعب للغاية ، فالضجر يتعب أياً كان ، وكذلك البؤس أيضاً . ماركوس آلبيته ذو صوت خشن متهدّج ، وحين يتكلم يبدو دُفّاً مشقوقاً .

ـ انظر يا سيد ، كنتُ مجنوناً لمدة تسع سنين . خلال هذه السنين التسع ، فقدت الذاكرة والإدراك والإرادة والحرية أيضاً . في هذه السنوات التسع ، ماتت أمي وزوجي وابني واحداً إثر الآخر ، وقُطِعت ساقاي بعد

ذلك . أمي شنقت نفسها في المستودع ، وزوجي دهسها قطار بضائع ، ومات ابني بضربة عصا ، ولربما كان بالإمكان إنقاذُه بشيء من حسن الحظ ، وبقليل من المال... أنا لم أُخبر بشيء ، ولا داعي لكي يُشرح للمجانين شيء ، فليس بعد الجنون شيء...

محور العربة التي يجرّها الثوران مزمارُ الله الذي أخذته البُحّة في الطريق ، مخيفاً الساحراتِ وأرواح المطهر . محور العربة قلبُ العالم والوحدة . جلبتُ لماركوس آلبيته ٦ علبِ تبغٍ للمضغ من لاكورونيا .

ـ هي عطِرة جداً ، وسوف ترى . وتدوم مدّة طويلة .

ـ شكراً جزيلاً . هذه أحسن هدية تلقّيتها في حياتي .

ماركوس آلبيته ينحت الخشب بأسلوب رفيع ويصنع منه تماثيل للعذراء وبعض القدّيسين ، كلها متشابهة جداً .

ـ أتريد أن أصنع لك تمثالاً للقدّيس سان كاميلو ، لتحمله ذكرى مني ؟

ـ لا بأس!

ـ اسمعْ ، أكان لِسان كاميلو لحية ؟

ـ الحقيقة ، لا أدري!

خلال أيام الصوم ، ينخفض دائماً عدد الزبن الذين يقصدون بيت لابروتشا ، وغودنثيو لا يعزف على الأكورديون في تلك الأيام احتراماً .

ـ لا يكلّفني أدنى جهدٍ أن أكون محترماً . وما أقوله : لا ينبغي لأحدٍ الكفر بالله .

أثناء فترة الصوم يشتدّ البرد جداً في أورينسه ، ويهطل الثلج أحياناً ،

وتصعد من مينيو رطوبة كالفازولين . غودنثيو يعجبه صوتُ أنونثيا ثيون سَبَديلَه . هو صوت طروب جداً ، وكان يعجبه أيضاً أن يجسّ الثديين المرنين والردفين المرتجيّن . بورك لها فيهما!

ـ إذْ لن يأتي أحدٌ هذه الليلة ، انتظرني . سأصلك

آنونثيا ثيون سبديلَه ولدت في لالين ، وفرّت من بيت أبويها لتشاهد الدنيا ، لكنها لم تبتعد كثيراً ، والآن لا تجرؤ على العودة خشية أن يشق أبوها وجهها ؛ آنونثيا ثيون نظيفة وشديدة العطف . لما خرجتْ من المطبخ ، سألَتْها المشرفة .

ـ إلى أين ذاهبة ؟

ـ إلى غودينثيو كيما أحلبَه . يثير فيّ المسكين الحزن . هذه الليلة هو ضجر ، ضجر للغاية .

ـ هيا اذهبي . سأنبّهك إن سُئل عنك .

غودنيثو يغسل أعضاءه جيداً ، وينتظرها على السرير وهو يدخّن لفافة على ضوء شمعة لا يراها . ثم يشكرها دائماً بعد أن يفرغ من مهامه الجنسية الرتيبة .

ـ شكراً جزيلاً ، آنونثيا ، جزاك الله خيراً .

في الساعة الخامسة والنصف صباحاً ، يذهب غودنثيو إلى كنيسة لاس مِرْثِيدِس لسماع القداس . لكن عاهرته الرحيمة تؤثر ألا ترافقه .

ـ كلا! اذهب وحدك . أنا بردانة ، ستلقاني هنا بعد أن تعود ، لا تتأخر كثيراً وامشِ بحذر .

ـ قد تكون آنونثيا ثيون تشعر بشيء من العطف على غودنيثو . كل يوم نشهد أشياء عجيبة جداً .

منذ أعوام بعيدة ، أعني منذ العهد الجمهوري وقبل أن يجرّد آفوتو عنصري الحرس المدني من سلاحيهما ، ذهبنا نحن الأخوة الثلاثة الكبار من أبناء غاموثو لصيد الحصان البري في جبال ديل أكْسورِس التي تقع خلف جبال لاليميا في الدائرة الجافّة من البرتغال ؛ ذهبنا لنبدّل الهواء ننشّط سيقاننا قليلاً ، ونعين أيضاً أقاربنا من آل ماربيس الذين يكسبون نصف عيشهم من التهريب مع البرتغال ، والنصف الآخر بمعجزة ، ويقيمون في برنييديلو التابعة لخورنية سان بيلايّوده آروكسو في لوبيوس أوفونْدِ بِيْلا .

ـ نحن لا نحلق شعور الخيل ولا نَسِمُها كما يفعل سكان بونتبيدرا ، لكن يمكن الاعتماد علينا .

في تلك الرحلة الاستكشافية فقد بوليكاربو بورتو موريسكو ابن البغنييرا أصابع يده الثلاث . لحظة واحدة من سوء الحظ ، هَوَتْ بكل شيء ، لكن العالم لم يتوقف عن الجريان . مونتشو بريغيثاس ذو ساق خشبية ، أداة لا تُلحظ إذا كانت من مادّة جيدة وذات عيار دقيق . تانيس غاموثو كان دائماً قوياً ، كان ذا قوة فائضة ، وكان قادراً على صرع حصان بلكمة من يده على جبهته أو على عنقه ، لأنه بذلك يقطع مجرى الدم . أخوه روكينيو ، أو كريغو ديكوميسانيا كان يربح رهانات بعرض ما هو معروف ، وإذا وضعه على المنضدة كان يكسبه أربعين/ بَتَكوْنا/ ، وذلك دون أن يهزّه ، وإذا كنت لا تصدّق ، فراهنْ على العشاء للحاضرين جميعاً . أُبْرِيْخيمو فرمِيْنياس كان ضابطاً في الشؤون الإدارية ، وكان يلازمه لقب «دون» ، دون أبْريخيمو فرمينياس خُوْتين ، عازف

البانخو كان يشبه زنجياً أمريكياً ، وقد جاءته هواية تحضير الأرواح في وقت لاحق . لا الأعمى غَوْدِنْثيو كان أعمى ، بل كان ما يزال طالباً في مدرسة دينية ؛ ولا ماركوس آلبيته كان مبتور الساقين يومئذ ، حتى لم يكن أُدخل مصَح الأمراض العقلية ؛ ولاثِيْدران سغادهِ الشاب التارَ الذي ترك آدِغا أرملاً ، كان ميتاً في ذلك الحين ، بل كان حيّاً حق الحياة ومايزال معرساً .

ـ أتخلفَ أحد ؟

ـ ومَنْ ينبغي له أن يتخلّف ؟

بلدوميرو غاموثو ، آفوتو ، كان يرأس الاجتماعاتِ دون قميص ليُبرز الوشم والسلطةَ جيداً : المرأة تعني الحظَ ، والأفعى تمثل الإرادة . والمغزى واضح . الأفعى تطوق المرأة . أو قل : الإرادة تخضع الحظَ ، والرجل ينتصر في الحياة .

ـ هل نحن جميعاً هنا ؟

ـ ولِمَ لا نكون ؟!

القعدة لا يركبون الحصان ، وما كان يُسمح لفابيان منغيلا ، أو موتشو بأن يذهب لصيد الحصان البري . آل كرّوبو يحملون رقعة رقيقة من جلد الخنزير في جباههم ، وذلك يصلح لإشعال متفجِّر ، نعم ؛ لكنه لا يصلح من أجل الذهاب إلى الجبل سعياً وراء الخيل ، ولا للسير بهذا الأمر كما نسير به . أضفْ إلى ذلك أن آل كرّوبو ليسوا من أهل البلد ، وقد بذلنا جهداً كافياً كيلا يُطردوا بالعصي . وإذا كانوا ينمّون الحقد ، فلينمّوه كما يشاؤون ، فالعالم دار دورات شتّى ، والكلمة الأخيرة هي التي لم تقل .

العلامة الثالثة من علامات اللئيم ابن القحبة هي الوجه الشاحب .
ـ كالأموات ؟

ـ نعم ، أو كوجه فابيان منغيلا .

ـ لبلوغ أكسورس ، علينا أن نسير ثلاثة أيام في طريق نعرفها جميعاً ، ثلاثة أيام من السير لا تقتل رجلاً أبداً .

في قاع بحيرة آنتيلا ترقد مدفونة تحت المياه مدينة أنطاكية التي تدفع ثمن خطاياها المشؤومة خلال قرون القرون . لا يمكن لصاحب قطيع أن يُشبع غريزته بجسد راعي ماعزه ، ولو خنقه بعدئذ بشريط لأنّ قانون الربّ يُحرّم هذا الفعل ؛ ولا ذئب يمكنه أن يعلو وعلة ؛ ولا امرأة تتوّج بالزهور امرأة أخرى عارية أو حبلى أو مجذومة . أموات أنطاكية يطلبون المغفرة بدق الأجراس ليلة سان خوان .لكنها لا تصلهم أبداً لأنهم محكومون إلى أبد الآبدين . من يعبرْ بحيرة آنتيلا ، يفقدِ الذاكرة ، لا أعلم إن كان العبور بالذهاب من هذا الجانب إلى الجانب الآخر ، أو بالمجيء من ذلك الجانب إلى هذا الجانب . وقد تحوّل جنود الملك آرتوس الذي كان يبحث عن القديس غريال إلى بعوض . بحيرة آنتيلا تغصّ بالبعوض ، وفيها ضفادع وحيّات ماء .

ـ لكن ، أليست على أحد جوانبنا ونحن نسير بهذ الاتجاه ؟

ـ نعم . من هذه الجهة نستطيع أن نكون مطمئنّين .

كانت الرحلة حتى برنييديلو مسلّية ومريحةً ؛ وكان يمكن أن تتمّ دون طارئ كبير . لكن مونتشو بريغيثاس قام بمشاجرة في إحدى حانات مورّيونِس . لم تقع معركة كبرى ، لأن تانيس بيريلّو توسّط في النزاع ، لذلك لم يحدُث شيء لا يمكن إصلاحه .

ـ بعض الناس لا يسلّيهم شيء ، إلا إذا دارت الخمرةُ في رؤوسهم . من الخير أن تجعلهم يستنشقون شيئاً من الهواء الطلق .

الصيد في أكْسورِس هزيل ، لكنه هادئٌ وفيه رِقّة حسنة أيضاً . لا يُريغ الصيد في أكْسورِس غيرُ جماعة تضمّ أفراداً من عائلتنا فقط . ولا ضرورة لجلب أحد آخر ، لأن منطقة أورينسه أفقرُ مناطق غليشية كلّها بالجياد البرية ، التي يُوجد منها أعداد في سلسلة كوينكسو وفي جبل فارو دِه آبيون ، وديسويدو الواقعة في أراضي بونتبيدرا ؛ سُرّ أقاربنا من آل ماربييس بنا ، سروراً كبيراً ، فأخروجوا خمراً فاخراً موثوقاً ومقطراً بعناية فائقة . لجياد أكْسورس شوارب ، كل جياد الجبل ذات شوارب ، وذكاء عظيم وإرادة . في جبال أكْسورس يُطلقون كلمة « كورّو » Curro على الحظيرة ، أو الفسحة الجرداء التي تُحصر فيها الدوابّ ، ويطلقونها أيضاً على مطاردتها وحصارها وإسقاطها أرضاً ، وحلق شعورها ووسمها . في أماكن أخرى ، يُطلق على لعبة المناورات هذه « حَلْق » ، حلق الدواب . أبناء ماربييس في برنييديلو هم : سيغوندو ، إيباريستو وكاميلو ، أبناء روكه أخ تريبيرو الأصغر الذي تزوج بامرأة من هذا المكان ، ثم افترقا لاحقاً ، ولم يشأ روكِه أن يعود إلى بينيور ، وهو الآن يعيش إلى جانب برتغالية في إسبيريلو التي لا تبعد عن برنييديلو . روكِه على علاقة حسنة بأبنائه ، وهو يأمر زوجه أن تحمل كل عام فرّوجين نذراً لسانتنا روسا ، وتنفّذ البرتغالية طلبه . قيادةُ الصيد أعطيناها لآفوتو .

ـ أنت أجدرُنا بالقيادة ، وسنسير وراءك ونفعل ما تأمر به .

ـ إذاً ، لا بأس!

في صباح اليوم التالي ، انطلقنا جميعاً إلى الجبل ولمّا ينقشع الليل .

كل منا سار في طريق ، وقد زال عنّا عناءُ السفر وصحت أذهاننا ؛ وكذلك جيادنا كانت أكلتْ وشربت وأخذت قسطاً من الراحة في دِفْء الإسطبل . السرُّ هو الهجوم بهدوء وصبر كبيرين ، كيلا تُذعر الدوابُ وتتشتتَ . في البداية ، يجب تحديد مواقع الحيوانات ودعاؤها دعاء لطيفاً لاستمالتها وبثّ الهدوء فيها : تو ، حصان! اهدأ ، يا جبلي! اهدأ ، ياجوعان! لأننا سنُشيع الذعر فيها بالصياح والعصيّ في وقت لاحق حين يطلع النهار وتنتظم الدواب في دروب العربات التي تكون شاغرة أثناء الطِّراد .

اثنا عشر أو ثلاثة عشر رجلاً يطاردون على الجياد في غبشة الفجر مائة دابّة وحشية أعماها الذعر ؛ على الأرجح لا تبلغ مائة ؛ هي لحظة نعيشها وقد بلغت القلوبُ الحناجرَ الجافة .

ـ اقطع طريقها من هنا!

ـ ادفع بها إلى تحت!

ـ انتبه! هو منقضّ عليك!

لم يَتّحِ الوقت لبوليكاربو ليتنبّه ، وانقض عليه الحصان الوحشيُّ ، وبعضّة واحدة اقتلع أصابع يده وأبقى له منها اصبعين اثنين . ضغط بوليكاربو على الجرح بالمنديل بشدة ، وأدخل ما بقي من يده في جيبه وتحمّل . لحظة سوء يمكنها أن تُودي بكل شيء ، لكن الشمس ماتزال تسير سيرها وكأن شيئاً لم يحدث . تخلّف بوليكاربو عنهم ورجع إلى برنيبيديلو حيث تولّت أم أبناء ماربيس علاجه بالوصفة التقليدية ، أي بأوراق الخردل ، وروث بقرة طريّ وبول امرأة ، وبعناكب وتراب وسكر ، ولا بدّ من أن يلحسَ كلبٌ كلّ ذلك جيداً .

بعد أن يحصر القطيع في فسحة جرداء يُفضّل تركُه يوماً أو يومين دون ماء بانتظار أن يهدأ . ثم تُفصل الأفراسُ العشار والوالدات عن القطيع ويُطلق سراحُ الجياد الضعاف والمريضة التي ستتولّى أمرَها الذئاب (واليوم ترسل إلى المسلخ) ، ثم تبطح أرضاً ، وتُحلق ويُوسم منها ما يستحقّ الوسم . ببعض الشجاعة وبثلاثة أو أربعة رجال أشدّاء كآفوتو وأخيه تانيس وثيدران وكاميلو أحد أبناء عمهم ماربيس ، ليست المهّمة صعبة أبداً . يكفي ألا يغفل المرء . دون أبْريخيمو فَرَمينياس كان يعزف البانخو جالساً على السور الحجري الذي صار أخضر بمرور الزمن . وكان غوديثيو ينظر بين ذاهل وحاسد ، إلى طفرات رفاقه وعروضهم . وكان مونتشو بويغيثاس على متن حصان يحثّ القطيع بعصاه الخشبية من النخب الأول . أمّا غريغو ديكوميسانيا ، وماركوس آلبيته وسيغوندو وإيباريستو ماربيس وأنا ، فكنا ننظر فيما حولنا ونُذكي النار ، ونشرب الخمر من المزادة ، وننتظر أن يمضي الوقت كيما نبدأ الحلق .

ـ وبوليكاربو ؟

ـ ذهب إلى برنييديلو ، لأنه كان يتألّم جداً .

نقوم بحلق الخيول كيفما اتّفق لنا . هنا لا حاجة للتدقيق والإتقان . المهم أن ننجز ذلك بسرعة ، بل بأسرع ما يمكن .

كل حصان (أو حصانين) يُعطي رطلاً من شعر العُرْف ، وربما أقل من ذلك قليلاً ، شعر عرف طويل ونظيف يُربط على شكل خُصل ويساوي ثمن جلد عجل . أمعن غريغو ديكوميسانيا في النظر إليّ .

ـ كلنا هنا من آل غوكسينده . كلنا على ذات الدرجة من الانتساب إليهم . لكن ، كلا! بعضنا أقرب من بعض . كلنا هنا مفلّجو الأسنان . هذه

إحدى ميزات العائلة ، وأطوالنا تزيد على سبعة أقدام ، وأوزاننا على خمس أرّوبات[1] . ما يزال نبض العرق فينا قوياً . يا الله!

ماركوس آلبيته تعوّد على مضغ التبغ البرتغالي .

ـ العيب في اللعاب الذي يذهب بكل شيء فيه . مضغ التبغ أصحّ من تدخينه ، ولا يحرق الرئتين .

تُوسم المهار بالحديد المحمّى مثلها مثل كل القطيع . سمة آل ماربيس في برينييديلو هي حرف يا لقب أمهم ، روسا لو رسِيس ، وشرمٌ صغير في كل أذن . أمّا الحيوانات الضعيفة والمصابة ، أعني تلك التي سيتولّى أمرَها الذئبُ أو الجوع أو البرد التي يفوق عددها كل عام ألف حصان فلا توسم . ولأي شيء توسم ؟ الأحصنة الوحشية القزمة ، أو المهار الشقر أو السود أو المرقّطة التي لا تعلو عن الأرض أكثر من ذراعين ، لا يمكن حصرها ، لأنها بعد نصف يوم من الحبس تمرض مرضاً قاتلاً وتموت من الحزن . ويغنّي ثِيْدران سِغاده بصوت جميل حين يتعب ، معلوم أن التعب يفتح مجاري التنفّس ، ويفتّق حبال الحنجرة .

لمّا فرغ روبين لبوثان من كتابة ما سبق ، قرأه بصوت عالٍ ونهض .

ـ أظن كسبتُ فنجاناً من القهوة وقدحاً من الكونياك . زد على ذلك ينبغي لي أن أزورَ هذه الليلةَ روسيكلير . عليّ أن أحمل لها شوكولا كيما تسمن قليلاً .

روسيكلير ممرضة تزرق الحقن بشكل جيد جداً . تزرق الآنسة رامونا دائماً بحقن من الحديد ، وخلاصة الكبد والكلس لكي تكتسب قوة .

---

(١) وحدة وزن تبلغ ١٤,٥ كغ مفردها آرّوبا وهي من مصدر عربي أي الربع ، والمقصود ربع القنطار . (المترجم)

تشرب الآنسة رامونا خمر (ديشيان) المضادّ لفقر الدم والضعف والإرهاق ، وتتناول أقراصاً من دواء فيتيكال لزيادة الكلس بكثافة . يقال إن روسيكلير فيها أكثر من عيب ، وتحفظ كل ذلك سرّاً . هنا ، لا موجب للإعلان عن شيء . أحياناً ، ترقص روسيكلير ورامونا معاً ، حين لا يشاهدهما أحد ، وتداعبان بعضهما بعضاً برقة ودلال كبيرين والكلب وايلد يسمح أيضاً بمداعبته وتدليله . وهو لطيف جداً ومُطيع .

ـ لا تذهبي ، يا روسيكلير ؛ ظلّي قليلاً أيضاً .

ـ ألن يأتي قريبك ريموندو هذه الليلة ؟

ـ وأنت ما شأنك به ؟ ريموندو يستطيع القيام بأمر امرأتين اثنتين .

ـ نعم ، هذا مؤكد... وليست المرة الأولى التي يهزمنا فيها .

ـ اسكتي ، يا روسيكلير ، لا تكوني قحبة!

ـ أنا ما أريد أن أكون ، يا مونتشينيا . ولا يعجبني أيضاً أن تسميني قحبة هكذا ببرود .

ـ معذرة!

تعشّت روسيكلير والآنسة رامونا ، وظلّت في بيتها حتى وقتٍ متأخّر جداً .

ـ أتذهبين الآن ، في هذ الوقت المتأخّر من الليل ؟

ـ نعم ؛ يلائمني أن أخونك اليوم مع روبين .

ـ لكن ، ألا تتأدبين ، يا امرأة!

ـ كلا!

قُتل والد روسيكلير في أورينسه خلال الحرب الأهلية ، قتله المحامي دون خيسوس مَنْثنيدو الذي اكتسب شهرةً واسعة بعمليات القتل . الحقيقة ، لا يخطر على بال أحد أن يسمّي بنته باسم روسيكلير[1] . من يلعب بالنار ، يحترق بها . يجب إطلاق أسماء العذراوات والقديسات على البنات ، وليس أسماء دنيوية وذوات ذوق مريب كروسيكلير ، وآمانَسير[2] ، وأورورا... حسن! اسم أورورا مقبول .لكنّ آتموسْفير وفينوس هراء ، أي هراء! والد روسيكلير كان أمينَ صندوق في مصرف ودفع المسكينُ حياته ثمن تفكيره الرديء .

ـ أتصدّقين ، يا دونيا أرسينيا ، أن الأمور جرت كما تقولين ؟

·لاثرو كودسال قتله سوء الحظ ، والثقة المُفرطة بالنفس . لا ينبغي لك الثقةُ بالمغاربة ، لأنهم بطباعهم وأحاسيسهم محتالون . لا يعرف أحد اسم المغربي الذي قتل لاثرو كودسال حين كان يرقد تحت تينة وصورة آدغا عاريةً تجول في خاطره ، لكن ذلك غيرُ مهم . لاثرو كودسال كان يتقن ضرب الحجر بالمقلاع ويسدّد تسديداً جيداً .

ـ أتستطيع إصابة تلك الحمامة الجاثمة على سلك الهاتف ؟

ـ ولِمْ لا ؟

يدوّر لاثرو كودسال المقلاع . ثاث! وتتناثر الحمامة الجاثمة على السلك مائة قطعة في الهواء .

ـ أتستطيع إصابة ذلك القطّ الأسود ؟

---

(١) تورّد السحاب أو السماء بلون الشفق

(٢) صباح .

ـ ألا أستطيع ؟

يدوّر لاثرو كودسال المقلاع . ثاث! ويقفز القط الأسود وهو يزرق شرراً وقد شُطر رأسه شطرين .

ـ ألا يكون القط الشيطان بعينه ؟

ـ لا أظن . هذه الأيام ، قلّما يسير الشيطان في هذه الأنحاء .

حرف الجبل امّحى لما قتل لاثرو كودسال ، ومنذ ذلك اليوم المنكوب أصبح لا يراه أحد . أنا أرى أنه أزيح فراسخ كثيرة ، على الأرجح إلى ما وراء بوّابات كاندا وبدرنيلو في الطريق إلى سَنْبريا . لم يحُسن قياس المسافة الزوج الذي كمن للاثرو كودسال في مضيق كروث ديتشوسكو . يا لله ، لتلك «العلقة» التي تلقّاها نتيجة وقاحته! فلا ينبغي للديوثين القرنانين أن يكونوا وقحين ، وإنما عقلاء ، حذرون ويخافون الله . فليس من السهل أن يكون المرء قرناناً بكرامة وفعالية .

ـ دعني أتابع طريقي ، وتنحَّ إلى جانب ، فأنا لا أسعى للقتال .

لم يتنحَّ الشخص الآخر ، فأعيد بالطبع ، إلى بيته محطوماً مقيداً خجلاً بل أشد خجلاً من قردة . مونتشو ريكيكسو كان مع لاثرو كودسال في حرب مليلة ، لكنه عاد حياً سالماً ، أعرج لكنه حي .

ـ لا أعلم ماذا جرى لساقي ، أفترض أنه ألقي بها ، أرى أن من الواجب إعادةَ الساق لصاحبها حين تُقطع ، مملّحة بملح كثيف حتى يتمكن من الاحتفاظ بها ذكرى .

مات عصفورا مونتشو بريغيتاس ، المراسلان الذكر والأنثى أثناء الإبحار في البحر الأحمر . المسيح الجافي عصيفير حالم وضعيف المقاومة ،

يصلح فقط لنقل أخبار الغرام ، وإذا أخرج من جزره ، يموت عادة من الحزن والزكام . عاد الأعمى غودنيثو وهو يرتعد من البرد .

ـ إنه الجليد ، يا أنونثيا! في نظري ، هذي هي نهاية العالم .

ـ لا ، يا رجل . تعالَ هنا . اندس في السرير وانتظر حتى أجلب لك فنجان قهوة ساخناً .

تمطر منذ ما يزيد على مائتي يوم بنهُرها ولياليها حابسة نفس السماء والأرض ، وثعلبة كسنيكو التي صارت عجوزاً ومريضة بالروماتيزم ، ويقال إنها سئمت الحياة ، تسعل دون حماسة عند مدخل وجارها ؛ لو كنت أعرف العزف على السلتيريو كما كان يعزف القدماء ، واليوم لا يستعمل السلتيريو ، لقضيت الأماسي أعزف عليه ، لكني لا أعرف العزف ؛ لو كنت أعرف العزف على البانخو كما يفعل أُبْريخيمو فرمينياس ، لقضيت ساعات فراغي عازفاً على البانخو ، لأن ذلك يسرّي عن النفس دائماً ، لكنني لا أعرف العزف . إنما أعرف العزف على مزمار القربة ، ومن خصائص العزف على مزمار القربة أن يتمّ في الهواء الطلق عند قدم بلّوطة ، بَيْنا الفتيان يصيحون ابتهاجاً ، والفتيات ينتظرن وأنفاسهن تكاد تتقطّع ، حلولَ الليل وحلاواته وتعقيداته المرهقة . أما وأني لا أعرف العزفَ على السلتيريو ولا على البانخو ، وليس ملائماً العزف على مزمار القربة داخل البيوت ، فإني أقضي الأماسي ممارساً الخبائث مع من أستطيع ، وأحياناً وحيداً . أما ما لا أستطيع عمله ، فهو أن أنثني من منتصف الجسم ، وأبلغَ بينيثيا بفمي . أكاد أبلغها . لكن ، لا! لا أصل في النهاية إلى شيء ، وربما لا يصل أحد ، ولا بدّ لي من أن أسأل . بينيثيا مرحة جداً ، ولا تتعب أبداً ، وهذا يبعث على الضجر أيضاً . بينيثيا تتقن

صنع الكعك وحلمتا ثدييها بحجم حبتي كستناء ؛ ظريف أن تراها تصنع الكعك وثدياها مشرعان في الهواء .

ـ بينيثيا!

ـ ماذا ؟

ـ ناوليني الصحيفة ، وصبّي لي كأساً من الخمر .

ـ سأفعل .

ضفادع بحيرة آنتيلا أقدم من سائر ضفادع غليشية ، وليون وأستورياس ، والبرتغال وقشتالة ؛ ضفادع تاريخية مشهورة لم يبق منها إلا ما يعيش في نهري بار وتولوره في البروفانس وفي بحيرة بلتون ، وفي هنغاريا وغدران كونتيات تيبيرّاري وواترفورد في إيرلندة . سيّدُنا المسيح جاء من الحمام ومن أمّه الصدّيقة ، ومن السوسنة وتويجها البكر . وجاء من ضفدعة بحيرة آنتيلا التي سميت ليورتا ، تسع عائلات مختلفة تربط بينها جميعاً أواصرُ قربى ، وهي عائلات فرمينياس ، وآلبيتيه ، وثيلا وبورتوموريسكو ، وريكيكسو ، ولبوثان ، وماربيس ، وسغاده وبيرا ، وقد أُطلق على العنقود الذي يضم هذه المجموعة آل غوكسينده . كلّهم ذوو مظهر واحد وهم مجتمعون يشكّلون قوة .

مُريح أن ترى بينيثيا تشرب الخمر وهي عارية ، بينا تمطر السماء على الأرض ، تمطر أيضاً على القلوب المحزونة والكسيرة والقلقة .

ـ اسكبي الخمر على ثدييك .

ـ لا رغبة لي في ذلك .

حسبما جاء في كتاب الأخ البندكيتي آرنالدو ويّون ، «خشبة

الحياة» ، البندقية عام ١٥٩٥ ، أن سان ملاكيّاس ، أسقفَ آرماخ في إيرلندة ، قال بوضوح في تعداده للبابوات الذي سيُختتم بعون الله ، عام ٢٠٥٣ بعودة المسيح : «بحيرة آنتيلا سيجفّفها الإنسان ، حينئذ سينشأ بدل الماء ، المرض والمصائب ، وحين ينضب الماء ، سيحفر الإنسان الأرض باحثاً عن المعدن . حينئذ سيزدهر بدل التراب الجوع والموت .»

نحن ـ آل غوكسينده ـ نحب حَمْلَ العصيّ أثناء المهرجانات الدينية ، وما السوءُ في ذلك ؟ والرقصَ الفرديّ الحر في المروج والمقابر ؛ والرقص الجماعي المختلط حين تدعو المناسبة لذلك .

أنا لا أعرف العزف على الكمان ، ولا على الهارمونيكا ، ولا السلتيريو ولا البانخو . أنا لا أعرف غيرَ العزف على مزمار القربة ، وهو لا يصلح لهذا المقام . غودنثيو يعزف على الأكورديون في بيت لابروتشا . يعزف فالسات ، وباسودوبله ، وأحياناً تانغو ليرفَه عن الزُّبُن . لكنه ما كان يريد عزف لحن الماثوركا/ صغيرتي ماريان/ . عزفه مرة عام ١٩٣٦ لما مات آفوتو ، ومرة أخرى عام ١٩٤٠ لما مات فابيان منغيلا ، كروبو موتشو . ثم لم يشأ عزفه بعد ذلك أبداً .

ـ أو كان يرفه عن الزبن ؟

ـ هذا ما أراه . كان غودنثيو بارعاً جداً في العزف .

أخته آدِغا تعزف على الأكورديون أيضاً ، ولحنُها المفضل البولكا فنفينيت ، وحبي وباريس ، ولحن باريس .

ـ القتيل الذي قتل زوجي لم يكن مستقيماً في حياته ، وأنت ترى النهاية التي انتهى إليها . القتيل الذي قتل زوجي لم يكن من آل غوكسينده ،

ـ أستغفر الله! ـ وإنما كان غريباً . وهذا جزاؤنا على الإحسان الذي نُنعِم به على المشرّدين . ولو أننا صددنا أباه الذي جاء يطلب صدقةً حبّاً بالله ، صدوداً جافياً ، لَمّا سفح دم من أطعمه من جوع . وإذا ما نُسيت الأشياء بعد ذلك ، فأنا لا أنسى . وكل امرئ وشأنه . جرت أحاديث طويلة ، لذلك من الملائم أن نتذكرها . أنت ، سيد دون كاميلو ، تنحدر من آل غوكسينده . أنت غوكسيندي ، وكان زوجي كذلك ، وهذا له ثمن . وله جزاؤه الحسن أيضاً ، وبفخر كبير . فالرجل رجل حتى بعد الموت . ونحن ـ النساء ـ ننتظر لنرى ذلك ونحكيَه للأبناء ، سأقول لك شيئاً كلُّ الناس تعلمه ، لكنك لا تعلمه أنت ، لأني لم أقله لك ، بل لمّحت إليه تلميحاً ، تذكر : نبشتُ القتيل الذي قتل زوجي من قبره ، فقد ذهبت ذات ليلة إلى مقبرة كرِبْلينيو لسرقة الميت ، وجلبته إلى البيت ، وألقيت بجثته إلى الخنزير الذي أكلتُه في وقت لاحق مبتدئة بالموزات من جهة ، ثم بالأحشاء والرأس من جهة أخرى حتى أتيت عليه كله ؛ ابتهج آل غوكسينده وسكتوا ، وجمجم آل كرّوبو غضباً ، لكنهم سكتوا أيضاً ؛ ولو تكلّموا للحقول به . هذي شريعة الله ، وسوف ينتهي بهم الحال إلى الخروج من البلد . ولقد رحل بعضهم بالفعل ، قسمٌ إلى سويسرا ، وقسم آخر إلى ألمانيا . أنا أرى أنهم قد يموتون جميعاً في آخر العالم ويأكلهم الصينيون .

ـ ألا ترغبين في إبادة آل موتشو ؟

ـ لشد ما بالغت ، يا رجل!

العلامة الرابعة من علامات ابن القحبة ، اللحيةُ المتناثرة . فابيان منغيلا كان ذا لحية مبعثرة ، شعرة هنا وشعرة هناك . اضطجع القاتل الذي كان يزرع الموت أينما حلّ مع روساليا تراسولفِه ، أو كابوكساتولا لمدة أربعة أعوام

على الأقل ؛ ظلّ القاتل الذي قتل آفوتو وزوج آدِغا ، وربما دستة آخرين ، يعبث بمؤخّرة روساليا تراسولفه ، كابوكساتولا ، ويمصّ ثدييها ، ويضربها من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٤٠ على الأقل .

ـ وفوق ذلك ، تسكتين . لأنني أستطيع أن أرسلَك إلى حيث أرسلت آخرين ، ولم يرجع منهم أحد . أنت تعلمين ذلك جيداً .

حملت روساليا تراسولفه ، أو كابوكساتولا ، من القتيل القاتل ثلاث مرات ، وأجهضتْها في المرا ت الثلاث ، المولّدة داميانا ، أو تاريلو لاباتاكا ، بالتحريض بالبقدونس .

ـ عشتُ سنين طوالاً من حياتي وحيدة ، وليس عاهرة ، ولا أريد ابناً من سفّاح ابن قحبة . على الأرجح ، شاء الله أن ينتهي ذلك الأمر يوماً ما .

روساليا تراسُولفِه ، أو كابوكساتولا ، تردّد ذلك دائماً .

ـ داس على كرامتي كلّها . هذا مؤكّد . وداس حيث شاء أن يدوس . لكني ما زلت حية بعده وغسلت نفسي منه غسلاً كاملاً . كان موتشو كديدان الموتى ، لا تأكل إلا من الموت ولا تحيا إلا به .

صندوق ماركوس آلبيته يشبه عربةَ خيل ، لكنه أقلُّ رواء منها في كل شيء .

ـ يجب عليّ أن أدهنه الآن من جديد ، فقد امّحت النجمة تقريباً ، لكنّ المسامير لا تزال صالحة . لما أُصبت بالجنون ، كان الأمر عندي سواء . لكن ، ليس كذلك الآن . الآن يهمّني أن تكون الأشياء حسنة كما ينبغي لها أن تكون . الدهان الأخضر جميل لكنه حين يتقشّر يتردّى .

ماركوس آلبيته ، كان يقضي وقته بشكل حسن فوق صندوقه . هو تَعِب

قليلاً ، بالفعل . فالسأم يُتعِب أيّاً كان . لكنه يتدبّر أمره جيداً . بعضهم يتدبّر أموره أسوأ منه .

ـ سأصنع لك تمثالاً لسان كاميلو ذي عكّاز قوي . فقد استهلك الناس صورة سان كاميلو[1] بمظهر واحد .

وتوجب علينا أن ننقل بوليكاربو بن البغنييرا على نقالة من برنييديلو ، لأنه ما كان يستطيع التحمل بسبب ما جرى ليده ، فقد أفقدته عضة الحصان وعيه وكان يعاني من الحمى .

ـ أكانت مرتفعة ؟

ـ حسن ، ليس كثيراً .

روسا لورسيس ، والدة أبناء ماربيس في تلك المنطقة ، ما كانت لتسمح بنقله .

ـ دمه ذات الدم الذي يجري في عروق أبنائي . ولا يزعجني بقاؤه في البيت وسيصبح وضعه في الجبل أسوأ . وينبغي لكم أن تدعوه ينام لمدة يومين على الأقل .

توزع الصيادون من آل غوكسينده ، بين برنييديلو وبوكسيدو وثيلا . ظل أبناء ماربيس في بيت أبناء عمومتهم ، وكذلك بوليكاربو أيضاً . أما ثيدران سغاده وابن حميه الذي سيصبح أعمى ، فقد باتا في بيت أوربانو رندان الخبيث المهرب الأحول ، البيّن الحول .

ـ لا تنظر إلى وجهه ، ياثيدران ، لأن الحول يثيرون الاضطراب في الحواس .

---

(١) يقصد سان كاميلو ديليليس الذي أنشأ عام ١٥٨٢ جمعية خيرية دينية للعناية بالمرضى والمحتضرين وذوي العاهات

استقر دون أبريخيمو في بيت الأعمى بيبينيو ريكياس الذي تخلى له عن سريره لقاء بيزيتة واحدة . وذهب ماركوس ومونتشو إلى بيت لرونتيناس في بوكسيدو . أما أنا وربين لبوثان فقصدنا ثيلا لزيارة أقربائي من آل بنثياس .

ـ ستظلان عندنا . البيت واسع وستسريان عنا .

أبناء بنثياس كانوا يعيشون مع أمهم دوريندا ، البالغة من العمر مائة وثلاثة أعوام ، وتشكو البرد دائماً ، ثم مع خادم كانت تصنع مشروباً بطعم القهوة خيراً من أي شخص آخر .

ـ ما اسم هذه المرأة ؟

ـ لا نعرف . المسكينة خرساء . وهي بالطبع لم تقله لنا .ليست من أهل البلد ، وتبدو من سحنتها برتغالية . على الأرجح ليست من أية جهة ، فليس لديها أوراق تثبت هويتها . وها هي ذا مضى عليها زمن طويل معنا ، فترة تزيد على خمسين عاماً لم تلحق خلالها أذى بأحد . يدعوها أهالي القرية بالخرساء ، ليس نبزاً بلقب وإنما هي هكذا .

كانت الخرساء تصنع سائل القهوة بجد . سجّل ذلك إن كنت تريد ، ترمي في حلة من الفخار ما يلي : قدراً من خمر أوروخو ذي النوعية الفاخرة ، ورطلين من القهوة المحمصة غير مطحونة ، وأربعة أرطال من السكر الأبيض النقي ، وقبضتين من الجوز المقشر بالطبع ، والمدقوق قليلا ليطلق مادته الجوهرية ، وقطعاً من البرتقال المر ، يحرك المزيج خلال أسبوعين تحريكاً جيداً بعصا من الفستق مائة مرة باتجاه دوران عقارب الساعة صباحاً ، ويحرك مائة مرة أخرى باتجاه معاكس ليلاً ؛ ثم يصفى بفلتر ويُصب في القناني ويترك ليرقد عاماً على الأقل ، بعضهم يضع السائل في

حناجير ذات فوهات واسعة تسد جيداً بالشمع ، ومنهم من لا يصفيه وإنما يلقي به لينضج في براميل من خشب البلوط . كل حسب ذوقه . أحست الخرساء بسرور كبير لما ذقنا أنا وروبين جرعة منه ، وتمطّقنا . معلوم أن الخرساء ساعة الفرح تفلت منها ضرطات ظريفة حادة طويلة .

لولينيا موسكوسو رودريغيث زوج بلدوميرو غاموثو ، أو بلدوميرو ماربيس بنتيلا أو فرناندس ، المشهور بآفوتو ، تُعنى بأبنائها الخمسة حتى يبدو أن بريقاً يشع منهم ؛ على العكس منهم أبناء روسا روكون زوج تانيس بيريلو . وهم خمسة أيضاً يسيرون عراة حفاة يسيل مخاطهم ، وكل واحد منهم كما خلقه ربه ، فما كان مفعول اليانسون يضيع سدى .

ـ أتريدين قدحاً من اليانسون ؟

ـ أحان وقته ؟

تشيلو دومنغيث بنت آبيلا ثينو ، أو سيدة روكه كاهن سان كارياس المبارك في الأرض ، تقضي أيامها متألمة في وادي الدموع .

ـ لا تتشكي ، تشيلينو! أن تملكي شيئاً ، خير لك من أن تشتهيه .

ـ نعم ، هكذا يقال .

تشيلو دومنغيث كانت تتقن أعمال الطبخ . فكانت تجيد طبخ لحم الخنزير الملفوف بالخبز أو بالعجين ، وكانت تقسم لحم الموزات إلى ثلاث قطع أو أربع تلوحها على الجمر قبل أن تطبخها ، وكانت تحسن طهي قطع المعدة التي ربما كانت من كرش العجل ، وليس الخروف ، وتعرف طبخ الدماغ مع لحم المتن . أمور الطبخ هذه فيها من الدفاع قدر ما فيها من الهجوم .

ـ أتؤمنين بأن اليابانيين غيورون جداً ؟

ـ ولِمَ تسألني ذلك ؟

ـ لا لشيء ، وإنما سمعته منك .

دون بينيغنو بورتو موريسكو توربيسكيدو قضى حياته زاعماً أنه سيعيش مائة عام ، لكنه مات في التسعين من عمره ، بعد أن شرب من الخمر أكثر مما يسعه بدنه .

ـ أو تزعمين أن لم يره أحد سكران ؟

ـ ولِمَ أزعم ذلك ؟ كل الناس رأوا دون بينيغنو سكران ، وهو ما كان يخفي سكره .

كان لدون بينيغنو قامة رمح ، وإن انحنى ظهره في نهاية المطاف قليلاً .

ـ برولو!

مرني ، سيد بينيغنو!

ـ اصعد إلى العريش ، ولا تدخل حتى تتبلل .

ـ سمعاً وطاعة ، يا سيدي!

لويسينيو بوثيلو ، برولو كان خصياً وديعاً مطيعاً يصلح ليفرغ فيه المرء غضبه .

ـ برولو!

ـ مرني ، دون بينيغنو!

ـ أنزل بنطالك ، أريد أن أضربك عصوين على مؤخرتك .

ـ سمعاً وطاعة ، يا سيدي .

لما كان لويسينيو بوثيلو أو برولو طالباً في المدرسة الداخلية الدينية ، كان رفاقه يبولون في سريره . وكان يصاب ببرد شديد إثر ذلك .

ـ برولو!

ـ مرني ، دون بينيغنو!

ـ أحملت الخبز والماء إلى السيدة ؟

خيورخينا بنت قريبة الأعرج مونتشو بريغيثاس مات زوجها الثاني أيضاً .

ـ ينبغي لي أن أتدبّر أمري قليلاً ، لأني أصبحت غير شابة . وجود رجل ضروري دائماً ، خاصة هنا ، في هذه الأنحاء . نحن ـ النساء ـ لا ينبغي لنا ولو ترمّلنا مرة أو مرتين أن نظل وحيدات أبداً .

مونتشو كان يتحدث دائماً بعطف عن خالته ميكائيلا ، أم خيورخينا .

ـ كانت محسنة إليّ كثيراً . لما كنت صبياً كانت تداعب عضوي كل ليلة . من قبل ، كانت العائلات أكثر اتحاداً .

آديلا وخيورخينا أختان ، لكنهما لا تتشابهان جداً إلا في ميلهما إلى الخمر ، وولعهما بالتبغ ، ومهارتهما في السرير .

ـ من أجل ذلك ، يجب على المرأة أن تعيش!

ـ قولي ، نعم ، يا امرأة . ليس علينا أن نظلّ في هذا العالم من أجل الزرْع فقط .

آديلا وخيورخينا ترغبان رغبة كبيرة في أن تضع رامونا في الغرامولا إسطواناتِ تانغو لكارلوس كارديل ، مثل زهرة الدراق ، ولحن آرّابال ، وأسفل السفح .

ـ كم كنت أرغب في أن أكون رجلا لأرقص التانغو ؟

ـ ما هذا الهراء ، يا امرأة!

رقصت آديلا وخيورخينا ذات ليلة من خريف العام الماضي مع الآنسة رامونا وروسيكلير .

ـ أأستطيع خلع البلوزة ؟

ـ اصنعي ما تشائين!

خالتي سلبادورا ، أم ريموندو كسندولفس ، تعيش وحيدة في مدريد وهي لا تعرف شيئاً عن القرية .

ـ ولا عن الأقرباء ؟

ـ ولا عن الأقرباء أيضاً .

ما يزال أربعة من أخوالي أحياء . الخالة سلبادورا والخال كليتو ، أرملان . والخالة خيسوسا والخالة إيميليتا عانسان . الخال كليتو يقضي ساعات فراغه وهو يعزف الجاز باند .

ـ لكن ، كم عمره ؟

ـ لا أدري! ست وسبعون ، أو ثمان وسبعون .

الخالتان خيسوسا وإيميليتا تقضيان وقتهما في الصلاة والوشوشة والتبول . كلتاهما كانت تعاني من سلس بولي . الخالتان خيسوسا وإيميليتا

والخال كليتو ما كانوا يتحادثون ، ليس فقط أنهم ما كانوا يتحادثون ، وإنما كانوا يتباغضون ويكره بعضهم بعضاً كرهاً مميتاً دون خفاء كبير .

ـ من الخير أن يُشنق الرجال . كليتو يقضي نهاره في القرع على الطبل ، وبدق الصنوج من أجل إزعاجنا ، لا لشيء آخر غير إزعاجنا . ليتك تعلم كم نعاني من الصداع!

أخوالي يقطنون البيت ذاته . هما في الطابق السفلي الرطب جداً ، وهو في الطابق العلوي الأكثر جفافاً . خالي إذا ضجر ، تقيأ واضعاً أصابعه في فمه وأفرغ ما في جوفه حيث يشاء ، إما في جفنة أو خلف قطع الأثاث . فقد كان يجد لذة عظيمة في التقيؤ . زوج خالي كليتو مرضت في باريس ، لما كانا يقضيان شهر العسل ، فتركها في أحد المشافي بحجة أن المرضى يثيرون فيه اشمئزازاً كبيراً ، ثم أُعلم بوفاتها برسالة بعث بها القنصل .

ـ المسكينة لوردس لم تعمر طويلاً . هذي هي الحقيقة ، لكنني ، في النهاية ، قمت بما استطعت ، فأودعتها مشفى جيداً ، ودفعت الأجور كلها حتى الدفن . كانت تلك حالة من سوء الحظ .

جداي كانا في وضع مادي حسن ، فكانا يملكان مصبغة ومعملاً للنعوش ، أي لمصنوعات ما بعد الموت ؛ لكن أخوالي بددوا الإرث ، وصاروا اليوم مفلسين ويعيشون بمعجزة .

ـ لا أدري أيهما أسوأ ، الجوع أم القذارة . الرجال يفضلون القذارة ، لكننا ، النساء ، نفضّل الجوع ، على الأرجح توجد فاجرة ما لا توافق على ذلك .

الحيوانات الصغيرة المؤذية المشنوقة المتدلّية من عريش كرمة خادم

الكنيسة تزداد كل يوم تفسخاً وتعفناً ، والمغفلة بنت مرتينيا تُري الثعلبة الميتة ثدييها ، بينا تأكل فستقاً .

- انقلعي من هنا يا مغفلة ، يا لعينة! أنت وحدك تحملين من الخطايا أكثر مما حملته سودوم وغمورا! غطّي بؤسك وصلّي لسيدنا المسيح . سندينك جميعاً لذنبك القبيح .

ذات يوم ، أصاب خادمُ الكنيسة كاتوكسا بِنْته بحجرٍ بين ثدييها ، وتدفّق الدم من فمها ، وانقلب الخادم على قفاه من الضحك .

- إلهي! كيف وُفِّقت في إصابتها! لو حادَ الحجر قليلاً لسحق رئتيها .

كاتوكسا بنته المغفلة بنت مرتينيا كانت تبدو وهي تغوص في بركة طاحونة لوثيو مورو حملاً يتيماً ضائعاً وملاكاً بريئاً دون أن يتلوّث بالخطيئة الأصلية .

- هل الماء بارد ؟

- لا ، يا سيدي ، ليس كثيراً .

حين ترى سحابة الذباب مقبلةً ، يُعرف أن خوري سان ميغيل ديبوثينيو يسير وسطها . لا شك في أن جسمه من مربّى .

- دولورِس!

- مرني ، يا دون مركسيلدو!

- هذا الخمر صار خَلاً . اشربيه أنت!

- نعم يا سيدي .

كانت دولورس تجرع كأسها ، دون أن ينقبض وجهها . كل شيء كان

يلائمها . وكانت دولورِس بذراع واحد تفقد توازنها إذا سكرت .

ـ في بعض الأيام ، كل شيء يسير مائلاً ، ذلك بأن الناس يميلون إلى أحد الجانبين أكثر من ميلهم إلى الجانب الآخر .

دون مركسيلدو كان مشهوراً بضخامة عضوه المهوشة ، وصلابته الصخرية . ولو لم يكن كاهناً ، لاستطاع كسب رزقه من عرض امتيازاته في المهرجانات .

ـ سيداتي ، سادتي! ادخلوا وتأمّلوا عضو المسيح الدجال الحقيقي ، أكبر عضو ـ والعفو منكم ـ في شبه الجزيرة الإيبيرية كلها ، لا تتدافعوا! يوجد مكان لكم جميعاً ، وهذه المادة لا تتدهور بتقادم الزمن .

لكن ، بالطبع ، هناك أشياء أخر لا يمكن لرجال الدين أن يصنعوها حفاظاً على الكرامة البشرية .

ـ دولورس!

ـ مرني ، سيد مركسيلدو!

ـ هذه التفاحات فاسدة . كليها أنت .

ـ سأفعل ، يا سيدي .

ـ إذا جلبتِ لي مرة أخرى تفّاحاً فاسداً ، فسوف أدخله في أستك .

ـ بالطبع ، يا سيدي .

كارول ملك رومانيا يزور بلغراد يرافقه الأمير ميغيل ولي العهد . لويسينيو بوثيلو الخادم الخصيُّ ملكُ يمين دون بينيغنو ، ودولورس الخادم القطعاء في حظيرة خوري سان ميغيل ، يبدو أنهما خُلقا ليشار إليهما بإصبع

الغضب التي تفرض الطاعةَ بالرفس ، وهي أصبع معقوفة ملتوية وتميل إلى الجفاف .

ـ والرفسات ، أينبغي لها أن تكون في البطن ؟

ـ أينما ضُربت ، النتيجة واحدة .

سأسجل على ورقة أنه يجب عليّ أن أطلب مزيداً من تبغ المضغ من أبناء عمي في لاكورونيا لأهديها إلى ماركوس آلبيته ، ويجب عليّ أن أرسل إليهم تمثال سان كاميلو حامل العصا . وأرجح أن يكون عملاً فنياً جيداً . لما كنا نذهب إلى قنص الجياد البرية في أكسورس ، كنا نتخاطب أنا وماركوس آلبيته ، دون رسميّات أو كلفة . ثم جاءت الحرب وحدثت أحداث وتقلبت أمور . واليوم ، نتخاطب مباشرة ، وأحياناً على شكل رسمي ، حسب الوضع . أمام الناس ، نتخاطب في العادة رسمياً ، وأنا أرفع حجاب الكلفة بيننا أكثر مما يفعل هو . لا بد لي من أن أتذكر طلب مزيد من تبغ المضغ إلى أبناء عمومتي في لاكورونيا . ماركوس آلبيته فتى طيب ولا مندوحة له من أن يضجر في صندوقه غاية الضجر .

ـ النجمة تكاد لا تُرى ، ويجب علي أن أدهنها مرة أخرى . الدهان الأخضر جيد جداً . وكل الناس يقولون ذلك ، لكنه يبهت مثل كل الدهانات ، ولا بد من دهنه من جديد .

الغرامولا هي أكثر من غراموفون ، وأكثر ترفاً وحداثة أيضاً . ليس للغرامولا بوق وإنما يخرج الصوت منها من بين أضلاع شبكة على الجانبين . روسيكلير لها أقرباء أرجنتينيون يسمون الغرامولا بيترولا . الفونغراف (الحاكي) كان أقدم عهداً من الغراموفون . الغرامولا التي أهداها ريموندو كسندولفس إلى ابنة عمنا هي ماركة أوديون ، نموذج كاديت .

من أجل سماع الموسيقى التي تتشربها الروح مثل ضوء القمر ، أو إلى إيليسا ، أو بولينزات شوبان يفضل البيانو . أما الموسيقى التي تلامس الأذن ملامسة ثم تنزلق عنها تقريباً فيفضل سماعها من الغرامولا التي تحوي كثيراً من الغموض والسم . فالس الشموع الذي هو في منتصف الطريق بين هذه وتلك ، يصلح للسماع من البيانو والغرامولا سواء بسواء . البيانو صغير ، وذو ساق واحدة ، ومفاتيح من العاج ، ورثته رامونا من أمها التي كانت تعزف برغبة كبيرة وبأسلوب رفيع أيضاً . في الشتاء الماضي ، قالت الآنسة رامونا لروسيكلير ذات مساء ، إنها سئمت من الرقص معاً .

ـ لا تجعلي القرد يستمني . ذلك يثير لذته لكنه يجلب سوء الحظ عليه . وفوق ذلك هو مسلول .

ـ يا لبؤس خيريمياس!

بيانو الآنسة رامونا من ماركة كرامر بيل آندكومباني . وله قنديلان من الفضة للزينة . من قبل ، كان الناس يعيشون حياة أفضل مما هم عليه اليوم .

ـ حسن! لكن الناس كانوا يموتون أيضاً في سن أبكر .

ـ لست متأكدة من ذلك .

روبين لبوثان كان يجلب عادة أقراص الشوكولا لروسيكلير .

ـ خذي ، كيما تحتفظي بحلمتي ثدييك صلبتين . الحلمتان الصلبتان أقسى شيء تفرضينيه علي .

ـ اسكت ، يا خنزير!

روبين لبوثان يعير الآنسة رامونا كتباً شعرية . لما كتبت روساليا[١] .

---

(١) روساليا دِه كاسترو (١٨٣٨-١٨٨٥) شاعرة غمائية رومانسية لها ٢ دواودين شعرية . يغلب على شعرها التشاؤم والألم والقلق (المترجم) .

«على ضفاف السار» ، كانت تقطن في ماتانثا إزاء محطة (الغرب) ، وهي أقرب إلى النهر الآخر ، نهر الأويا . على ضفاف السار مكتوب بالإسبانية ، و«أوراق جديدة» بالغليشية . كلا الكتابين جميل جداً وفيه إلهام . نشرت «على ضفاف السار» ، قبيل موتها . فروساليا لم تعمرّ طويلاً ، وماتت ولمّا تبلغِ الخمسين . روبين لبوثان يفترض أن روساليا لم ترَ النور في سنتياغو كما تقول الكتب ، وإنما في «بدرون» ، ونُقلت من هناك بُعيد ولادتها للتخفيف من ألم والدتها التي لوّث شرفها أحد القساوسة . ولو عُلم أن تلك المولودة ستصبح ذات يوم أكبر شاعرة في البلد ، ربما ما كانت رُحّلت بهذه العجلة والاهتمام الضئيل . على الأرجح كانت قتلت .

- كم كان الناس حميراً!

- لا تغالي ، يا امرأة! تلك كانت أزمان أخر .

روبين لبوثان يحسب أنّ روساليا كانت على علاقة غرامية ببيكّر[1] ، لكنه لا يملك الدليل على هذا الزعم . كان بيكر إلى هذا الحد أو ذاك ، ترْباً لروساليا ، لكنه مات شاباً قبل موتها . الحقيقة أنهما كلاهما ما كان يطيق شيئاً . كانت الآنسة رامونا معجبة جداً بشعر «هواء أرضي» ، لكوروس الذي كان من ثيلانوبا ، وهي على الطريق التي تقود إلى أكسورس وبيت عم أب روبين .

- على الأرجح ، من هنا جاءتك هواية قراءة الكتب .

- ممكن!

ديوان «الريح البحرية» لدون رامون كَبَانيَاس جيد جداً . هذا الأخير

---

(١) عوستافو آدولفو بيكر ·(١٨٣٦-١٨٧١) . له ديوان «القوافي» ومجموعة قصصية ؛ أساطير منثورة يمتاز شعره بالبساطة هو وروساليا أعظم شعراء الرومانسية في إسبانيا .

من كمبادوس على خليج آروسا ، ولا يزال في صحة جيدة ولما نبلغ منتصف القرن العشرين . أشعر بالفرح لأن عدد الشعراء يتضاءل ، واليوم لا نجد غير لاعبي كرة القدم والعسكريين . روسيكلير لها ميل نحو الشعر وإن لم يكن كبيراً . ريموندو كسندولفس يدندن بلحن «القلب الأقدس» وهو يحلق ذقنه .

ـ ألا تعرف شيئاً آخر ؟

ـ لِمَ تقولين ذلك ؟

ـ لا لشيء .

في حانة راوكو ، تقدم قطع المعدة الفاخرة ، وهي أفضل من الأخطبوط . ما كان ريموندو وبنت عمنا يبيتان الليل كله معاً ، إلا إذا كانا في سفر ، وقد كانا في عيد الفصح الزاهر في لشبونة . كلما زار ريموندو قريبتنا ، أهدى إليها دائماً زهرة كاميليا بيضاء .

ـ خذي ، مونتشا ، كيما تعلمي أني أعرف ذوقك ولا أنساك أبداً .

أما روسيكلير فكان ريموندو يهدي إليها أقراص شوكولا ، وهكذا ، إلى كل واحدة وما تهوى . فابيان منغيلا ، موتشو يلعب التشاميلو في حانة راوكو . آل كروبو يسوء طبعهم ، إذا خسروا ، وتنقبض بقعة جلد الخنزير في جباههم ويطلقون الكلام جزافاً . تريبيرو والد الأخوة غاموثو ، كان يقول دائماً إن من لا يعرف الخسارة ، لا يعرف نهايته ، أو بعبارة أخرى : من يسؤ خلقه إذا خسر ، ينته نهاية سيئة . وهذا يعني : يشق رأسه شقين في حفرة ، أو يقتل بطعنة في بطنه في الجبل حيث يعيش ذئب ثاكوميرا ، أو في أي مكان آخر . ريموندو كان يحب ركوب الحصان في الجبل ، فكان يخرج

إليه والآنسة رامونا في بعض الأصباح للنزهة إذا لم يكن المطر غزيراً . حصان بنت عمنا هرم ، لكن فيه بقية .

ـ أتظن أن كابوكسا تولا تجرؤ على القيام بالخبائث مع ذئب تاكوميرا ؟

ـ يا إلهي! ما هذا الهراء!

رأى الغريب أن موتشو كروبو لا يدعمه أحد . العلامة الخامسة من علامات اللئيم ابن القحبة تتجلى في اليدين الناعمتين الرطبتين الباردتين ؛ فابيان منغيلا له يدان كأنهما بزّاقتان .

ـ لا أرغب في أن أرفع صوتي ، لكن إن لم تدفع ما خسرته ، فسوف أشق فمك .

قط حانة راوكو ليس له اسم . وإنما تدعوه ربة الحانة : «قطاً» ، وهو يستجيب لذلك . موتشو يخرج النقود ، بينا يداعب الغريب القط ، دون أن ينظر إليه .

ـ ضع النقود على المنضدة ، سآخذها إذا رغبت فيها .

اضطر موتشو أن يغمد خنجره ، فلم يهرع إلى نجدته أحد ، وما كان هو يقوى على الدفاع عن نفسه ، وما كان يستحق الدعم ، فابيان منغيلا أو موتشو ، يعمل قاعداً مثل سائر أفراد كروبو ، القعدة لا يركبون الحصان ولا يزرعون الأرض . موتشو خياط ، ويتاجر أيضاً بمواد خردة ، وبمكبات الخيطان والأزرار السيلولوزية والمعدنية والجوارب القطنية ، ومناديل وأشياء أخر بائسة . آل كروبو شذاد آفاق والله وحده يعلم من أين قدموا .

ـ ضع النقود بمرأى : البيزوات ، والبيسيتات ، والبتكونات . فليرها

الحضور جميعاً ثم انصرف . وابدئي بصب الخمر ، يا صاحبة الحانة ، أقول إن كان لا يزعجك صب الخمر ، فأنا لا أريد أن أزعج أحداً .

موتشو يثبت شعره أيام الآحاد بمثبت أوميغا ، ويضع ربطة عنق حريرية ذات لون أخضر لماع ، ومنديلاً من «الكريب» المتلألئ يثبته بدبوس إنكليزي كيلا يُسرق .

ـ يا للنذل!

ـ أعتقد أنه نذل ، بل أنذل من عليها .

العلامة السادسة من علامات ابن القحبة ، النظرة الشاردة . فابيان منغيلا حتى في الظلمة لا ينظر مباشرة . ببغاء الآنسة رامونا هرم للغاية وهو يأكل فولاً سودانياً ، وينشد دعاء المسبحة الوردية : يا عذراء ، يا قديسة صلي من أجلنا ، يا عذراء ، يا رحيمة : صلي من أجلنا ، يا عذراء ، يا طاهرة : صلي من أجلنا . هنا تتردد صلاة العذراء بإفراط ، وكأن البيت مملوء بعابدات يرشدن الشبان الضالين إلى الطريق القويم . خدم الآنسة رامونا الأربعة هم التالون : براوليو دواده ، ٨٢ عاماً ، من مواليد كمبوسانكوس ؛ آنطونيو بيغاديكادو ، ٨١ عاماً ، من مواليد ثنيّه ؛ بورينيا كوريغو ، ٨٤ عاماً ، من مواليد بانيوس ديمولغاس ، إيسابيلا سوليسين ، ٧٩ عاماً ، من مواليد سان كريستوبال ديثيا . عمر الببغاء يفوق عمر أعمر المعمرين ، فهنا لا يموت أحد ، يا عذراء ، ياحكيمة : صلي من أجلنا . يا عذراء ، ياجليلة : صلي من أجلنا ، يا عذراء ، ياعظيمة : صلي من أجلنا . هنا يوجد فيض من العذارى ، ذلك كأنما في البيت يسوعيون يهدون أبناء العائلات المحترمة ، الطائشين إلى سواء السبيل . خدم الآنسة رامونا الأربعة نصف عميان ونصف طرشان ، بعضهم أكثر من بعض ، وهم مصابون بالتهاب

الرئة والروماتيزم بنهج واحد جميعاً . الحقيقة أن أياً منهم لا يصلح لشيء ، لكن لا يمكن صرفهم أيضاً ببساطة ، خشية أن تأكلهم الذئاب والقمل .

ـ هي مسألة إحسان ، أعلم ذلك حقاً . ما يبعث على الأسى هو التفكير في أن هؤلاء البؤساء خفقت قلوبهم في صدورهم ذات يوم بسبب الحب ، منذ ما قبل فقد المستعمرات . يا لهذا الهراء! لما جاء الببغاء من كوبا ، كان عجوزاً ، أما ما لا أعلمه ، فهو تعوده على هذا المناخ .

آدغا عندها إحصاء بعدد الموتى ، لا بد من وجود كاتب بالعدل يسجل عدد الأرواح التي يحصدها الموت دون أن يمنح نفسه لحظة من الراحة أبداً .

ـ المغفل بيدويروس لم يشنق نفسه ، وإنما شُنق للتجربة عليه ، ولم يُشنق بسوء نية وتصميم ، وإنما كانت زلة يد . يعمل الشيطان على أن يشنق أحياناً أحد في لحظة غفلة ، وما كان يراد شنقه . المسألة كلها تتعلق بسوء الحظ ، فقد شنق المغفل بيدويروس تجريبياً ، شنق مزاحاً ، لكنه مات جاداً ، معلوم أنه أُخِذَ سهواً .

لقب روكه غاموثو بكريغو ديكوميسانيا مزاحاً ، كذلك شنق المغفل بيدويروس مُزاحاً أيضاً ، ثم وجب دفنه ، وما كان يعرف مساعد القاضي ماذا يكتب .

ـ ماذ أكتب في الورقة ؟

ـ اكتب ما تشاء . هي حالة من سوء الحظ فقط . كان المسكين يعاني من الاضطراب وسوءِ الحظ . بعضُهم يُولد بقدمٍ ثابتة ، وبعضهم الآخر ليسوا كذلك ، هذا هو كل شيء .

دون مركسيلدو أغريكسان فينتيرا ، خوري سان ميغيل دييوثينيوس أقام ثلاثة قداديس على ابنه المغفل ديبدويروس ، دون أن يُفصح لأحد عن قصده .

تشيلو دومنغيث أنجبت ستة ذكور من زوجها روكينيو غاموثو .

ـ أوَلَهم قضيب والدهم ؟

ـ نعم ، من هذه الجهة لا توجد شكوى كما يبدو .

تشيلو تُعنى بنظافة أبنائها وأناقتهم وهي فخورة جداً بهم .

ـ فوق ذلك ، لي ملءُ الحق بأن أفخر بهم . قليل من النساء ، لديهن سبعة رجال ، أيُّ رجال ، حولها . روكه وأبناؤه تبعث على السرور رؤيتُهم!

الخالة لوردِس امرأة الخال كليتو ماتت سريعاً ولما تقضِ شهر العسل . ماتت الخالة لوردس في باريس ، لأن الفرنسيين الذين يغتسلون قليلاً ، أصابوها بمرض الجدريّ . آدِغا لا تصدّق أنه السبب الذي أودى بها إلى القبر .

ـ لا يمكن أن يكون الجدريُّ السبب . لأن الآنسة لوردس ، رحمها الله ، وُلدت في سنة كبيسة . كل الناس يعلمون أن مواليد السنة الكبيسة لا يُصابون بالجدري .

ـ لكن ، أهي قاعدة ثابية ؟

ـ هي من أثبت القواعد!

لما عاد الخال كليتو الذي ترك زوجه وراءه في الطريق ، أظهر الجدّان اللذان كانا لا يزالان على قيد الحياة حزناً كبيراً .

ـ ياللوردِس المسكينة! كم تركت من الحزن في قلب كليتو! كانت

المرحومة هشّة الصحة ، هذا صحيح ، لكن ، كان بإمكانها أن تعمر أطول مما عمرت . لكُنّا ، إذاً ، أهدينا إليها تابوتاً جديراً بكنّة ، تابوتاً من خشب الجوز ومن نوع إنكليزي فاخر وله حدائد من البرونز . يا للمسكينة لوردس! ما أسرع ما دعاها إلى جواره ربنا عز وجل!

ألقي بالخالة لوردس في قبر مشترك ، لأن الخال كليتو دفع تكاليفَ الدفن ، لكنه لم يدفع ثمن القبر ، والفرنسيون في هذه النقطة ، دقيقون جداً . وقد نفض السيد القنصل يده من الأمر ، فالموت خارج البلد غيرُ مرغوب فيه دائماً ، بسبب الجهل بالعادات .

ـ وهل الفرنسيون كاثوليك ؟

ـ نعم ، هذ ما أراه . هم كاثوليك على طريقتهم . البروتستانت هم الإنكليز والألمان .

ـ حقاً!

ابنا غاموثو التوأمان ، ثِلِستينو كاروتشا الصياد ، وثفرينو فوريلو ، العُرَكيَ أي صياد السمك ، خوريان ، الأول في سان ميغيل ديتابو آديلا التي تقع في أقصى طرف بينيور . فوريلو كان من قبل في سان آدريان ديسابو في ريريث ده بيغا ، قرية رجل العصابات المشهور ثِلسو ماسيلدهِ ، تشابون الذي ظل في عصابة بيلارين حتى عام ١٩٤٨ لما وقعوا جميعاً في كمين . وهذا البيلارين لا صلة له بالبيلارين الآخر ، إسْتِبَان كورتياس مزوّد قوارب صيد السمك والرئيس المجلّي للفلانج في موغاردوس ، حيث قتله رجال العصابات بالرصاص عام ١٩٤٦ . شنّ تشابون حرب عصابات أيضاً في مقاطعة أوردينييس بالمشاركة مع بينيغنو غارثيا أنْدرادهِ ، فوثياس ، رئيس التجمّع الرابع ، الذي قبُض عليه في لاكورونيا عام ١٩٥١ . فوريلو يزور

بينيثيا كل أول وثالث ثلاثاء من الشهر . والنظام هو النظام . بينيثيا لها نخير فرح ، لكنها محترمة جداً ، فهي تخاطب فوريلو بكياسة ، وكانت تقبّل يده حين انصرافه من عندها .

ـ أتمنّى أن تظل بخير ، دون ثفرينو . هل تمتّعت ؟

ـ نعم ، يا ابنتي ؛ جزاك الله خيراً ، تمتعت كثيراً .

الخوارنة من مخلوقات الله أيضاً ، مثلهم مثل العناكب والزهور وصغار الفتيات اللاتي يخرجن قافزات من المدرسة ، والله غفار الذنوب .

ـ اضغط ، دون ثفرينو! لاتنزع ، آي! آي!

بينيثيا لها عينان زرقاوان ، وحلمتا ثديين كحبتي كستناء ، بينيثيا لا تعرف القراءة ولا الكتابة ، وإنما تسعى في الحياة متلمّسة تخميناً كلَّ شيء : الحب والضجر و الحياة والموت ، الرغبة والاشمئزاز وكل شيء . ريموندو كسندولفس أمهر في السرير من دون فوريلو . ذلك بأنه دخل الجامعة ، ويُلاحظ عليه ذلك دائماً ، إذاً ، تدرّب لما كان طالباً في سنتياغو على مهارات كثيرة في بيوت بومبال ، وماكانا ، والبورتوغيسا ، وماما لولا ، تدريباً جيداً يجعله على استعداد دائم . فوريلو آثم ويهدي إلى بينيثيا بعض سمك التروتشا .

ـ خذي ، حتّى نلتقي... حسن ، نحن متفاهمان... اقلي واحدة لي وأخرى لك .

ـ نعم ، دون ثفرينو ، ما ترغب فيه .

كاروتشا صياد ، وكان يُطفئ ظمأه من مناهل أخر .

ـ فينا!

ـ مُرني ، دون ثلستينو!

ـ جلبتُ لك أرنباً لنأكله ليلة غد .

ـ لكني في العادة الشهرية ، دون ثلستينو .

ـ لا فرق عندي . تعلمين أني لا أدقق في أمورك كثيراً .

فينا أرملُ سمراء رهيفة القدّ . فينا في الثلاثين أو في الثانية والثلاثين من عمرها ، وهي مسلّية وداعرة ، جاءت إلى هنا منذ فترة ما ، وظلّت في المنطقة ، وتلقّب بالبونتبيدرية ، لأنها من بونتبيدرا ، ببوركا مارينا أيضاً لسبب لا يعرفه أحد .

ـ اسمعي ، صفة داعرة أليست قوية قليلاً ؟

ـ ربما!

يقال إن فينا قتلت زوجها غمّاً ، لكن ذلك زعم غير صحيح ، لأن القرنانين والديّوثين يقاومون كالأسود . كانت فينا تبدي دائماً ميلاً كبيراً إلى رجال الدين ، تلك كانت طبيعة فيها . فما إن ترى خورياً شَرْط ألا يكون عجوزاً جداً ، حتى كان يطير لبُّها فرحاً .

ـ هم رجال فحول ، وإذ كانوا لا يعانون من الهموم ، فهم يحسنون الركوب جيداً . معهم تشعر المرأة باللذة .

فينا ليست محتشمة مع دون ثلستينو كما هي بينيثيا مع فوريلو . ومع ذلك ، تعامله بكياسة أيضاً ، لكنها تنسى نفسها أحياناً وسط العراك .

ـ لكن ، أية شهوة أطلقتها فيّ ، يا ديّوث! اعذرني ، دون ثلستينو . سامحني الله ، لقد قطعت أنفاسي .

لا يستطيع أحد أن يردّد الأغنية التي يصهل بها محورُ عربة الثيران التي تجري في طريقها منبّهةً الموتَ كيما يهرب . الذئب يعوي والخنزير يهمهم ، لكنّ التوت البري لا يخاف أبداً ، ويبدو أنه من مادة شجاعة وجبلية .

ـ هل تمتّعت ؟

تمطر بإيمانٍ وأمل وإحسان على الذرة والجاودار ، تمطر على الفضيلة والرذيلة معاً ، وعلى الرذيلة منفردةً ، تمطر على البقرة الوديعة والثعلب الجبلي ، على الأرجح تمطر دون إيمان ، ودون أمل ولا إحسان ، ولا يعلم ذلك أحد ، ولم يلتفت إلى ذلك أحد . تمطر بورع في حين يتابع العالم جريانه . رجل يُقرض بالربا وامرأةٌ تفرك فرجها بأرنب ميت ، وطفل يموت لألم في أمعائه من أكل الخوخ ؛ روبين لبوثان يهدي شوكولا إلى روسيكلير التي تسعى جاهدةً لجعل القرد خريمياس يستمني ، وطفلة تموت برفسة حصان ، وأرخميدس قال تلك الجملة : أعطني مخلاً الخ ، الخ... تمطر باعتدال وبضجر أيضاً فوق العالم ، لم يبقَ شيء فيما وراء حرف الجبل ، كل شيء محاه ربُّنا لما قُتل لاثرو كودسال في أرض المغرب . زوج فينا المرحوم كان يدعى آنطون غونتميل ، وكان ضعيف البنية مِمْراضاً ونحيلاً ، وفوق ذلك تعتاعاً ، وكان يبذل جهداً مضنياً كيما تخرج الكلمة من فمه . فينا كانت تعامله دون تقدير ، وكانت تسخر من ضعفه ، ولم تكن حسنةَ السلوك في ذلك .

ـ اعلمْ ، أنت يا من تبدو شبحاً : رجل الدين الفرنسيسكاني أكثر رجولة منك . فيه من الرجولة ضعف ما فيك . هو قليل التجربة حقاً . لا يولد أحد عالماً . لكنه يملك استعداداً ليتعلم .

غضب أنطون غضباً شديداً ، وضرب امرأته على أضلاعها بالعصا وتلقّى هو منها ضربة بالمقلاة وسط وجهه .

ـ أيكفيك ذلك يا ديّوث الشيطان ؟

غادرت فينا البيت حاملة صندوقاً تكاد تضرَطُ تحته وهي تطأ الأرض بقوة صافقة الباب وراءها . أيّة آداب هذه!

ـ ابحث عني ، إن شئت .

بيت الآنسة رامونا خارج قرية ميسوس دورينو على يسار الطريق وأنت قادم من لالين . ميسوس دورينو مزرعة سُكنت حديثاً . من قبل كان يطلق على هذه المجموعة من البيوت ميسوس ديموئيره ، لأن أوّل من أقام منشأة وبيوتاً هنا لما بني الطريق العام ثامورا ـ سنتياغو رقم ٥٢٥ ، كانوا من المكان المجاورلموئيره الذي هو على أطراف بينيور على يدك اليمنى وأنت قاصد قشتالة . اسم ميسوس دورينو ـ أو بيوت المملكة ـ أُطلق عليها في وقت لاحق ، ولا علاقة له بمملكة السماء ، ولا بمملكتي غليشية وإسبانيا . أطلق عليها الاسم لأن أقوى تاجر في المنطقة كان يدعى خوسيه بلانكو غارثيا ، الملقب بدون خوسيه دورينو . بيت الآنسة رامونا ليس قديماً جداً وعمره لا يزيد على متتي عام لكنه يضمّ كثيراً من النبل والأسرار والقصص العاطفية والأمراض والكوارث . وعائلة الآنسة رامونا من العائلات المهمة في البلد على الأقل ، وفي العائلات الهامة تحدث دائماً كوارث . فأم الآنسة رامونا غرقت في نهر آسنيروس الذي لم يكن غزير المياه . ولا يُعلم أبداً إن كانت غرقت قصداً أم دون قصد . حديقة الآنسة رامونا تصل حتى حافة النهْر حيث قد ينزلق المرء أو تزلّ قدمه . يصل أحياناً رومولو وريمو طائرا التم حتى النهر . ويزعم الناس أنهما يجلبان سوء الحظ . آنطون زوج فينا قتله القطار بمرأى من الناس في محطة أورينسه .

ـ ولِمَ لم يبتعد ؟

ـ وما أدراني! المسكين لم يطف في العالم كثيراً .

فينا كانت تطبخ الأرانب لدون ثلستينو في حياة زوجها . وكانت تحاول دائماً أن تجلبَ السرور إلى نفوس رجال الدين ، وأن تكون لطيفة معهم . بيت أمي الذي صار بيت أخوالي ، هو في ألبارونا في خَوْرَنِيّة سان كسوان ديبارّان . الخال كليتو ، إذا لم يكن نائماً ، فهو يعزف الجاز ويشرب الكونياك المخزون في البراميل . كان يبتاعه دائماً من حانة راوكو بالدَّين بانتظار أن تتحسّن الأحوال . والخالتان خيسوسا وإيميليتا ، إن لم تكونا تصليان ، فهما تتوشوشان .

ـ وتبولان ؟

ـ أوف ، بولاً مخيفاً! الخالتان خيسوسا وإيميليتا تبولان في ثيابهما منذ عشرين عاماً على الأقل .

يبدو لي أن الخالة لوردِس كانت حسنة الحظّ أنْ ماتت في باريس . الحقيقة أن مسألة الحظ هذه لا تُعرف أبداً . ولربما سُرّ الجدّان لو توفيت في غليشية . هذي هي العادة .

ـ كانت ضعيفة البنية ، وذلك بارز للعيان . لكنّ نساءً أخريات لَسْنَ أحسن صحة منها ، يقاومن أكثر مما قاومت . ليتك تعرف التوابيت الفرنسية! على الأرجح هي كرتون حجري!

الخالة خيسوسا والخالة إيميليتا لا توجِّهن كلمة واحدة إلى أخيهما إلا لتسألاه إن كان قد أدّى واجبه الديني .

ـ الخُرْء عليكما! أنا أقيم سلوكي على قاعدة حرية الاختيار .

ـ يا إلهي! لهذا الخلق!

وإذا لقيته الخالتان خيسوسا وإيميليتا ، التفتتا إلى جهة أخرى ، حينئذ يشرع الخال كليتو في الصفير ليغضبهما .

ـ آي ، يا إلهنا الكريم! يا إلهنا الكريم! ماذا صنعنا حتى نعاني كل هذا العذاب ؟!

أخوالي لا يتحادثون ، وإنما يشتبكون في نقاش حول المكان الذي سيشغله كل منهم في المقبرة ، وينتهي بهم النقاش إلى التشاتم على شكل خطير ، بصوت خفيض ، نعم ، لكنه خطير جداً وحين يُثير خالي كليتو أعصابَهما إثارة شديدة يُفلت ضرطة ، ضرطة شيطانية طنّانة . حينئذ تنفجر الخالتان خيسوسا وإيميليتا باكيتين بأسى .

ـ ألا يشبه ذلك نهاية العالم ؟

ـ نعم ، هو شيء شبيه بها .

خالي كليتو يعزف الجاز سماعاً ، يعزفه بصورة حسنة ، وكان يُنعش نفسه صافراً مدندناً . الخال كليتو لا يخشى الوحدة لأنه يُخيفها بقرع الطبل والصنوج . تتناول الخالتان عصراً شراب قشرة الكاكاو مع كسرة خبز من نوع (ميمون) ، وهو رخيص الثمن وذو طعم لذيذ جداً .

فابيان منغيلا أو موتشو لا يستطيع دخول هذه البيوت ، لا بيت أخوالي ، ولا بيت الآنسة رامونا ، ولا بيت ريموندو ولا أي بيت من بيوت آل غوكسينده ، حتى لو لم يجرِ ما جرى ـ وقد جرت أمورٌ جِسام ـ لكان من الخير ألا يدخلها . ليس ذلك لأنه غريب ، وإنما بسبب مَنْ أمَرَه بوضع النقود على المنضدة لما خسر في لعب الدومينو ، ولم يطلب أحد منه أن يسكت ، أو يطرده خارج الحانة . الناس هنا لا يضمرون شراً على الغرباء ،

العلامة السابعة من علامات اللئيم ابن القحبة هي الصوت الحادّ . كان صوت فابيان منغيلا حاداً كصوت راهبات يسوع الحمل حين ينشدن في جوقة مدرسة دينية . دون خيسوس مَنْثنيدو كان قاتلاً مشهوراً ، وإنْ كان يملك موهبة . يرجح الآن ، أنه يحترق في نيران الجحيم إلى أبد الآبدين ، ودهر الداهرين . آمين . مات دون خيسوس على سريره ، نعم هذا صحيح . لكنّ بدنَه تعفّن وصار برائحة الجيفة . كان أبناؤه يتحاشونه لأنهم ما كانوا يطيقون هذه الرائحة ، بل كانوا يسكبون ماء الكولونيا على المناديل . مات أيضاً بعد أن تعذّب عذاباً أليماً في جسده ، كما تعذب في روحه بتبكيت الضمير . والله تعالى يعاقب دون عصا ودون حجر ، وآل موتشو ـ لا حوتْهم أرض ـ حتى بقاياهم الفانية لم يحفظوها جيداً .

ـ هل الطقس بارد ؟

ـ ليس كثيراً . أيُّ صباح آخر أبرد من هذا الصباح .

بينيثيا آلة لبثّ الدفء والسلوى واللذة أيضاً . تأمّلْ ما نقوله لها ؛ إذْ نحبك حباً جمّاً ، يفرحنا جميعاً أنك لا تعرفين العزف على الكمان ولا على الهارمونيكا . بينيثيا هي كطاحون الماء لا تتوقّف أبداً .

ـ أتناولينني الجريدة ؟

ـ ولأيّ شيء تريدها ؟

ـ الحقيقة ، لا لشيء . لقد قرأتها .

بينيثيا حلوة كذئبة في الشبق ويَسُرُّها أن توزّع الخير .

ـ أتفسحين لي مكاناً في السرير ؟

ـ لا بأس!

بينيثيا تستطيع أن تحبس نفسها لأكثر من دقيقة ، ثم تنفجر بعدها . غريب جداً أن تحبس نفسها والشريك يعلوها كأنها ميتة ، الميتات باردات ، لكنها هي تحرق كما النار . وحين تُبعث فجأة ، تتنفّس شاهقة كما لا يفعل أحد ، وتندفع وتحطّم أعضاءك حتى طلوع الروح . فلا بد من الحذر الشديد .

ـ أغلق الشبابيك . فأنا أرغب في النوم قليلاً .

كانت الآنسة رامونا تُؤخذ في صغرها إلى حمّامات البحر لأنها كانت شديدة الشحوب . كان يُؤتى بها إلى كمبادوس على خليج آروسا حيث كان يقطن أبناء خؤولتها من آل مِنديث كوتّباد . كان هؤلاء كثيرين يحفظون عهد الوداد جيداً ، ورحماء . كانوا تسعة أبناء يثيرون الصخب دائماً ويصطادون السراطين ويأكلون خبزاً بالعسل . أما البنتان الصغيرتان مرثيدس وبياتريس فكانتا توأمين ، وكانت ضفائرهما ونظّارتاهما أسوأ من الألم . وكانتا تتنزهان على السطوح دون أن ينهرهما أحد .

ـ ولأيّ شيء ؟ هاتان الصغيرتان لا تسقطان ولو دُفِعتا .

الفرق بين المدّ والجزر في كمبادوس يبلغ ثلاثة أمتار ، وربما أربعة . وحين تنحسر المياه ، تشحط الأسماك على وجه الطين تحيط بها سراطين حيّة ونوارس نشّالة وقطط ميتة ، ودجاجة نافقة دائماً تقريباً . في كمبادوس ، يقطن نزلاً على حدّ البحر خلفاءُ بيودا دومينغيث . وكانت دونيا بيلار صاحبة النزل ترتّب الأمور جيداً . كانت الآنسة رامونا تدعى في تلك الأعوام مونتشينيا واليوم نادراً ما يدعوها أحد بهذا الاسم . كانت تُؤخذ الآنسة مونتشينيا إلى لاتوخا في الساعة السابعة صباحاً للإفادة من الوقت جيداً . فما كان يمكنها الاستحمام في كمبادوس . كانت تُنقل بقارب ذي

محرّك يقوم بالرحلة بين المكانين . وكان جميلاً ومؤثّراً وهو يشقّ البحر بجؤجؤه ويجرّ ذيلاً بكوثله مما يخلق جواً رومانسياً ، حتى كانت تُرى أحياناً دلافين . ثم تعود من لاتوخا بقطار الركاب في الساعة الرابعة ، الوقت الملائم للاستحمام هو بعد أن تبارك عذراء كارمن المياه ، أو بعد السادس عشر من شهر تموز . مونتشينيا كانت تُعالج على ثلاث فترات ، تُعطى في كل فترة تسعة حمامات بفاصل استراحة لمدّة ثلاثة أيام بين فترة وأخرى وكانت خلال فترة الاستحمام تتناول مُستحلباً مقوياً للدم وللجملة العصبية ، وكانت مونتشينيا تُسقى قبل موسم الحمّامات ، شربةً مطهِّرة من ماء كاربانيا لتنظيف أمعائها جيداً ولتفيد من الحمامات ، ثم تتناول زجاجة من ماء غازي لإزلة الطعم . وتتذكّر الآنسة رامونا تلك الأوقات برعب . لئن تكوني طفلة أقسى عليك من أن تكوني امرأة .

ـ أعجب ما يعجبني أن تضطجعَ معي في السرير ، يا ريموندينيو... وأنت لم تنم معي منذ أسبوع أو يزيد . لما كنت طفلة ، كنت أضجر كثيراً ، كنت أضجر دائماً وها أنذا الآن أسير في درب الشيخوخة ، ولا ينقصني شيء كيما أكون عجوزاً . صبّ مزيداً من الكونياك ، وناولني شيئاً قليلاً منه . لِمَ لم تأخذني مرة أخرى إلى لشبونة ؟

ريموندو كسندولفس لا يدري كيف أمكن له أن يدّهن بمطهر طفيلي ذلك اليوم الذي قضاه في أورينسه ، وتسلّى فترة بسيطة في بيت لابرّوشا . النساء هنا ، يعنين بأنفسهن في العادة . لم يقل ريموندو شيئاً لقريبتنا راموانا . من الصعب شرح الأمر ، زد على ذلك ، أن النساء يثير فيهن التقزّزَ كلُّ ذلك ، ويدفع بهن إلى الشك . ادّهن ريموندو (باللاديّول) المطهرالطفيلي الأكثر فعالية والأسرع أثراً ، والأوفر مالاً . ويُنصح أيضاً بزيت الانكليز ،

وكل الناس تعلم لماذا . فهو لا يترك بقعاً وله رائحة الخزامى ويقتل فوراً دون إزعاج كل صنف من الطفيليات . زيت بروخا له مزّية بأنه لا يترك بقعاً ، وله فوق ذلك رائحة جد محببة . اختار ريموندو اللاديول لأنه من صنع البلد .

ـ أنا مغتمّ ، لأني أشعر أحياناً بالخفقان . قلبي يخفق بسرعة كبيرة .

ـ أليس السبب في أنك تدخّن كثيراً ؟

ـ لا أدري . قد يكون صحيحاً .

قُتِل الجنرال دون روخيليو كاريداد بيتا ، قائد اللواء ١٥ ، بالرصاص في لاكورونيا عند بدء الحرب ، وسنتحدث عن هذا الموضوع في الصفحات التالية . جاء ابنه باكو عام ١٩٤٠ أو عام ١٩٤١ من أميركا ليقيم اتصالاً مع رجال العصابات ، لكنّ السلطات اعتقلته . انضمّ آل ماربيس في برينييديلو ، روكه وأبناؤه سيغوندو وإيباريستو وكاميلو إلى فريق بيرميس ونجوا من الموت بحسن الحظ ، لأنهم استطاعوا العودة سالمين إلى البيت . هؤلاء الأقرباء في مقاطعة ثيلا المتاخمة لبدريندا ، ويفصل بينهما نهر ليميا ، ليسوا غليشيين ولا هم برتغاليون ، وإن كانت لغتهم أشكلَ بالبرتغالية منها بالغليشية . أما الإسبانية فلا يتكلمونها ولا يفهمونها . الحدود ليست محروسة جيداً ، وتهريب الماشية قائم على قدم وساق ، والأطفال على هذا الجانب من الحدود يذهبون إلى مدرسة أبْراديلا في الجانب الآخر من الحدود البرتغالية . وصل أقربائي من آل ماربيس في برنييديلو حتى أستورياس مع فرقة برميس...

أمور ماركوس آلبيته لا تسير سيراً حسناً . يمكن للمرء أن يعيش دون ساقين أيضاً . لكن ، يُفضّل أن يكون له ساقان كيما يستطيع الانتقال من جانب إلى آخر ويركلَ الأشياء بقدميه . ماركوس آلبيته الموضوع فوق

صندوق ذي عجلات ، يبول في صفيحة كانت تغسلها المغفلة بنت مرتينيا في الجدول كيلا تصدأ . كانت المغفلة بنت مرتينا ذات عواطف طيبة جداً .

ـ أتظن أن المطر سيدوم طويلاً ؟

ـ لا أدري ، يا امرأة . أنا أيضاً أرغب في أن تطلع الشمس ، صدقيني .

بيبينيو أكسوريلو يعمل في معمل إيل ريبوسو ، في مصنع التوابيت حيث يعمل ماتيّاس ماربيس وتشوفر يتيرو ، بيبينيو أكسوريلو مساعد كهربائي فمه فاغر دائماً ، إما لأنه مغفل ، أو أنه يتنفّس بصعوبة من أنفه . بيبينيو بوسادا كويريس لقب بكسوريلو بسبب مظهره . أصيب بيبينيو أكسوريلو بالتهاب السحايا لما كان طفلاً ، وظلّ مشوهاً إلى الأبد . واليوم يجري كلام كثيراً عن المسألة الجنسية ، عن المشكلة الجنسية ، هذا من صميم المسألة الجنسية ، أو على الأرجح يأتي من المشكلة الجنسية ، الخ .

ـ أتؤمن بذلك ؟

ـ لا! لا أؤمن به . لكني لا أنفي أن الناس تتحدث عنه كثيراً .

ـ ما حدث لبيبينيو أكسوريلو هو أنه مُعجب بطعم الأطفال . بعضهم يحب طعم النساء السمان والثدياوات . في البدء ، يهدي إليهم « كارميلَ » . إذا وثقوا به ، كان يداعب مؤخَّراتِهم وأفخاذَهم وأعضاءهم التناسلية . كان بإمكانه أن يكون خادماً ممتازاً في مدرسة ريفية . الحقيقة أن أبوي بيبينيو ، لما رأوه نصف مجنون ، لم يلتفتوا إليه أبداً .

ـ سينظّم وضعه بنفسه ، وسوف ترى . هؤلاء الأطفال ذوو ذكاء كبير . هم كالأفاعي .

ـ أهم كذلك ؟

ـ أعتقد . بل هم أكثر من ذلك أيضاً .

بيبينيو أكْسوريلو نشأ على سجيّته دون أدنى رعاية . ولما حان وقته ، عقد قراناً كالآخرين ، ورُزق بابنتين مغفّلتين ، ماتتا قبل أن تبلغ الواحدة منهما العام . زوجه (مهما بذلت من جهد لا أستطيع تذكّر اسمها الذي هو على رأس لساني) فرّت مع بائع متجوّل من مواليد آستورغا ، وهي ما تزال معه . ولما استعاد بيبينيو حريته بهرب زوجه ، أضاءت وجهه هالة من الغبطة .

ـ فلتجلِسْ على الخازوق! ما أطيبَ أن يكون المرء وحيداً!

ضُبط بيبينيو اكْسوريلو ذات يوم سيّء وهو يمارس خبائثه مع سيمونثينيو ، أوبوتشو ، وهو طفل أصمّ أخرس في السادسة من عمره ، وقد كاد يخنقه ، فوُضع في السجن أولاً ثم في مَصحّ عقلي . وراح الناس يرشقونه وهو في طريقه إلى المصح ، بالكعك ، ويركلونه بالأقدام ويضربونه بالحبال وبالعصي أيضاً ، لكن دون سوء نيّة ، وإنما لمجرّد التسلية وتزجية الوقت . ولما علمت زوجه... لحظة! اسمها كونثبثيون إستِبَّه غرِيسانده ، الآن تذكرتها ، نعم لا شك في ذلك ، إنها كونثبثيون إستبَّه غريسانده الملقبة بكونتشا داكونا ، أقول لم تردْ أن تعلم عنه شيئاً ، وأن الأمر عندها سواء إن مات أم أصيب بالجذام .

ـ أنا لا أحقد عليه . أقسم على ذلك . ما يجري هو أني لا أبالي به ، سواء إن أصيب بالجذام أو مات فلن ألبس عليه الحداد . لا تهتمّوا .

كونتشا داكونا منذ فرارها مع الآستورغي صارت جميلة فرحة . شتّان ما بين الرجلين!

ـ النساء يتحسّنّ ، في العادة ، بتبديل الأزواج .

ـ نعم ، والرجال أيضاً!

انتظمت شؤون ماتياس تشوفريتيرو جيداً ، وهو لا يفكّر في الزواج مرة أخرى .

ـ لو كان عندي أولاد ، لوجبت عليَ العناية بهم ، لكني لم أرُزق بهم... بورينيا كانت صالحةً حقاً ، لكنها كانت عليلةً ، وتقصّ أمراضها . السوء في النساء ليس في كونهن مِراضاً ، وكلُّهن مراض ، هذا معروف ، إنما السوء في أن يقصصن مرضَهن . ولا يُطيق ذلك إنسان .

ماتياس تشوفريتيرو كان يحبّ الرقص ولعب الورق وألعاب الخِفّة . كان يلعب البلياردو والدومينو أيضاً ، ويحكي قصصاً ظريفة ، ويشرب أقداحاً من اليانسون الحلو . ويحب أكل أقراص جوز الهند وبونبونَ بطعم القهوة بالحليب . مع ماتياس يقطن أخواه الأصغران : لاكراو الأبكم والذكي ، ومكسير يكيرو الضعيف والساذج . بينيتينيو لاكراو يقصد المواخير مرة واحدة في الشهر ، وهو من أجل ذلك يكدّ ويكسب دخلاً جيداً . سالو ستينيو مكسير يكيرو يكاد لا يتحرك ، بل يروّح عن نفسه متنهّداً . بورينيا كانت جميلة جداً ، جميلة مع ميل إلى النحافة ، وليست مثل أختها لولينيا زوجِ آفوتو التي كانت جميلة على الطريقة القوية . هنا ، في البلد نساء كثيرات جميلات من الصنفين كليهما . لولينيا سحقها ثور بحصرها بالجدار . خوليان بكسرولو كان يُلقّب بـ كسياو . زوجُه صاحبة معمل الساعات في تشنتادا ، والمسماة بيلار موره بيرناس ، كانت تصبغ شعرها بلون أشقر وكان يناسبها لأنها سمينة قليلاً ، وتستخدم مستحضر الكتشولين ، وكان عليها أن تذرّ بودرة التالك فوقه كيلا يلتصق بالجلد الذي كان رطباً قليلاً

دائماً بالطبع ، لأن الكتشولين يُحدث في الوجه ثقوباً صغيرة ، زوج بيلار الأول كان غيوراً جداً ، وما كان يسمح لها بأن تصبغ شعرها أو تضع الكتشولين .

ـ كلا! كلا! امرأة محترمة يجب أن تكون على طبيعتها . فإذا بدأتْ بصبغ الشعر ووضع الكتشولين ، لا يُعرف إلى أين تنتهي .

ـ لكنّ أختي ميلاغروس تضعه أيضاً ، يا رجل!

ـ هذا شأن يخصّ زوجها . لا يعنيني في شيء ما تصنعه أختك ميلاغروس ، بل أُعنى بما تصنعينه أنت .

لما مات أوربانو دابيناس زوجُ بيلار الأوّل بسبب قولنج معوي جعله يتقيأ مواد برازية ، تنفّست الصعداء الأرمل حديثاً . بعض الموتى يحمل غيابُهم راحةً كبيرة إلى عائلاتهم . أوربانيتو الذي شهد موت أبيه ، اختبأ وراء الستائر ليرى كل شيء جيداً ، وسأل أمه :

ـ ماما ، ماما ، لماذا يخرأ أبي من فمه ؟

ما إن انقضى الأجل الذي يحدّده القانون ، حتى تزوّجت بيلار مورهِ ببكسرولو .

ـ ألن تُرضعيني ثدييك ، يابيلارين ؟

ـ ما تأمر به ، يا مليكي . أنت تعلم أنني ملك يمينك ، والآن نحتاج إلى إتمام بعض الأوراق فقط . لكن ثدييَ وجسدي كله لك .

ـ عظيم!

صبغت بيلارين شعرها بلون أشقر ، واشترت كتشولين قبل أن تعقد

زواجها الثاني . بعض الأشياء ، خاصةً الحميمة منها ، لا دخل ولا خرج للمشرّع فيها . توفي أوربانيتو لما وُلد أخوه الثاني من أمه . ذلك بأن أمه وزوجها الجديد لم يضيعا وقتاً طويلاً ، مات أوربانيتو بفقر الدم ، وكان يعاني من هبوط في لوح الكتف مُذْ كان صغيراً جداً ، ولم ينفعه شيئاً إطعامُه أزهارَ إكليل الجبل مع خبز الذرة والقمل الذي كانت ترعاه أمه .

ـ وأي شيء لا تصنعه المرأة من أجل ابنها ؟

ـ نعم ؛ هذه حقيقة أيضاً .

بيلار مورهِ ، كانت تلد ولادة طبيعية سهلة ودون عناء كبير .

ـ لا ينبغي لنا تضخيمُ عملية الولادة . النساء خُلقن من أجل ذلك ، من أجل جلب أولاد إلى الدنيا . المسألة ليس لها أهمية كبرى .

القدّيس فرناندِس لم يكن قدّيساً ، وإنما طوباوي . قريبي القديس فرناندس وُلِد في موئيره ، خورنية سانتا ماريا ديكربيبدا على أطراف بينيور ، يوم عيد الحواري عام ١٨٠٨ بُعيد تخلّي كارلوس الرابع عن تاج إسبانيا . موسوعة إسباسا تقول إنه ولد في ثيا في مقاطعة ليون . لكن ذلك غير صحيح . السيد مودِسْتو فرناندس غونثالث الذي يُوقّع باسم كاميلو ديثيلا ، جعله في المادة المخصّصة له من مواليد كربيّيدا ده آبيا ، وهو غير مصيب أيضاً ، كربيبدا ده آبيا هي قرب ريبدابيا . وهي بعيدة جداً عن هنا . كان القديس فرناندس ابنَ أحد أجدادي ، دون بينيتو/ طبيب/ ، ودونيا ماريا بنتيا/صاحبة أملاك/ اللذين تزوجا في ٢٦ إيار ١٧٩٤ ، العام الذي أُعدم فيه لويس السادس عشر في فرنسا . موسوعة إسباسا تخطئ أيضاً حين تسميه الأخ خوان سنتياغو . بل كان الأخَ خوان خاكوبو (جان جاك) ، وهو أمر واحد لكنه مختلف ، اسم أطلقه عليه أبوه تكريماً لروسو ، لأن جدي

البعيدَ كان موسوعياً ، ووُجِدت في بيته ثماني أو عشرُ رسائل لدالمبير ، وثلاث أو أربع أخر لديدرو إلى أن أحرقتها خالتاي خيسوسا وإيميليتا عند بدء الحرب الأهلية ، لأن الأب سَنْتِستِبان خ . س ، وهو قديس حقيقي ، قال لهما إن هذين المذكورين هرطقيّان كافران ونصحهما بتدمير الرسائل تطهيراً لضميريهما على خير ما يكون .

ـ العدوّ اللدود يلجأ إلى ألف حيلة ليحثّنا على الرذيلة ويبعدنا عن الصراط المستقيم .

ـ نعم ، يا أبانا .

ـ فوق ذلك ، لاحظت أن هذه الرسائلَ مكتوبةٌ بالفرنسية . أَبْعِدا عنكما إمكانيّة الخطيئة .

ـ نعم ، يا أبانا .

استنشق الأب سنتستبان خ . س ، نشقة من السعوط ، فعطس ثلاث مرات : يسوع ، يسوع ، يسوع ، رنّت كالرعد وتذوّق آخر جرعة من شراب قشرة الكاكاو ، وسوّى معطفه بحركة خبيرة جداً ، واتّخذ مظهر خطيب جليل بليغ محترم .

ـ ألقيا بها إلى النار!

ـ أي منها ، يا أبانا ؟

ـ كلها .

ـ ماتراه ، يا أبانا!

تنبّأ رجل الدين الجليل الدومنيكاني السنتدوري المحترم ، الأب دانييل

أبيانوسا الواعظ العام وعضو الجمعية الجغرافية ، بأن الرقم ٢٥٨٨٨ سيكون ، كما حدث بالفعل ، رقمَ الجائزة الكبرى في يانصيب عيد الميلاد . لما نظف ريموندو كسندولفس من حشرة القمقام[1] ، تنهَدت الآنسة رامونا بارتياح .

ـ ظننت أنك أصبحت لا تحبني ، يا ريموندينيو . فكرت أني صرت لا أعجبك . ما أسوأ هذه الأيام الأخيرة التي جعلتني أقضيها بقلق!

ـ كلا ، يا مغفلة! ذلك بأني أعاني من مشاكل وهموم .

ـ ألا تستطيع أن تقولها لي ؟

ـ لا! هذه ليست شؤوناً نسائية ، لذلك لا تستطيعين فهمها .

ـ أفيها شيء من السياسة ؟

ـ دعينا من هذا . المهم أننا صرنا مرة أخرى معاً .

آدغا تعلم حق العلم تاريخ آل غوكسينده الذين يسميهم بعضهم آل موران . وهو أمر واحد تقريباً . قريبُك القديس فرناندس كان أخ جد جدتك روسا . استُشهِد قريبُك القديس فرناندس على يدي الكفّار في دمشق ، ألقي به من أعلى برج الأجراس ، ونازع ساعاتٍ حتى مات . قريبك القديس فرناندس مات معترفاً بالدين الكاثوليكي ، وكان الكفار يقولون له : أنكر دينك ، أيها الكلب المسيحي! وكان يجيبهم : هو لا يخرج من صفني ، ديني هو الدين الصحيح . كان قريبك القديس فرناندس هادئ الطباع جداً دائماً . قريبك القديس فرناندس كان له عدد من الأبناء قبل أن يُصبح شهيداً . يقال كانوا أحد عشر ابناً ، كلما جاء إسبانيا كانت تحبل منه امرأة ما . ولتمييز

---

(١) ضرب من القمل شديد التشبث بأصول الشعر

أبنائه الواحد عن الآخر ، كان يَسِمُهم ، كلما احتاج إلى ذلك ، تحت الحُليمة اليسرى بخاتم من حديد يحمّيه في النار . أتذكر جيداً أحدهم ، وهو الأصغر بينهم ، والمدعو فورتوناتو رامون ماريا رِه . وضعه قريبك القديس فرناندس في بيت للقطاء في سنتياغو مقابل كمية من النقود موزّعةٍ على عدد أيام السنة كيما تربيّه صاحبة المحل . فورتوناتو جلبه إلى أورينسه سيد يدعى بِدْرو من جبال بياريس ، جلبه إلى قرية لا أتذكر إن كانت تسمى مورا أو لواردا ، ذلك بعد أن لبىّ أبوه نداء ربه . ترك الصبيّ سنتياغو باسم فورتوناتو رامون ماريّا ره ، لكنه نشأ تحت اسم رامون إيغْلِسْياس ، وأضاع بذلك ، إرْثاً يقدّر بمليون بيزيته ، خلّفه له والده القديس فرناندس ، ليحصل عليه حين يبلغ سن الرشد . في مسائل الإرث ، كان أقرباؤك غافلين جداً دائماً ؛ بالطبع بعضهم أكثر غفلة من بعض .

كان الخال كليتو يعني بصحته جداً ، وكان موسوساً ويقضي نهاره بفرك يديه بالكحول ، وكانت أصابع يديه غضّة .

ـ وماذا يكلّفنا إذا حافظنا على بعض القواعد الأساسية ؟

ـ أي ، نعم ، هذا حق .

الخال كليتو يلبس قفازين دائماً ، حتى حينما يعزف الجاز ، ويرش داخلهما بمسحوق سيروفورم كيلا يلتصقا بأصابعه متى عرق .

ـ نعيش مُحاطين بالعفن ، وواجبنا أن نقي أنفسنا من الأوبئة التي تكمن لنا كالكوليرا ، والجذام والكزاز والرعام ، ولِمَ الاستطراد ؟

الخال كليتو يتبرّز في الهواء الطَلْق ووجههُ إلى الريح ، (حين يبصق يفعل عكس ذلك) ، وينظّف مؤخرته بأطرى أوراق قلب خسة قطفت حديثاً .

ـ هي ضئيلة جداً كل الاحتياطات التي تتخذها .

ـ ربما .

الخالتان خيسوسا وإيميليتا تصليان صلاتهما كاملة ، صلاة ذات خمسة عشر سراً ، ثم تغفوان من الضجَر . الخالتان خيسوسا وإيميليتا تضجران كمحارتين ، وهما أيضاً شبه مخدّرتين . تسليتُهما الوحيدة النادرة هي التفكير في الشرّ الذي يقابلهما به الخال كليتو . آخر الأمر ، هذا شأنه! هو من سيهلك!

الخالة خيسوسا والخالة إيميليتا تتكلّمان بصوت كصوت ناي الكنيسة ، وتبدوان على وشك أن تباشرا رياضتهما الروحية .

ـ سيحاسب الله أخانا المسكين حساباً عسيراً يوم القيامة .

ـ لكننا جميعاً ، سنجد أنفسنا إلى هذا الحدّ أو ذاك ، في ضيق ، تلك اللحظة .

ـ من أجل ذلك ، يجب علينا أن نعدّ أنفسنا لموت هانئ مريح . كاميليتو أنت لا تقوم بالاعتراف . تذكّر أفليتا التي ماتت فجأة دون اعتراف .

ـ كلا! كلا! لا تهتمي يا خالتي . أنا متنبّه جيداً .

الخالتان لا تعرفان بيبينيو أكسوريلو ، بل تسمعان به ، لكنهما لا تعرفانه . بعض الأشخاص يجلبون الانتباه إليهم في حياتهم ، وإن لم يريدوا ، وبعضهم لا يأبه بهم أحد مهما جهدوا . كونتشا داكونا تصبح كل يوم أكثر جمالاً وفرحاً ، لأن النساء الشابات تزداد أجسامهن أَلَقاً حين يترمّلن . الطبيعة حكيمة جداً ، وتجلو في العادة ألم السخرية كيما

تسمح لنا بمتابعة حياتنا . كونتشا داكونا تدقّ الصناجات بمهارة غجرية .

ـ أين تعلّمته ؟

ـ في بيتي ، وبشيء من الصبر . قرع الصناجات هو كالتنفس ، يخرج في النهاية من تلقاء ذاته .

كونتشا داكونا تغني أغاني بذوق وصوت جميل . كونتشا داكونا هي آلة حية ، على العكس من بيبينيو أكسوريلو الذي هو آلة للموت ، هناك أشياء لا ضابط يضبطها ضبطاً حسناً . كان لكونتشا داكونا نظرة أبيّة جريئة ، ويرجّح أنها بنت كونت أو جنرال . دمُ العائلات التي أتى عليها حين من الدهر وهي تأكل طعاماً ساخناً ، هو شيء لا يمكن إخفاؤه . كونتشا داكونا تنام منبسطة الجسم ، وهذه علامة أخرى من علامات الثقة .

ـ اتنبّهت إلى أن شعرها كالحرير ، ويتأرجح قليلاً ؟ لو أن كونتشا داكونا تلقّت تعليماً ، لاستطاعت أن تبلغ مقاماً رفيعاً ، أن تصبح ربّة فندق ، أو مزيّنة ، أو صاحبة محل تجاري ، أو أي شيء مشابه لذلك . لكن كونتشا داكونا لا تعرف القراءة ولا الكتابة ، ويجب عليها أن تصطبر .

ـ صبراً ، يا أختاه ، صبراً!

ـ نعم ، الصبر والصحة كيما نظل نتخبّط في دروب الحياة .

كانت كونتشا داكونا خلال فترة قضتها في مدن بعيدة ، (بلد الوليد ، بيلباو ، وسرقسطة) نموذجاً لرسام ، لكنها تركته لأنها تلقّت برداً كثيراً دون أن تخرج من دائرة الفقر ، وليس مجزياً أن تتعرّى المرأة من أجل ذلك .

ـ وفوق ذلك ، يبعث على الغضب أن يُنظر إليها كأنها مشجب .

كان للخالة خيسوسا خطيب صيدلاني لم ينهِ دراسته حتى ذلك الحين . كان يحتاج إلى النجاح في مادتين دراسيّتين ، وكان يدعى ريكاردو باثكيث بيلارينيو ومات في الحرب ، إذْ انضمّ إلى فرقة الرايات الغليشية ، وقُتِل يوم رأس سنة ١٩٣٨ في تِرْويل ، في ذات الوقت الذي قُتل فيه رئيسُه المقدم بارخا ديكيروغا . والخالة إيميليتا كان لها خطيبٌ أيضاً يدعى ثِلْسو باريلا فرناندس ، تاجر آلات ثم تحوّل عنها إلى ممثّلة كوميدية ، وكانت الخالة إيميليتا تعذره .

ـ هي جرذ كبير ، جرذ حقيقي . إزاء أولئك النساء لا يملك الرجل أدنى دفاع . ثلسو كان طيّباً جداً ، لكنّ هذه الصعلوكة الخبيثة خدعته بفنونها وآلاعيبها . يا للمسكين ثلسينيو!

كل ما قِيل منذ قليل لا صحّة له ، لأن الخالة خيسوسا والخالة إيميليتا لم يكن لهما خطيبان قطّ ، إذْ اتّخذتا منذ شبابهما الباكر مظهر قديستين جافيتين .

وقف روبين لبوثان أمام المرآة وقال بزيف محسوب جداً .

ـ سأقول دائماً كان لهما خطيبان ، أنا بارّ جداً ولا أريد أن أغيّر سلوكي ؛ لكن الخالتين خيسوسا وإيميليتا كانا بإمكانهما أن يكونا أمّيْ طالب الصيدلة وتاجر الآلات . ولست أبالي إن اختلط الأمر على الناس . أنا أريد الوفاء بما يمليه عليّ ضميري .

ثلستينو كاروتشا ، أو دون ثلستينو خوري سان ميغيل ديتابو آديلا ، كان على علاقة بماريكا روبيراس بنت تونوس ، وهي شابة متزوجة وذات

منظر حسن . هي من قرية مِنغاربيس ، ويضع زوجها قرنين دون كرامة . دون ثلستينو يلتقي بماريكا في برج الأجراس ، وهو مكان غيرُ مريح لكنه هادئ .

ـ ومهوى ؟

ـ نعم ، ومهوى أيضاً .

سانتوس كوفورا ، الملقب بـ لنيتون في الثانية والسبعين من عمره ، ووزنه عشر أرّوبات على الأقل حسب القبّان الرمّاني[١] ، كان يزعم أن امرأته ماريكا روبيراس التي لم تبلغ العشرين كانت تحافظ على الأمانة الزوجية .

ـ ما هذا الهراء ؟

ـ لا أعلم ماذا أقول لك ، يا رجل . لا يمكن الاستناد إلى المزاعم والظنون .

ما كان لنيتون يرغب في إثارة فضيحة ولا في فراق دوروتيا . لكنه كان يغلي غضباً حتى ما كان يعرف كيف يفكر ليثأر .

ـ هذا الكاهن اللعين سيدفع الثمن . كما الله موجود ، سأجعله يدفع الثمن .

عائلات بينيور كَنَسَتْهم مكنسةُ الزمن التي لا تسأم من حصد الأموات . عميّ كلوديو مونتِنِغْرو التقيّ مات عجوزاً قبيل نهاية الحرب . كان رجلاً ظريفاً وما كان يقطّب وجهه أبداً ، ولا يرفع صوته ، وما كان يدهش لشيء ، لا للخسوف ولا لفجر قطبيّ ، (خلال الحرب حدثت ظاهرة فجر قطبي) . لما قيل له إن لنيتون قصد أورينسه ليلتقط حشرة القمقام

(١) Romana : الكلمة من مصدر عربي ويقصد بها القبان ذو الذراع الطويلة المقسمة أقساماً يُنقل عليها جسم ثقيل يسمى الرمّانة لتعيين ورن ما يوزن (المترجم ، نقلاً عن المعجم الوسيط)

لينتقم بها من رجل الدين كاروتشا ، وجد هذا التصرّف طبيعياً للغاية .

ـ ذلك أن هذا العام عام حشرة القمقام . أبراج الأجراس موبوءة بهذه الحشرة . حمانا الله منها!

الجدة تيريسيا لها أختان : مانويلا وبيبا ، وأخ واحد : مانويل . تيريسا فرناندس ، أو بينوكسا ، التي كانت تعيش مع أبيها الأعمى كانت بنت مانويلا . وكلوديو أوتيرو ، أو رِسِيِّترا ، وأخوه مانويل ، أو كورتادور ، كانا ابني بيبا . الخال كلوديو كان أباً لابنتين عمياوين ومنكودتي الحظ جداً . عاش الخال مانولو أكثرمن نصف حياته سكران ، ولما مات وُجد عنده ما يزيد على مائتي قميص جديدة ، كان يرسلها إليه ابنُه مانوليتو الذي كان صاحب تجارة في مونتبيديو . مانويلا فرناندس ، أو مورانا ، كانت بنت مانويل ، وكانت تحبنا حبّاً جمّاً ، لأن الجدة أعفتها من دين ما ، على الأرجح ، كان ريعَ عقد انتفاع . العائلات كالأنهار لا تكلّ أبداً من الجريان والجريان .

الجدة تريسيا كانت بنت أخت القديس فرناندس . فورتوناتو رامون ماريّا رِه ، أو الابن غير الشرعي للقديس فرناندس الذي عاش في وقت لاحق تحت اسم رامون إيغلِسياس ، تزوج بنيكولاس بيريث ، وكان له سبعة أبناء : أنطونيو الذي تزوج في كوبا بخوسيفا بَرّيرا ، ابنه خوسيه رامون يعيش في نيويورك ؛ هورتنسيا التي تزوجت في كوبابخو ليو فوينتس ، أبناؤها ديليا ، وماروخا ، وفرنسيسكو يعيشون في نيويورك ؛ مرتيدس التي تزوجت أول مرة بإيلْدِ فونسو فرناندس ، ثم بخوسيه أوتيدا في زواج ثان ؛ من الزوج الأول لها ولد ، خوليو الذي يعيش في بيغو ومتزوج بدولوريس راموس (لَه ولدان ، ألفونسو المتزوج بكونثبثيون التي لا أذكر كنيتها ،

يعيش في برشلونة ، ثم مِرْثيديس المتزوجة بمكسيمينيو لاغو الذي يعيش في بيغو) ، ومن الزوج الثاني لها خمسة أبناء آخرين : ماروخا المتزوجة بخُوسْتو نونييث تعيش في أورينسه (لها ولدان : خوستو وخورخه اللذان يعيشان في مدريد) ، أنطونيو المتزوج بأورورا ديل ريّو يعيش في أورينسه (له ولدان : خوسِه لويس المتزوج بماريا لويسا غونثالث ، وروبيرتو المتزوج بإليسا كامبا) ، ماتيلده المتزوجة برامون آلونسو (لها ولدان ، كارلوس المتزوج ببيلار خيمينيث ، وألبارو ، عازب) ، خوسِه ، عازب ويعيش في مدريد ، ورامون متزوج بنييبيس بيريرا ويعيش في لاكورونيا . حفيد القديس فرناندس ، الرابع هو ثيسار المتزوج بسارا كَرْبايّو متوفيان كلاهما ، كان له ابن يسمى ثيسار وهو الوحيد الذي يحمل كنية رِه ، أمّا الآخرون فكانو جميعاً يُكنَّون بإيغلِسياس . ثيسار متزوج ببنيغنا التي لا أتذكر كنيتها أيضاً وله ابنتان اثنتان : لوردِس وآكيل . سيغه أورينتينو المتزوج بلويسا نوبوا له ابنتان : كارمن متزوجة بآدولفو تشامورّو ، وبيلا متزوجة بفرنسيسكو سوبرو . الابن ما قبل الأخير هو ماري أرملة خوسِه دورّيبو ولها خمسة أبناء ، آنخِلينيس ، متزوجة بخوسه رودريغيث ، رفائيل متزوج بأورورا بيريث ، أولاليا ، عانس ، لويسا متزوجة بسيرافين فيرّيرو ، وسارا متزوجة بأرتورو كاساريس . والصغرى هيمينيا ، أرملة كانديدو بَلْكارثِل ولها أربعة أبناء ، أنطونيو متزوج بدولورِس دوكامبو ، وماريا ديل بيلار ، وماتيلده ، وأنطونيو وهم عزّاب جميعاً . العائلات كالبحرالذي لا ينتهي أبداً وليس له بداية ولا نهاية .

تمطر على العائلات وعلى الأشخاص والحيوانات الأليفة والبرية ، على الرجال وعلى النساء والآباء والأبناء ؛ الأصحّاء والمرضى والمدفونين والمنفيين والمسافرين ، تمطر كما يجري الدم في العروق . تمطر كما

ينبت الرَّتَم والذرة ، وكما يسعى رجل وراء امرأة إلى أن يتعبها ، أو يقتلها من الضجر والحب أو الحرارة . على الأرجح ، المطر إله يريد أن يرقب الناس عن كَثَب ، لكنّ هذا الأمر لا يعرفه أحد . خرج بيبينيو أكسوريلو من المصحّ العقلي بفضل مساعي طبيب ومحامٍ وقاضٍ ، من المعلوم أن الشبان يميلون إلى التجريب والنظريات التي تربط بين السلوك البشري والهرمونات .

ـ وهذا كيف يكون ؟

ـ لست أدري . أنا أقتصر على تسجيل ما قيل لي .

سأل الطبيب والمحامي والقاضي بيبينيو أكسوريلو إن كان يَسمح لهم بخصيه (من ينزعِ الخصيتين ، يزلِ الخطر) ، وقال هو نعم ، وأن إزالة الخصيتين لا يثقل عليه في شيء ، الأطبّاء والمحامون والقضاة يسمّون ذلك إلغاء الذكورة .

ـ أو لم يقولوا لك شيئاً عن عملية الاستقلاب ، ونقص الكلس المتفاقم والمؤلم .

ـ ربما ، لا أتذكر جيداً .

بعضهم يموت بطريقة ، وبعضهم الآخر يموت بطريقة أخرى مختلفة ، في الحرب وفي السلم ، بالمرض أو بحادثة ، أو بسبب الإهمال . لا توجد قاعدة ثابتة ، ولا يُسمح بالاختيار أيضاً ، ولا يمكن تعميم قاعدة معينة . هناك رجال يموتون وهم يدافعون ببطولة عن حصن رافعين الراية وصائحين بشعارات وطنية . لكن هناك من يتوقّف قلبُه وهو يستمني وذهنُه مزروع بالأوهام . لا يوجد في بلدي صبّار تلك النبتة الهرطقية الخاصة بأرض المغرب

حيث الجلابيات والتين الشوكي ، والحمير والضّباب والماعز والغبار ، نعم الغبار الكثير ، ولا جدوى من مجيء المرء إلى هنا كيما يموت . أفراد قبيلة تَفَرسيت شبه لوطيين ، أو هم لوطيون حقاً ، النتيجة واحدة عندهم . لاثرو كودسال كان له عينان زرقاوان وشعر بلون الفلفل . لاثرو كودسال يستمني تاركاً آدغا تطير عارية ـ ما شاء الله ـ داخل رأسه . تلك عادته ، ولا شيء خير من سنّ الشباب للاستمناء مستذكراً . كان مؤسفاً أن يموت لاثرو كودسال . بعض الموتى يثيرون من الحزن أكثر مما يثيره آخرون ، بل إن بعضهم يثير الفرح أيضاً . آل كرّوبو لهم بقعة جافّة من جلد الخنزير في جباههم ، هي كالعلامة التي يُوسم بها القطيعُ الذي يجتر العشب السام .

ـ أتستطيعين تمييز الأعشاب السامّة ؟ .

ـ نعم ، يا سيدي ، أميزّها بالرائحة وباللون ، وبعضها يُميز بالصوت أيضاً ، أي بالضوضاء التي تحدثها حين تضربها الريح .

غوريتشو تونداس يقصد الجبل حاملاً تابوتاً على كتفيه ومعه صفيحة من البترول وكيس من نشارة الخشب .

ـ إلى أين أنت ذاهب ، يا غوريتشو ؟

ـ إلى الجبل لأدفنَ روح القدس .

ـ يا إلهي! ما هذا الهراء!

ـ حسن! سترى ذلك حين يجيء الليل .

وحين يجيء الليل ، يبحث غوريتشو عن مكان مريح ، عن كهف مملوء بالسرخس لا تزال آثار ثعلبة واضحة به . دخل التابوت وغطّى نفسه بالنشارة وسكب البترول فوقها ، سكبه جيداً ، وأضرم فيها النار بعود

ثقاب . ومات منكمشاً ، لكن دون أن يفتح فمه ، وعُلم أن روح القدس أمدّه بالقوى . عثرت عليه كونتشا داكونا التي كانت تسير في الجبل ناصبة فخاخاً للأرانب .

ـ وكيف كان ؟

ـ كان جميلاً... ، انظر ، كان محترقاً جداً ، لكنه كان جميلاً .

حادثة غوريتشو توندا لهج بها الناس جميعاً .

ـ لا يعرف الناس ماذا يصنعون كيما يلفتوا إليهم الانتباه .

الإنسان حيوان غريب الأطوار ، يصنع الأشياء معكوسة ، حيوان يجلب الأضداد إلى نفسه منذ أن يُولد . أتعجبك تلك المرأة الناحلة ذات الجدائل ، الذاهبة لتستحم في النهر ؟ نعم ؟ إذاً ، تزوجها ، تدركْ معنى تحمل امرأة ضروط ، النساء يصبحن ضروطات بعد الزواج ، أو بُعيد الزواج . ولا يعرف السبب أحد ، يرجّح أنه قانون من قوانين الطبيعة . أتعجبك تلك المرأة الممتلئة الجسم ذات المنديل الأخضر ، الذاهبة إلى الدكّان لشراء فلفل ؟ نعم ؟ إذاً اقتلها بخرطوشة من الخردق ، أو انطلق هارباً كروح يحملها الشيطان ولا تنتظر حتى تلتصق بك كالمحارة . أو كحشرة القمقام ؟ نعم ، كالقمقام أيضاً . هذا العام عام هذه الحشرة . ألا تكون عناكب ؟ لا ، يا امرأة ، يبدو أنك غبية ، ما شأن العناكب هنا ؟ واضح جداً أنها قمقام . أتعجبك تلك المرأة السمراء ذات التنّورة الفضفاضة وتحمل جرّة حليب على رأسها ؟ نعم ؟ إذاً ، اهرب منها ، على الأرجح ، هي عشّ عقارب . الإنسان دابّة غريبة تخبط خبط عشواء . لاثرو كودسال قُتِل غدراً دون أن يُترك له مفرّ ، قَتْلُ شابٍ يستمني بهدوء تحت تينة هو فعل لا يمكن وصفه ، لا ينبغي لرجل أن يصنع هذا الصنع . الحرب هي الحرب . نعم ، هذا صحيح

ونعلمه جميعاً . لكن ، لا يمكن في الحرب إطلاقُ النار على الهدف . هذه خسّة . ولا إطلاق النار في الظهر . لم تُطلق جثّة من الروائح الكريهة كما أطلقت جثة خيسوس مَنْثَنيدو . ذلك عقاب عادل عاقبه به الله . سكب عليه أبناؤه ماء الكولونيا ، لكن ، دون جدوى .

ـ ألن تسير في جنازة دون خيسوس ؟

ـ لا! أعتقد أن من الخير ألا تنجو روحه التي تفوح منها رائحة جيفة قوية .

تاجر الآلات ثِلْسو باريلا يتناول مشروب البرموث كل صباح في مقهى بِلْبائينا . ويقصد أحياناً حانة سوبريورا . وقد انتهت علاقته بماروخيتا منذ فترة ، وإن يزعم أنه عاد إليها . وُجِد قتيلان بالرصاص على سطيحة مقهى بلبائينا قبل بدء الحرب الأهلية بشهر ، أو بشهر ونصف الشهر . في أثناء الدفن عُثِر على قتيلين آخرين وأوقفت السلطات احتفالات عيد الجسد . كانت النفوس مهتاجة ، وكان الناس يشتبكون مع بعضهم بعضاً بالصياح والعصيّ ، وبإطلاق النار أيضاً .

ماروخا بوديلون ألباريس ، أو ماروخيتا ، وهي ليونية من بونفِرّادا ، كانت الممثِّلة التي أبعدت ثلسو باريلا عن الخالة إيميليتا . حسن ، ممثلة كوميدية لم تكنْ ، لكنها كانت تشبه الممثلات . أراد ثلسو باريلا أن يعيد صلته بالخالة إيميليتا ، لكن ، قد كان فات الأوان ، ولم يتسنَّ له ذلك . هذه أشياء تبرد بمرور الوقت ، وحين تنهارُ يصبح صعباً جداً أن تنهضَ مرة أخرى .

ـ لا! لا! أنا سأظلّ إلى جانب أختي خيسوسا . لقد كرّست حياتي للعبادة والإحسان .

ـ حسن! كما تشائين .

بلدوميرو ماربيس ، أو آفوتو ، في جبهته نجمةٌ صغيرة لا يراها الناس جميعاً ، لكنها موجودة . النجمة التي يحملها آفوتو في جبينه تغيّر لونَها حسب الأحوال : أحياناً تكون حمراء كالياقوت ، وأحياناً أخرى ذهبية كالتوباز ، ومرّة تكون خضراء كالزمرّد ، ومرة أخرى بيضاء كالماس ، وهكذا دواليك . حين تتّقد النجمة في جبين آفوتو ، لا يهم أي لون تتخذ . أحياناً تصبح بلون ، وأحياناً أخرى بلون آخر . هذا الأمر لا يعرفه أحد ، بل يُفضَّل أن يرسُمَ المرءُ شارةَ الصليب ويتنحّى جانباً . آفوتو كان صاحبَ الأمر في آل غاموثو الذين هم سحابة ، وفي آل غوكسينده (بعضهم يسميهم آل موران) الذين يفوقون الأوّلين عدداً . لو لم تنقلبْ أمور العالم ، ما كان أحد ليتحرّكَ في الجبل دون إذنٍ من آفوتو . امّحى حرفُ آخر جبل لما قُتِل لاثرو كودسال ، لكنّ الأشياء انقلبتْ رأساً على عقب ؛ وأودى بحياة آفوتو شقيٌّ من عائلة جاءت من الخارج ، شقيٌّ يموت جوعاً . يوم انطفأت نجمة آفوتو استغلّ الشيطان المناسبة لقتله غدراً . في هذا الجبل ، لا يمكنُ القتلُ مجاناً . من يقتلْ هنا ، يُقْتَلْ ، ولو تأخّر قتلُه أحياناً ، لكنه في النهاية يُقتل . ألم يَقتلْ ؟ إذاً ، فليُقْتَل . ولا يوجد داعٍ يدعونا للصفح عمّن أهدر الدم . لولينيا موسكوسو جميلة من طراز وحشيّ ، وهي إذا تغضب ، تزداد جمالاً . وما كان آفوتو ليُقتلَ إلا غدْراً وبليل . إذْ لا تمكن مواجهة آفوتو لأن له نظرةً شديدةَ الوطأةِ ، له نظرةُ ذئب . آفوتو قتله قاتلٌ قتيل لا يرغب أحد في أن يتذكّره ، بعضهم لا يذكر اسمَه أملاً في أن يُنسى شيئاً فشيئاً . القاتل القتيل الذي قتل آفوتو ، قتل زوجَ آدغا أيضاً وعشراً أو اثني عشر آخرين . القتيل الذي قتل آفوتو حصره أحد أقاربي ومات كحصان عجوز عند غدير داس بوثاس ديغاغو . حين تهاجم الذئاب الأفراسَ تشكّل هذه حلقةً ورؤوسُها

باتجاه الداخل ، وهكذا تحمي مهارها على شكل حسن ، وتتلقى الذئاب بالرفس ، وإذا ما أصابت أحداً منها إصابة مُحكمةً فلقَتْ بطنَه . الحصان الوحشي المُزاحُ عن قيادة القطيع يصبح دون دفاع ، وليس لديه قوى ليدافع عن نفسه ، فتغلبه الذئاب ، وتلقي به أرضاً ثم تلتهمه . ما يعافه الذئبُ يذهب للثعلب ، وما يفضُل عن الثعلب يصلحُ للغربان ، وهي حيوانات ذات نمط واحد لاشِية فيه . بعض الغربان تصفر لحناً بصوت جميل . منذ بضع سنين ، أي أثناء ديكتاتورية بريمو ديريبيرا ، كان أحد الجمهوريين في ألباريس يعلّم الغربان أن تصفر بالمارسييز . على الأرجح كان يصنع ذلك ليغضب الخوري . كان يدعى ليونثيو كوتيلو شقيق الأعمى أولاليو الطويل والنحيل كأنه سبطانة بندقية ، والمنقوش وجهه بالجدري ، الذي يعزف للسيدات في المهرجانات الدينية ؛ وإذ كان لا يرى ، فكان يهتدي بالرائحة وكان لا يخطئ أبداً . ريكاردو باركيث بيلارينيو مات في الحرب بطلقة في صدره ، (هكذا يُزعم) . وهذا ما تجلبه الحروب . كان يهيمن على هذه الجبال المجرم مانويل بلانكو روماسانتا الرجلُ الذئبُ الذي قتل دستة من الأشخاص عضّاً . فليبينيو ، أو تاتيلو الأعور الذي له ستة أصابع في كلتا يديه ، كان يعرف القصة جيداً ،

كان للمجرم رفيقان من بلنسية : دون خينارو ودون أنطونيو اللذان كانا يشبهان الذئب حين يفقدان الرشد . هذه الأحداث جرت منذ سنين بعيدة . منذ مائة عام ونيف ؛ لكن كل الناس يعرفونها هاهنا . قتل المجرم ثلاثة عشر شخصاً عضاً ونهشاً ، وهم تسع نساء وأربعة رجال . ليلة أثار فيها القمر غريزته الذئبية ، قتل منويلينيا غارثيا امرأة كان له منها ابن ، كان يقود منويلينيا إلى سنتندير البعيدة جداً والواقعة على بحر قشتالة ليشغّلها خادماً في بيت أحد رجال الدين . ولكنه في المكان المسمّى مايا

ديبيلا ، عند غابة ريدونديلا ثار ثائرُه ، فقتل الاثنين معاً ، والتهم أيضاً نصف جسميهما ثم ظل هادئاً لفترة معينة ، هادئاً وشارداً إلى أن فقد رشده مرة أخرى فقتل بينيثينيا غارثيا ، أخت منويلينيا ، وابنها فرّوكينيو الذي كان لا يزال رضيعاً وله طعم سمكة ، قتلهما في كورغو ديبوي التي تقع فيما وراء آرّواس قبيل ترنسبيرلوس . لم يكن المجرم كبيرَ الحجم جداً ، بل كان أميلَ إلى القصر ، وفوق ذلك ، كانت أسنانه نخِرة . قام المجرم بقتل مزيد من البشر : خوسيفا غارثيا ، كانت أخت منويلينيا وبينيتينيا ، مصّ دمَها ودم ابنها خوسيسينيو في طريق كورّيتشوسو . ثم قتل تونينيا وابنتيها بِرْغرينا وماريكا في ريبور ديشاو ، تونينيا أحبّها القاتل جداً ، بل كان مغرماً بها وكان يكشف لها عن عورته كلما التقى بها في الجبل . وقتل أربعة أخر أيضاً : خيلا ميارادوس التي كانت ترعى الخنازير في تشاغو إسوسو وتشوتشا لومباو ثيلمان التي هاجمها لما وصلت آس ديكسازكِس ، ثم فوكو نابو وهو شابّ كان يصطاد العصافير في برداو آلبار ، وأخيراً بينيثو نيا كَرْدُونيْروس وهي عجوز لا تصلح لشيء .

فيليبينيو ، أو تاتيلو يبتسم شاكراً لكل من يدفع إليه قدحين من الشراب .

ـ جزاك الله خيراً في الحياة الآخرة ، آمين .

تانيس غاموثو كان يُربي كلاباً تشبه الذئاب : قيصر وسلطان وموريتو ، كلاب وحشية قوية يُعتمد عليها ويُمكن للمرء أن يسير بمرافقتها مطمئناً إلى آخر العالم .

ـ بمرافقة هذه الكلاب ، يستطيع المرء أن يسير حتى نهاية الأرض دون

أن يخشى شيئاً أبداً ، إذا كانت أطواقُ هذه الكلاب موضوعةً في أعناقها جيداً ، حتى الأسد لا يستطيع الصمود أمامها .

كلاب تانيس لها وبرٌ كالحرير (الصوف للحملان) ، وهي ذات لون أبيض مشوبٍ ببقع كستنائية في الوجه والعنق . كلاب تانيس من ليون . كلاب غليشية لطيفة وذكية (ككلب القطيع ، وكلب الجبل ، وكلب المتبن ، وكلب الصيد) ، لكنها ليست من سلالة أصيلة كالكلاب الليونية ، بل فيهاتصالبٌ وهجنة متعدّدة .

ـ كم تريد في جَرْوٍ عمرُه تسعة أشهر ؟

ـ لا شيء . أنا لا أبيع كلاباً . إذا أقسمت لي أنك ستُعنى به عناية فائقة ، أقدّمه إليك هدية .

تانيس غاموثو يلقّب ببيريلو لأنه يعمل بسرعة كبيرة ، يبدو كأنه دراجة سواء كان في الخير أم في الشر . روسا روكون زوج تانيس غاموثو والمُدْمنة على شرب اليانسون تقضي نهارها وهي تجرع اليانسون من الإناء . والد روسا روكون يدعى أوتيلو ، أو ثيرولاس ، جمركيّ أفسدُ من عرفته أورينسه بين الرجال . ولا يتذكر أحد رجلاً أسوأ منه .

ـ هذا الرجل ستكون العاقبة عليه وخيمة . وسوف ترى . ذات يوم ، سيُطعن بالحديد في أحد جانبيه دون إنذار .

ـ لا يُوثق به ، ونواياه ليست طيبة . خيرٌ لك أن تدفع له الريال وتنصرف عنه بأسرع ما تستطيع .

العام الماضي ، بصق ثيرولاس في وجه الأعمى غودنثيو في بيت لابرّوتشا لأنه لم يرغب في عزف لحن الماثوركا : صغيرتي ماريان .

ـ أنا أعزف حين أرغب في العزف . يمكنك أن تبصُقَ عليَ ، وأن تضربني ، ذلك أمر هيّن لأني أعمى . أما ما لا تستطيع إرغامي عليه ، فهو أن أعزف قطعةً لا أريد أن أعزفها ولا أرغب فيها . هذه الموسيقى لا يمكن أن يسمعها أيُّ كان . وأنا وحدي أعرف متى يجب أن تُعزف ، وما أريد أن أقول .

مارتا لابورتوغيسا رفضت أن تذهب إلى السرير مع ثيرولاس .

ـ أموت من الجوع ولا اضطجع معه . لِمَ لا تبصق على صهرك تانيس ؟ أتخشى أن يفدغَ رأسك ؟

طردت برّوتشا ثيرولاس إلى الشارع تجنّباً للشجار .

ـ هيا ، انصرف ، قبل أن أطردك أيها المتطفّل . أنت متطفل . عُدْ متى وجدت نفسك صاحياً .

تانيس غاموثو ما كان يضاهيه في قوّته أحد ، وكانت تبعث فيه الضحكَ هذه القوةُ ، وفي صباه كان رعبَ المهرجانات ، ولولا اليانسون لكان سعيداً بزوجه : هي طيبة ومحتشمة ، لكن عيبَها في اليانسون . أولادُه قذرون ، وأحذيتهم بالية . هم خمسة أبناء ينطلقون على طبيعتهم دون رعاية من أحد . ولم يكن تانيس بيريلو نفسه يُعنى بهم أيضاً . همّه كان الغوص مع كاتوكسا بِنْته المغفّلة بنت مرتينيا ، عاريين في بركة طاحونة لوثيو مورو حين يشتدّ الحر ، وينشُدُ الجسد الرطوبة والمتعة الصحية . المغفّلة بنت مارتينا لا تعرف السباحة وغرقت ذات يوم بعد أن ابتلعت ملء ، وعُثِر عليها طافية تحت ظلال السرخس .

ـ كان منظرُها جميلاً . أليس كذلك ؟

ـ لا ، يا رجل! يا للمسكينة كاتوكسا! وأنت ، بماذا أساءت إليك ؟

تانيس غاموثو كان يحبّ أن يتأرجحَ أيضاً ممسكاً بأغصان البلوط ، وبذلك لا يُصاب بالجرب . وكان يرسم دوائر في الهواء بعصا القتال الصلبة جداً والمحفورِ عليها بطرف السكين أحرف اسمه الأول .

ـ أتريد أن أشقّ رأسك كما تُشق شجرة الزعرور ؟

ـ لا تكن مغفلاً ، يا بيريلو ، واترك المزاح .

ـ حسن! أتريد أن أخزك لينفشّ بطنك كما ينفش الدولاب ؟

ـ اسكت ، يا سخيف!

آدغا شاحبة الوجه جداً .

ـ هل أنتِ مريضة ؟

ـ لا! انتظر قليلاً ريثما آتيك بالشراب .

آدغا أمست غيرَ شابة لكنها ماتزال تسير منتصبة القامة .

ـ انظر ، القتيل الذي قتل زوجي لم يجدِ الراحةَ في هذه الحياة ولا في الحياة الآخرة . فالدم يخنق الدم . ونحن ليس لدينا داعٍ لنصفحَ عمّن أهدر الدم . هذا هو قانون الجبل . عائلة القتيل الذي قتل زوجي ليست من أهل البلد . لكنْ ، يعلم الله أنّ الوقت أُتيح لها لتتعلم عادات البلد . الأوراق التي ذُكر فيها أين كانت عائلة مَنْ قتل زوجي ـ أبوه من فونتِبادون على الطريق إلى آستورغا ـ كانت في عُهدة كوغسو ديمارنييس كاتب قاضي كربيينو ، الذي كان يعمل من قبلُ في مكافحة التهريب ، واضطُرّ إلى ترك العمل إثْر معركة مع المهربين في منطقة بونتِبيدرا . وقد سمح لأخي سيكوندينو بسرقتها . أنت تعلم ذلك خيراً مني ، فقد سبق أن قلته لك بوضوح . أنت ، سيد دون كاميلو ، من آل غوكسينده أو موران ،وهما سواء . وهذا له ثمنه

وأعلم ذلك جيداً ، لكن يجب الدفاع عن هذا الاسم أيضاً بالحياة إن اقتضى الحال . ذات يوم ، سأقصّ عليك بشكل أفضل كيف سرقتُ بقايا موتشو خزاه الله . ما أبأس آل كروبو! أتريد كأساً أخرى من الخمر ؟

العلامة الثامنة من علامات ابن القبحة الدنيء الأصل هي القضيب المترهّل المسترخي . وكانت العواهر في محل لابروتشا يسخرن من قضيب فابيان منغيلا .

ـ يبدو مثل قضيب أحد الملائكة الصغار المحيطة بصورة مريم الطاهرة . يبدو مثل قضيب ملاك صغير من تلك الملائكة .

مونتشو ريكيكسو ، أو مونتشو بريغيثاس ، إنسان حالم ، ربما كان فيه كثير من الشعر .

ـ لو شئت ، ارسم لك خنازير بساقي الخشبية . أنا لن يخرج من يدي شيء إرضاءً لسيدة .

مونتشو بريغيثاس يشبه سيداً نبيلاً منكوباً ، أو بطلاً مغواراً لا يُقدّر حقَّ قدره ، أو صار لا تدعو الحاجة إليه . كان الله في عونه!

ـ بنت خالتي خيورخينا كانت قبل أن تترمّل من زوجها الأول المرحوم آدولفيتو ، على علاقة بكارميلو مِنْديث الذي تزوجت به في وقت لاحق ، أو لما استطاعت ، بنتا خالتي خيورخينا وآديلا كانتا دائماً ميّالتين جداً إلى الخطيئة ، لأن الحياة قصيرة ، ولا بدّ من انتهازها . الزوجان الذكر والأنثى من الطائر يسوع الجافي ماتا أثناء عبور البحر الأحمر . أظن ذلك خيراً لهما ، وإلا أكلتهما بنتا خالتي مقليّين لإثارة غضبي ، وإلحاق الضرر بي . نعلم حقاً أن خالتي ميكائيلا أمّ المذكورتين كان تحب اللمس والغمز أيضاً .

وكانت تسمح لي لما كنت صغيراً بأن أدخل يدي من خلال ياقتها وأغمز جسمها ، وأداعب فخذيها ، لكن ، دون أن تخلع سراويلها الداخلية . خالتي ميكائيلا ما كانت تسمح لنفسها بخلع ثيابها الداخلية ، وكانت تشعر بالخوف من ذلك . أيمكنني أن أتناول فنجاناً آخر من القهوة ؟ شكراً جزيلاً . بنتا خالتي ترقصان أحياناً التانغو مع الآنسة رامونا وروسيكلير صاحبة الحقن . وإذا شعرت بنت خالتي خيورخينا بالحرارة تطلب إذناً في أن تتعرّى . أيمكنني خلعُ «البلوزة» ؟ افعلي ما تريدين . أيمكنني خلع ثيابي الداخلية ؟ افعلي ما تريدين . أأعجبك يا مونتشا ؟ اخرسي ، يا عاهرة ، واستلقي على السرير . أأطفئ الضوء ؟ لا! لا تطفئيه .

مونتشو بريغيثاس يجعل صوته حاداً قليلاً حين يحاكي الحوار بين النساء .

ـ ما أغرب النساء! ألا ترى ذلك ، يا سيد ؟

ـ حسب الأحوال ، يا رجل .

في المقبرة يتدفّق ينبوع الماء المعجزة الذي يزيل الصرع دون أن يُضطر المصروع إلى تمزيق ثيابه مزقاً ، هو خير من الماء المبارك في الكنيسة ، لأن الله يباركه قبل أن يخرج من الأرض ، حين يكون ما يزال يسري في مساربَ سفلية بين خِلْدان[1] تائهه ، وديدان أرض عمي ذات مقاصد مبهمة ، يدعى ينبوع الميانغيرو ، وماؤه ، إذا استعمل بارداً جداً ، يخفّف من حرقة جراح الجذام ، لا يخفّفها ولا يشفيها وإنما يخفف من عنائها .

ـ يبدو لي أن النساء يصعدن جميعاً إلى السماء مباشرة .

---

(١) أو مناجذ . جمع خُلد على غير قياس .

ـ أنا لا أرى ذلك . أظن أن أكثر من نصفهن هالكات وسينتهين إلى سواء الجحيم ، لأن بعضهن عواهر ، وبعضهن الآخر شحيحات ، وهناك أخريات مقززات ، مقززات جداً كالفرنسيات والمغربيات كيلا نذهب بعيداً جداً .

تمطر فوق سطح بيت الآنسة رامونا وحواليه أيضاً ، وعلى زجاج الرواق ، تمطر على الرَّتَم والسرو وتوت الحديقة التي تندفع حتى النهر . كل شيء أصابه البلل وصارت الأرض ماء أكثر مما هي تراب . ثلاث منتحرين في ما يزيد على عشرة أعوام ليس رقماً ضخماً ، هم عجوز تتألم ألماً يفوق طاقتها ، وتاجر جوّال خسر في القمار حتى ابنته الصغيرة ، (في هذه الألعاب غش كبير) ، وصبيّة لما يتكوّرْ ثدياها .

ـ أنا وأنت قريبان . نحن هنا جميعاً ذوو قربى ما عدا العشبةَ السامة من آل كرّوبو . إذا شئت ، سآمر بصنع شوكولا لنا كلينا . لِمَ لا تظل هنا للعشاء ؟

دون أُبْريخيمو ، والد الآنسة رامونا كان يعزف لما كان حياً ، الفوكستروت والشارلستون على البانخو بمهارة كبيرة .

ـ أبي كان طيّباً جداً ، أعلم ذلك حق العلم . لكنه كان غير مستقر ، وأظنه كان نصف مجنون . لا ريب ، في ذلك . على أن التانغو أفضل وأكثر ترويحاً عن النفس .

رواية ثلاكائين المغامر لباروخا ، جميلة جداً ، وفيها كثير من العمل والمشاعر . لا أتذكر لمن أعرتها . هذي هي نتيجة إعارة الكتب بأن تفقدها . أما روبين لبوثان فيعيد الكتب المعارة ، أرجح أنني لم أعرها لأحد ، وهي في إحدى الخزن ، الحقيقة أن هذا البيت كله فوضى .

ـ «لِمَ لا تظل هنا للعشاء ؟ لديّ زجاجة من عرق التفاح ، أُرسلت إليّ من أستورياس .»

لا ينتبه أحد إلى مسيرة العالم الحكيمة ، العالم الذي يدور ويدور ، بينما تمطر دون بداية ولا نهاية : رجل يشي برجل آخر ، وإذا رآه ميتاً في حفرة أو عند سور مقبرة ، قلّما يؤنّبه ضميره ؛ أو امرأة تغمض عينيها كيما تضع قنينة ملأى بالماء الساخن حيث تشاء من جسدها ، ولا يأبه لذلك أحد ؛ أو طفل يسقط من على سلم ويُقتل . كل ذلك يتم بغمضة عين روسيكلير ما تزال تجهد في جعل القرد يستمني . وكل يوم يمر يزداد سعاله ، والجنون فنون! كل فرد من آل كروبو يحمل بقعة خبيثة من جلد الخنزير في جبينه . على الأرجح أنّ أحد أجدادهم كان خنزيراً برياً . من يدري! الأعمى غودنثيو يعزف لحن الماثوركا صغيرتي ماريان ، حين يريد وليس حين يُطلب إليه ، كونُ المرءِ أعمى شيء ، وفقدان الإرادة شيء آخر جد مختلف . مجموعة ألحان غودنثيو متنوعة ، والناس مزاجيون ، وأحياناً لا يعرفون ماذا يطلبون . ألا ترى أن لحن الماثوركا هذ لا يمكن عزفه إلا في لحظات دقيقة معيّنةٍ وجليلة جداً ؟ هذا اللحن مثل قدّاس مرتلّ ، له زمنه ووقته وترفه أيضاً . والأكورديون آلة حساسة ، ويعاني إن أُرغِم إرغاماً . لقد فقد الناس الاحترام لكل شيء ، ذلك بأننا نسير في طريق نهاية العالم . بوليكاربو بورتوموريسكو بن البغنييرا فقد ثلاث أصابع من يده ، قطعها حصان بري في جبال أكْسوريس يوم قصدها لصيد الجياد الوحشية مع أقربائه ، بوليكاربو بن البغنييرا يعيش في ثيلا ديكمبروّن ؛ وقد انهار الطابق العلوي من بيته لما مات والده ، حينئذ ، هربت منه ثلاث من بنات عرس مدرّبة ومطيعة وتعرف الرقص . بوليكاربو بن البغنييرا تدبّر وضعه جيداً بالبنصر والإبهام من يده اليمنى ، والمرء يتعوّد كل شيء . بوليكاربو

يصعد من حين لآخر حتى الطريق العام ، في حافلة سنتياغو يسافر دائماً خوْرِيان أو ثلاثة خوارنة يأكلون فستقاً وتيناً بخبز ، ولهم مظهر خشن ، وهم سيّئو الحلاقة ، ويضحكون متهامسين ويسرّون النجوى متآمرين . قبل الحرب كان الخوارنة الذين يسافرون في الحافلات يأكلون نقانق ، ويتجشّؤون ، ويضرطون بفرقعة وسط قهقهات ضخمة . دون ماريانو بيِلُوبال كان الخوري الأشهر بإطلاقه الريح من فوقُ ومن تحتُ . ما كان يوجد في المنطقة كلّها من يضاهيه في ذلك . توفّى دون ماريانو بُعيد نشوب الحرب : صعد إلى برج الأجراس ليسوّي الجرس ، فزلّت قدمه ودُقّ عنقه على قبور الفناء . وإذا ما أكل دون ماريانو جيداً ، كان قادراً على إطلاق فُواق وضراط خلال ست ساعات أو تزيد .

ـ هذه ضرطة على الكفار!

ـ يبدو ، يا سيد ماريانو ، أنك ستصاب بفتق!

ـ أنا ، أصاب بفتق ؟ لا ، ولو كنت لوطياً! وهذه الضرطة على البروتسانت ، التيوس الهزيلة . يسقط لوثر!

أفضل نقانق الدنيا نقانق آدغا ، (هذا زعم ، يرجح وجود نقانق آخرى جيدة) .

ـ زوجي المرحوم كان يتمتّع بصحة جيدة ، لأنه كان يلتهم قطع النقانق كاملة . كان يقطع الخيط ويبتلعها بلقمة واحدة ، يا للمسكين ثِيدران ، وليرقد بسلام ، كم كان يحب نقانقي! كان يقول لي أحياناً : كل هذه النقانق يظهر أَثَرُها على طرف قضيبي ، يا آدِغينيا ، وهذ خير لك! أليس صحيحاً ؟ القتيل الذي قتل زوجي لم يأكل أبداً نقانق جيدة كنقانقي ، لأن القتيل الذي قتل زوجي كان ميتاً من الجوع وشبه غريب .

آدغا تصنع النقانق حسب القاعدة والأصول . أولاً : اللحم يجب أن يكون من خنزير بلدي ، رُبّي حسب عادات البلد ، ثم يخلط بالذرة وورق الملفوف المطبوخ جيداً ، والبطاطا ، ودقيق الذرة والخبز والفول وكل ما يمكن طبخه وله رائحة طيبة . من الملائم أيضاً أن يكون الخنزير قد عاش في الهواء الطلق ، وقام برياضته في الجبل حافراً الأرض بخيشومه بحثاً عن الديدان وحييوينات أخر غيرها . يجب ذبحه بآلة حديدية لّينة ، ليست من الفولاذ ، وحسب العادة المعروفة ، أعني بقسوة وغدراً . ولا يأثم أحد في ذلك . يُحضَّر اللحم الجيد من منطقة المتن ، والكتف والأضلاع ويفرم جيداً ، ويجب الانتباه إلى العظم ، ويضاف إليه الفلفل الحلو والفلفل الحار حسب الطلب ، والملح والثوم المسحوق جيداً ، والماء اللازم أو الصحيح . يُعجن كل ذلك ببطء ويترك راقداً يوماً كاملاً . وفي صباح اليوم التالي ، تُختبر خلطة اللحم ، وتوضع نَيْئةً في المقلاة لمعرفة طعمها ، يضاف إليها ما ينقصها ، ودائماً ينقصها شيء ما . وفي اليوم الثالث تُعجن من جديد ، وفي اليوم الرابع يُحشى بها المصران ، وأجودها مَصير المبعر . وتربط النقانق بخيط ناعم حسب الحجم المطلوب ، وتُدخَّن فوق موقد الحطب لمدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع إلى أن تصبح قاسية وصلبة ؛ قسوتُها وصلابتها علامة على نضجها الجيد وتصبح صالحة للأكل . حطب السنديان يطلق خير دخان وأسلمه . يُعلّق ما يراد أكلُه فوراً ، ويحفظ ما يُراد خزنه منها ، بعد أن يُنظّف تنظيفاً جيداً ، في الدهن .

- زوجي المرحوم كان يتمتّع بقوة خارقة ، لأنه كان يلتهم قطع النقانق دون مضغ . يسحب منها الخيط ، وأحياناً دون أن يسحبه ، ويلقي برأسه إلى الخلف ، ويفتح فمه ويبتلع قطع النقانق دون مضغ ، وقد ابتلع ذات يوم خمس قطع كاملة دون أين يأخذ نَفَساً ، ودون أن يغصّ .

تمطر فوق مياه الجدول الواقع ما وراء الأراضي المحروثة في كاتوتشا

وسوالبْريث ، في حين يطير في الهواء شبحُ طفل مات منذ قليل . الأطفال ، ملائكةُ السماء الصغار ، يموتون دون أن يتنبّه إليهم أحد ، يموتون بهدوء . لكن السوء في الكبار بما يثيرونه من صخب ، وما يجلبونه من نفقات سواء للأطباء ، أم للصيادلة والخوارنة أو ثمن نعوش جيدة ، أو تكاليف حداد وإقامة قداديس مرتّلة ومصلّاة ، أو إن كان يجب فتحُ الوصية فوراً ، واندلاع الخناقات... ماروخيتا بوديلون البونفِردية التي كانت على علاقة بتاجر الآلات ثلسو باريلا خطيب الخالة إيميليتا القديم ، لم تكن ممثلة كوميدية ، لكنها تشبه الممثلات ؛ كانت تبدو عشيقة صائغ . كانت ماروخيتا تصبغ شعرها بلون أشقر وتضع ظلاً على عينيها .

ـ وتصبغ فمها على شكل قلب ؟

ـ لا! لماذا ؟

ـ وتدخّن أمام الرجال ؟

ـ ولا هذا أيضاً .

ماروخيتا ذات قوام جميل جداً ، وذات قوة ، وهي حين تأمر تتجلّى نَبْعَتُها . ماروخيتا كبيرة الصدر قليلاً ، الرجال تعجبهم في العادة النساء ذوات الصدر العريض ؛ وساقاها طويلتان ، وعجيزتها رابية قوية ، لكن صوتها لم يكن جميلاً ، كان كصوت العقعق . نعم ؛ ماروخيتا كانت تدخن أمام الرجال وتطلي فمها على شكل قلب بأحمر شفاه ، ماركة ميشيل ملك أقلام أحمر الشفاه . أنفق ثلسو باريلا مبالغ لا يملكها إرضاء لنزواتها : بدءاً من شراب البرموث وانتهاء بعلب البونبون وحقائب اليد أو الحَلَق ، وكل يوم شيء جديد ، حتى أفلس ورتب على نفسه ديوناً . كانت ماروخيتا ذات حظوة عنده . فوق ذلك كان يقلّم أظفارها ويغسل رأسها .

ـ الا أعجبك أكثر مما تعجبك هذه الزينة ؟

ريكاردو باثكث بيلارينيو ، خطيب الخالة خيسوسا ، قُتل لما قارب أن يصبح صيدلياً ، كان يلزمه النجاح في مادتين دراسيتين .

ـ كان بالإمكان أن يُقتل شخص آخر . أليس صحيحاً ؟ في ذلك ، كان حظي سيئاً .

ـ لا أدري ماذا أقول لك ، يا امرأة . حظ خطيبك كان أسوأ .

ـ وهذا حق!

غوريتشو توندا س يسير على تخوم العالم الآخر واضعاً على كتفه قصبة لصيد السمك .

ـ إلى أين ذاهب يا غوريتشو ؟

ـ أنا ذاهب إلى بيت لحم لأصطاد الطفل عيسى المسيح .

ـ يا إلهي الكريم . هراء أي هراء!

ـ حسن! سترى ذلك حين يطلع الصباح .

تمطر بينا يتنفس النهار . تمطر فوق غوريتشو توندا س الجالس على صخرة على ضفة النهر ، ويصطاد سمك تروتشا بصبر كبير ، ويبدو كأنه ميت .

ـ أأنت ميت ، ياغوريتشو ؟

ـ نعم ، مضى عليّ ستُّ ساعات وأنا ميت ولم يتنبّه إليّ أحد . حُمل الطفل يسوع إلى مصر على ظهر حمار ، وقد علم أن البلد لم يلائمه .

يظن الناس أن آل غوكسينده وآل موران شيء واحد . لكن ، ليسوا كذلك . الناس تخلط في مسألة صلات القربى . كلنا جئنا من آدم وحواء ، (الخالة إيمليتا تقول إن أهالي بونفرّادا ، ليسوا كذلك . أهالي بونفرّادا هم من سلالة القرود ، وشكراً) . ليس كل غوكسيندي موراني ، لكنّ كلَّ موراني غوكسيندي . الأمر ليس واضحاً جداً . لكن ، ماذا نصنع لك! الحقيقة ، لا شيء يبدو واضحاً وضوحاً كافياً . نحن ـ آل موران ـ أقل عدداً من آل غوكسينده . كان يمكن أن نكون أكثر منهم . لكن الواقع غير ذلك . آل موران ، هم عوائل بورتوموريسكو ، وماربيس وثيلا ، وفرمينياس . الآخرون هم أقاربنا أيضاً ، لكنهم ليسوا مورانيين . وهؤلاء وأولئك يقفون على قدم المساواة من الأهمية ، وكلنا نتغذّى جيداً . في معمل الحياة الآخرة ، معمل توابيت جدّي ، كان يعمل إيطالي لا يَعلم أحد كيف جاء البلد . وقد توفّى الآن . ذات مرة ، طلى أبناء عمومتي مؤخرته بالصمغ ، ثم لصقوا فوقه خيوط القنب ، ورُبط إلى شجرة قرب قرية كربيبدينيا ، خلف دير الرهبان في أورينسه . لقد نسيت اسمه ، لكني أتذكّر حقاً الغضبَ الذي اجتاحه لما أُطلق سراحه . الحقيقة ما كان ينبغي له أن يتحمّل مزاحاً فجّاً كهذا المزاح . هيكل الخالة المسكينة لوردِس لن يقرَّ له قرار إلى يوم القيامة ، إذْ ألقي به في قبر مشترك في باريس . الخال كليتو يعزف الجاز الباند سماعاً . يعزفه بإتقان شديد . يوم الحادي عشر من شباط ، وهو ذكرى المرحومة زوجه ، يملأ الدنيا ضجيجاً بكل الآلات صاخبةً معاً : الطبل ، والبومبو ، والتيمبال ، والدف ، والمثلث ، والصناجات ، ويرجح وجود آلات أخرى غيرها . دون خيسوس منتنيدو ، المجرم المغرق في الإجرام ، لم يطلب أحد ، حتى ولا أولاده ، أن تُعزف موسيقى من أجله .

ـ أتصدّقين أن كابوكساتولا تجرؤ على ارتكاب الفاحشة مع خروف ؟

ـ وأي سوء فيه ؟ أسوأ منه الاضطجاع مع فابيان موتشو . إذا استطاعت المرأة أن تتغلّب على التقزّز ، يمكنها أن تتحمّل كثيراً ، لنقلْ ، يمكنها أن تتحمّل مدى الحياة .

العلامة التاسعة من علامات الوغد ابن القحبة ، البخل . فابيان منغيلا فقير ، لكنه كان يمكنه أن يصبح غنياً بما كان يوفّره .

ـ ماذا صنع بما ادّخره ؟

ـ لا يعلم أحد . أرجّح أنه لم يكسبْ مقداراً كالذي يزعمون .

إذا تكلمنا عن الموسيقى ، فإن دون أُبْريخمو فرمينياس خوثين كان صديقاً ممتازاً لدون فاوستينو سنتِليثيث بيريث ، من مواليد بانـدِه . وكان الأول معجباً جداً بمعرفته الآخر والاهتمام الذي يبديه حين يغنّي الرومانث ويعزف على الثانفون .

ـ نعم ، هذا فن رفيع ، وليس كفن البانخو المتعثّر . لو كنت أعرف العزف على هذه الآلة مثل الصديق فاوستينو ، لرميتُ بالبانخو من النافذة .

إن أعجب دون أبريخمو بشيء ، فقد كان معجباً بسماع رومانث دون غيفيروث .

ـ لا أعرف كيف كانت العصور الوسطى المملوءة برهبان شحاذين مُلحفين ، وفرسان جربى ، وشعراء تروبادور مسلولين ، وبحجّاج يسطون على ما يقع تحت أيديهم ، دون أن يقوموا بطقس الاعتراف . كل ذلك جرى منذ سنين بعيدة . لكن الأرجح أن تكون العصور الوسطى خيراً من العصور الحديثة على رغم وجود الراديو والطائرات واختراعات أخرى . وكذلك جميل جداً رومانث دون سانشو .

دونيا بورا غرّوته ، الملقبة بلابرّوتشا ، تتلفّع بطُرحتها الحريرية خلال العواصف ، حين تلتمع البروق ، وتشرع الرعود في الهدير . تبحث لابرّوتشا عن طرحتها ، وتغطّي رأسها وتستلقي على السرير . خير لكِ أن تكوني خشباً من أن تكوني حديداً ، وتصطبري في الظلام ، هادئة كالميتة وعيناك مطبقتان ، وترتّلين صلاة ، «سيدتنا العذراء» بصوت خفيض إلى أن يزول الخطر ، وكل إنسان يشعر بالخوف على طريقته . في تلك اللحظات ، يمكن لأي إنسان أن يسرق أمتعتها دون أن تتنبّهَ . وهي الحريصة دائماً على ما يخصّها . طرحة لابروتشا ذات شهرة واسعة . لما كانت لابروتشا شابة طلبت أن يُرسم لها عشرون صورة فنية بأوضاع شتّى : وهي عارية ، أو بالطرحة على كتفيها ، أو أحد ثدييها مشرع ، أو بمزهرية إلى جانبها ؛ أو وهي واقفة أمام ستارة تمثّل أهرامات مصر ؛ أو صورة يبدو فيها نهداها منطلقين ، أو وهي مستلقية على «كنبة» وساقاها فوق بعضهما البعض ، أو ردفاها منعكسان في المرآة ؛ أو بظهرها الجميل البضّ مكشوفاً ، أو ببرج إيفل يشكل خلفية للصورة ، الخ . أُخِذت الصور لها في استوديو مِنْديث في شارع لاماس دِكَرْبخال . وكانت تدفع لمنديث صاحب المحل عيناً . يا للرعب ، كم مضى على تلك الأيام! طرحة لابروتشا الحريرية بلون الكريم ولها هدّاب عريض ومرسوم عليها ما لا يقل عن ثلاثمائة صيني طُرِّزت وجوههم العاجية بكامل طيف قوس قزح . القانوني دون سِلْبثِيرو يقول إنها من السيلولوئيد ، لكن ذلك الزعم غير صحيح ، وإنما هي من العاج ، بعض الرجال في الصورة يتمشى ، وبعضهم الآخر يقوم بألعاب توازن ؛ وآخرون يحتمون من الشمس بمظلة ، وهكذا...

ـ كم تساوي طرحة لابروتشا الحريرية ؟

ـ لا أدري . في نظري ، تساوي مبلغاً ضخماً . يمكن أن تكون خير طرحة من نوعها في أورينسه .

بيبينيو أكسوريلو كونيريس أصيب بالتهاب السحايا ، وأصبح مطاطئ الرأس بعد ذلك . أما الموت ، فلم يمت بالتأكيد ، لكن صار فيه مسّ من الجنون ، ثم أُطلق عليه لقب أكسوريلو أو السمكة . بيبينيو اكسوريلو يعمل في معمل إيل روبوسو لصنع التوابيت مساعداً كهربائياً ، وكان ماهراً في التغليف . حسب قول البعض ، كان بيبينيو أُكسوريلو شبه لوطي ، بل كان لوطياً كاملاً . إن كان يرغب في شيء ، فهو رغبته في أن يلمس الصبيان . وما كان يترك سيمونثيو ، أو بوتشو في راحة أبداً . لأن الإفراط على البُكم ليس له أيُّ اعتبار . حدث لبيبينيو أُكسوريلو أن تزوج ، واضطرّت سيدته لاكونتشا داكونا إلى الهرب منه . وكان ذلك أمراً طبيعياً جداً ، ولا مأخذ عليه . ثم خرج بيبينيو أكسوريلو من السجن لأنه رضي بأن يُخصى . وكان عليه أن يدفع ضريبته للعلم . لم يتحسّنْ وضع أكسوريلو بالعمليّة التي يسميّها الأطباء والمحامون والقضاة إزالة الذكورة التي تجعله ألطف وأكثر اعتدالاً ، لكنه كان يشعر بألم في العظام والرأس .

ـ أتؤلمك العظام يابيبينيو ؟

ـ نعم يا سيدي ، تؤلمني قليلاً .

ـ والرأس ؟

ـ والرأس أيضاً ، يا سيدي .

ـ إذاً لا عليك إلا أن تصطبر وتتحمّل .

ـ نعم ، يا سيدي ، هذا ما أراه .

أُعطي بيبينيو أُكسوريلو هورمونات لكي يتحسّن وضعُه ، لكنه لم يتحسن ، على الأرجح أعطيت له للتجريب عليه .

ـ أما كان يشعر بالخوف ؟

ـ بلى! كان يشعر بخوف كبير ، ويزول عنه فقط إذا استطاع الاقتراب من طفل ولمس مؤخرتَه . ولما قبض عليه الحرس المدني قال لرئيس المخفر : سيمونثينيو هو الذي كشف عن مؤخرته لألمسها . أنا ما كنت أريد لمسها .

هدير محور عربة الثيران التي تسير في الدرب يثقب الآذان ، وإذا كان لا يُسمع اليوم ، فلطالما كان مِلءَ السمع . محور عربة الثيران ، يجيبه دائماً صوتُ محورٍ آخر ، وإذا لم يكنْ ، أجابه الصدى ، وإذا نام الصدى ، كلّمه الرب بآلات الكمان . بينيثيا لها حلمتان كالكستناء ، إن بالصلابة أم باللون . بينيثيا هي بنت أخت غودِنْثيو عازف الكمان الأعمى في بيت بروتشا .

ـ غودنثيو ، أعطيك بيزيتة إذا عزفت لحن الماثوركا!

ـ ذلك حسب الحال .

بينيثيا لا تعرف القراءة ولا الكتابة ، وهي ليست بحاجة إليهما . بينيثيا مرحة وتبعث الحياة أينما حلّت .

ـ أتريد أن تباريني برفع أثقالٍ بالقبضة ؟ إذا ربحت ، أسمح لك بمصّ ثديي . لكن إذا خسرت ، يجب عليك أن تدعني أجرك من قضيبك حتى تستسلم . أتقبل ؟

ـ لا!

بينيتيا آلة خُلقت لتتمتّع وتُمتع أيضاً . ما إنْ يصبحَ في يدي بينيتيا بعضُ

النقود حتى تشتري هدية لأحد ما ، ولو كانت ركوة قهوة ، أو علبة سجائر ، أو حزاماً . يجب الاهتمام بالرجال دائماً .

ـ أتريد أن نرقص تانغو ؟

ـ لا! أنا متعب . استلقي إلى جانبي مرة أخرى .

بينثيا تستقبل ثفرينو ، أو فوريلو ، خوري سانتا ماريا ديكربييدا كل أول وثالث ثلاثاء من الشهر . لا شيء يضيع مع النظام .

ـ آي ، دون ثِفِرينو! كل يوم تبعث فيّ مزيداً من الرغبة . سامحني الله ، اضغط دون خوف .

بينيثيا يعجبها أن تطبخ عارية .

ـ ألا تُصاب بفقاعات الزيت المقلي ؟

ـ لا! هي تأخذ حذرها .

بينيثيا ذات يدٍ صَناع في قَلْي التروتشا ، وحشي أوراق الملفوف بخليط من لحم متن الخنزير وفخذه ، وسنّ من الثوم ،والبقدونس والبهار والبيض . هو طبق لذيذ وثمين جداً . رجل الدين فوريلو صياد سمك ، ويعامل بينيثيا بتهذيب جمّ . صيادو السمك مستقيمون في تعاملهم عادة . عينا بينيثيا زرقاوان ، وهي كطاحونة الماء لا تهدأ أبداً .

ـ أتفسحين لي مكاناً بقربك .

تحكي بينيثيا أن سان رولدان كان يسير في شعاب بلدويراَس ، وبيثيِْن وفي روبيانا أيضاً قاتلاً ناساً شرقيين ، فالتقى فتاتين عربيتين باهرتي الجمال تصعدان جبال اينيتينا دياسترا ، فطاردهما على الحصان الذي ظلّ يعدو ويعدو حتى انشقّ ، ولم يدركهما . أصيب سان رولدان بالخيبة من الفتاتين فلعنهما ،

فتحوّلتا إلى حجرين بيضاوين ، حجرين من الكوراتز بيضاوين بياضاً ناصعاً ، ما تزالان حتى يومنا هذا تحرسان الطريق من كلا جانبيه .

ـ عند حجري الكوارتز ظهر لي شبحُ سان رولدان ، حتى أردت الهرب فلم أستطع . وما كنت أرغب فيه أيضاً لأن الشبح كان هادئاً راضياً . تكلّم سان رولدان بكلام غريب قليلاً ، لكنني لا أحفظ كلّ كلماته الآن .

ـ أوكلّمك سان رولدان بالقشتالية أم بالغليشية ؟

ـ يبدو لي أنه كلمني باللاتينية ، غير أني كنت أفهمه جيداً . ألا تصدق ؟

آدغا أم بينيثيا ، تعرف كثيراً من القصص عن البلد ، وكثيراً من الأسرار ، وتعزف الأكورديون أيضاً بنقاء وذوق رفيع . تعزف أحسن ما تعزف لحن البولكا «فنفينيت» .

ـ جدك كان على علاقة غرامية فاضحة جداً انتهت بالدم . مَنِيْتْشا آمييروس كانت أنثى حقيقية . وكان جدك يحسن الاختيار . جدك قتل بالعصا كسان آمييروس شقيق منيتشا على الأقل . ذلك ما يحدث أحياناً ، حين يلتقي رجلان ويقتتلان ولا يوجد من يفصل بينهما في الوقت الملائم . قتله في مضيق كلابيلينيو ، لكنه تصرف تصرفاً ممتازاً مع منيتشا ، فقصدت الفتاة عاصمة إسبانية وأسست تجارة مزدهرة . وقضى جدك سنوات معينة في البرازيل وقبل أن ينطلق إلى هناك ، قال لخطيبته غير الرسمية ، أو التي ستصبح جدتك : أتنتظرينني يا تريسا ؟ قالت له نعم . حينئذ ، انتقل إلى الجانب الآخر من المحيط . قضى أربعة عشر عاماً في أمريكة ، وعند عودته تزوّج بها . لم يكتب لخطيبته خلال هذه الفترة رسالة واحدة . لكن الكلمة هي الكلمة . ألصبّ لك قليلاً من الخمر ؟

أم روكينيو بورّين المغفّل الذي وُضِع لمدّة خمس سنين في صندوق من الصفيح ملوّن بالأزرق البحري والذهبي والبرتقالي والأخضر كالخسّ ، لم تكن ذات مشاعر طيبة . أم روكينيو بورّين تحسب أن المغفلين أشبهُ بجلاميد الجبل منهم بالبشر أو بالحيوانات أيضاً .

ـ إذا كان الله جعلهم هكذا ، فلأمرٍ ما . أليس كذلك ؟

إذا حُرقِت أمُّ روكينيو بورّين ، أو انسكبَ الزيتُ المغليّ عليها ، أو جُرحت يدُها وهي تقشر البطاطا ، تنهال ضرباً على المغفل لتفرّج عن نفسها .

ـ ولأي شيء تنظر يا مغفل المغفلين ؟

أم روكينيو بورّين سيكونديناً ، لا يشبهها في سوء خلقها أحد .

ـ آي ، يا بني ، أي عذاب صبّه الله عليّ بأن رزقني بغلام مثلك . روكينيو ، حضّرْ نفسَك للضرب . وسوف ترى!

أم روكينيو تدخّن حين لا يراها أحد . تدخّن أعقاب السجائر التي تجمعها من حانة راوكو . فهي صديقة ريميديوس صاحبةُ الحانة ، إذ تغسل لها الثياب وتساعدها على الطبخ وتهدي إليها هدايا . وتدخن أيضاً أوراق المانوليا . عند سيكونديناً كلب يأكل أعقاب السجائر المتعفّنة ، لذلك يُرى سكرانَ دائماً ونصف مجنون . وكان الكلب يتلقّى أيضاً نصيبه من الضرب حين يتملّك الغضب صاحبته . يُقال إن روكينيو صار مغفّلاً لأن أفعى كانت ترضع في الليل ثدييَ أمه لما كان رضيعاً ، فكان المسكين يعاني من الجوع معاناة كبرى . لا أنفي ذلك لكنني أظنّه وُلِد مغفلاً . هذا ما يُلاحظ في نظرة أشباهه عادة .

ـ أتدرين لأيّ شيء يساوي فلساً واحداً ؟

ـ نعم ، يا سيدي ، لأنه يصلح من أجل لسع الدبابير .

أوتيلو ، أو ثيرولاس ، شعرُه مقصوص على شكل فرشاة . هو أقرنُ الحاجبين وذو جبين ضيّق . الحقيقة أن فيه كثيراً من دناءة الأصل .

ـ قيل لي ، يا أوتيلو ، إن مارتا البرتغالية رفضت الاضطجاعَ معك لأنك بصقت على غودنثيو .

ـ من قال لك ذلك ، هو ابن قحبة ، ومعذرةً منك ، يا دون سِرْبِنْدو .

دون سربندو لا يسمح لأحد بأن يتكّم بكلام بذيء في حضرته .

ـ تأدّبْ ، يا ثيرولاس القذارة ، وإلا أنهالُ عليك بالعصا حتى أفدغَ رأسك .

وتأدبَ أوتيلو ، لأن الدون سربندو نائب إقليمي . أوتيلو كان يعرف قياسَ المسافات جيداً .

ـ أوتيلو ، اذهبْ إلى الدكان واجلب لي دفتر سجاير .

ـ ماركة بامبو ؟

ـ بل إينديوروسا .

أعجب ما يعجب فينا أن تُجامعَ بالطريقة القوية ، ولهذه المَهمّة لا يوجد خير من خوري متوسِّطِ العمر ، لا شابّ ولا عجوز . ثلستينو غاروتشا خوري سان ميغيل ديتابو آديلا فنّان حقيقي في مجال ترويض النساء في السرير . والمرحوم آنطون غونتميل ، زوجُ فينا رامونده المسكين التعتاعُ الذي قتله قطار شحن في محطة أورينسه ، لم يُفلح مع امرأته أبداً .

ـ فرنسيسكاني البعثات يتمتّع بقضيب هو ضعف قضيبك يا شبح . ما أنت غير شبح .

فينا تطبخ الأرنب بطريقة جيدة ، وثلستينو غاموثو ما كان يَعْبأ بأن تكون في العادة الشهرية .

ـ لا فرق عندي! تعلمين أني لا أتقزز منك .

الفرنسيون كاثوليك ، لكن على طريقتهم الخاصة ، ليسوا مثلنا نحن الإسبان . فقد أصابوا الخالة لوردِس بالجدري ، ثم ألقَوْا بها في قبر مشترك بعد موتها . بالطبع ، لا يتعامل الفرنسيون بالغشّ ، وإنما يهتمّون بمصالحهم . ماتت الخالة لوردس لما كانت في شهر العسل ؛ « من سرير الزوجية إلى القبر البارد » ، تبدو عنوان رواية من تأليف بونسون ديترّاي . كل فرد يموت حيث ومتى أراد الله . عداها الفرنسيون بالجدري ، ولم يجد الخال كليتو مناصاً من أن يترملّ .

منويلينيو ريمسيرو دومنغيث حضَن بيضة غراب في القبو . المسألة وما فيها أن تظلّ هادئاً كيلا تُسحق البيضة . أُودِع منويلينيو ريمسيرو دومِنْغيث السجنَ لأنه قتل رجلاً بالعصا . تأمّلْ كم يقتتلون بالعصيّ في المهرجانات! ذلك بأن فرداً مسمومَ الطبع يجلب التعاسة .

ـ ويزرع المصائب ؟

ـ نعم ، يا سيدي ، ويزرع المصائب . لا يعلم أحد من أين تطلع مخطَطاتُ القدر التي هي دائماً غيرُ متوقّعة ، ومتبدلة .

ساد صمت . وسأل دون كلوديو دوبيكو لابونييرو :

ـ اسمعي ، من أين نسختِ ما قلتِه منذ قليل ؟

ـ اللّه ، ما هذا السؤال ؟ وأنت ماذا يعنيك ؟

لما نَقّف فرخ الغراب البيضة ، عُني به منويلينيو عناية فائقة ، والآن صار الحييوين يسرّي عنه كثيراً .

ـ ما اسم الغراب ؟

ـ مونتشو ، على اسم أحد أبناء عمومتي الذي مات بالسعال الديكي . أيعجبك ؟

ـ نعم . هو اسم جميل جداً ، لكني لا أعلم إن كان يلائمه .

ـ الله! ولِمَ لا ؟

ينسلّ مونتشو في الصباح من بين قضبان النافذة ويطير .

ـ تبعث على الإعجاب رؤيتُه يخفق بجناحيه . يبدو الشيطان بعينه لحدّة ذكائه .

يعود مونتشو إلى حجرته قبيل غروب الشمس . وما كان يخطئها أبداً ، ويحطّ على رأس منويلينيو أو على كتفه .

ـ أو يعود دائماً ؟

ـ نعم ،يا سيدي . وأظنّه لا يعرف أن يذهب إلى أية جهة أخرى . وفوق ذلك ، يحمل لي دائماً هديّة ما ، سواء كانت قطعة بلّور ، أم حلزوناً أم حبّة كستناء...

منويلينيو يعلّم مونتشو الصفير ، وصار يصفر ببعض الإيقاعات من صغيرتي ماريان ، الماثوركا التي يعزفها الأعمى غودنِثيو في مناسبات مشهورة جداً .

ـ أتريد أن تعزف هذه الماتوركا ، يا غودنتيو ؟

ـ اسكت ، يا كسلان!

مونتشو يعرف أيضاً أن ينطق ببعض الكلمات . ولربما أحبّ منويلينيو لو كان يعرف إلقاء التحيّة : صباح الخير ، دون كريستوبال ؛ مساء الخير ، دونيا ريتا ؛ طاب ليلكِ يا كاستورا ، أرجو أن تباتي سالمة ؛ ما مِرتو بيكسون ، أحدُ أصدقاء منويلينيو ، عنده غراب يعرف الدوائر القضائية في أورينسه حسب الترتيب الأبجدي : آياريث ، بَنْدِه ، ثيلانوبا ، كَرْبيينو ، الخ . أسهل عليك أن تعلّم الغرابَ الكلامَ ، من أن تتعلّم لغتَه . تتنبّأ الغربان بوقوع المطر والأمراض والموت ، وتتحدث بسبعين نعقة مختلفة ونيف . كل نعقة تعبّر عن إحساس ما .

ـ ربما رغبت اليوم في أن أربّي قرقفاً . القراقف تُتقن الغناء . لكن أنّى لي بيضة قرقف ؟

أدريان إسْتَبث من مواليد فيرِّيرابيلا ، على طرف بلدية فوث ، غوّاص مشهور جداً . عُثِر في خليج فوث على غوّاصة ألمانية وأفراد طاقمها موتى جميعاً . يُلقب آدريان إستبث بتُبيرون لشجاعته وإحسانه . تبيرون صديق بلدوميرو آفوتو ويريد منه أن يرافقه إلى بحيرة آنتيلا .

ـ في سندياس قريبٌ لي يعرف أين تقع أنطاكية بالضبط . وينبغي له أن يعرف لأنه من تلك الأرجاء . أنا ذاهب معك ، لكني ، في الماء لا أنزل . وشرطي الوحيد الذي أشترطه عليك هو ألا تقتل ضفادع لأنها بنات عمي . قد تضحك مني . لا يهمني ضحكك . لكن ضفادع بحيرة آنتيلا بناتُ عمي . وأستطيع القسم على ذلك .

بلدوميرو آفوتو له وشمٌ على ذراعه يمثّل امرأة عارية تلتفّ عليها أفعى ، المرأة ترمز إلى الحظّ السعيد ، والأفعى تعني قوى الروح الثلاث .

ـ لا أفهمك!

ـ لاأبالي!

يريد تُبِيْرون أن يغطس في بحيرة آنتيلا ، متجنّباً دمَ الرومان جنودِ ديثيو الغليشي ، والغال أتباع الملك آرتوس ، كيما يسرق أجراس أنطاكية .

ـ أعلم حقاً أن فيها ثلاثَ لعنات ، لكنني أعوّض عنها ، لأن أجراس أنطاكية تساوي ثروة ضخمة .

ألقى تبيرون بنفسه إلى الماء ، ذات ليلة كان البلبل يطلق ألحانه فيها ، والبوم ينوح بشكواه ، والنجوم ترتعش متلألئة في كبد السماء . كان عارياً عُرْياً كاملاً وعلى صدره صليب كَرَاباكا مرسوم بالمغرة .

ـ ألن تمّحي المغرة ؟

ـ لا! لا أعتقد ذلك . هي تدوم طويلاً .

انتظره آفوتو على الشاطئ ، حاملاً بندقيّته . لم يرافقه أحد . كان تبيرون يخرج من الماء كلَّ دقيقة ، أو دقيقة ونصف الدقيقة ، لكي يتنفّس ، ثم يعود إلى الغطس .

ـ أتتحمّل ؟

ـ حتى الآن أتحمل ما دمت لم أشعر بالبرد .

بعد مائة غطسة ، شعر تبيرون بالبرد ، وراحت أسنانه تصطكّ .

ـ الأجراس ليست على عمق كبير ، لكنها محكمة الربط . في جوف أكبر الأجراس ، يوجد ذئب مشنوق ، فتأمل هذه الحادثة! التهمت الأسماك نصف جسمه . لا تقل لأحد أين كنا .

ـ لا تهتم!

خادم آل بنثياس الخرساء المغفلة الاسم ، قتلتها الكلاب . كانت تلك حالة من سوء الحظ . الخادم الخرساء المغفلة الاسم ، ربما كانت برتغالية كما يوحي مظهرها ، وكانت تعدّ مشروباً بطعم القهوة كما لا يعدّه أحد أبداً ، كانت تصنعه بدراية كبيرة كأنها الحنان . حزنت دوريندا أمُّ أبناء بنثياس حزناً شديداً لموت الخادم . ففي سن الثالثة بعد المائة يحتاج المرء إلى من يعينه على بعض شؤونه .

ـ أنذهب إلى أورينسه لنتخلص من البرد في بيت بروتشا ؟

ـ حسن!

كان للخادم الخرساء المغفلة الاسم ابن من عريف في الحرس المدني ، منذ عهد حكومة المرغرتي دون مانويل برييتو ، صهر السنتياغي دون أوخينيو مونتيرو رويوس . (حسن! هو لم يكن مرغرياً ، بل أستورغي ، والأمر واحد تقريباً) . وكان العريف يدعى دوروتيو ويضع مشداً على خصره .

ـ من أين هو ؟

ـ لا أدري . كان يزعم أنه من أنحاء ثيلانوبا ، أو قل رميرانتس . لكنني أرى أنه من أبناء آستورياس . هو ما كان يريد الإقرار بذلك . أنت تعلم أن هناك ناساً كثيرين مجانين .

دوروتيو كان يلعب تمارين سويدية ، وينشد بصوت جميل جداً : «أغنية القرصان» ، للشاعر إسبرونثيدا : «يبحر بقاربه وعلى متنه عشرة مدافع . والريح تدفع الشراع بسرعة هبوبها القصوى...» لم يكن دوروتيو من

هواة ارتياد الحانات ولا المهرجانات . وحين يكون خارج الخدمة ، يلزم مقرّه في الثكنة ويقرأ أشعار إسبرونثيدا ، ونونييث ده آرثِه ، وكامبو آمور ، وأنطونيو غريلو . وما كان عريف الحرس المدني يحبّ أيضاً التجارة الجسدية مع النساء ، كما يقال عادة . بل اختار خادم آل بنتياس لأنها كتوم ، ولا يزلّ لسانها . حسن! لا يزل لسانها لأنها خرساء أكثر مما هي متحفّظة . لكن النتيجة واحدة . شاربا دوروتيو على طراز شاربي القيصر ، وهما متغطرسان جداً ، وذوا مظهر حسن ، وكان يلفت انتباه النساء جداً . كانت الخرساء غسالة ، أي تغسل ثياب دوروتيو ، ولما كانت تحس به فوقها ، ويحتكّ بها ، كانت تنفجر بزمجرات غريبة تعبّر عن السرور والانشراح .

ـ كالفأرة ؟

ـ لكن ، لا! على الأرجح كالشاة!

ابن دوروتيو والخرساء يعيش في إياريس ، ويملك سيارة أجرة ، ويكسب ما يكفيه ويرضيه . زوجه قابلة ، وأبناؤه الثلاثة يدرسون في سنتياغو : البنت تدرس الصيدلة ، والابن الأول الحقوق ، والآخر الطب . حظّ منويلينيو ريمسيرو دومنغيث كان أسوأ . وها هو الآن يجد نفسه محروماً من الحرية . في هذه الحياة ، بعض الناس ذوو حظ أعظم من حظ آخرين .

ـ متى يخرج من الحبس ؟

ـ حسب الظروف .

في جبال اغرو سنتينيو تعلبة لا تقتل غيرَ الفراخ الصغيرة . وما كانت تعجبها الدجاجات ، إذ كانت تراها عجائز .

ـ اللعنة! ثعلبة مرفّهة ، وأية ثعلبة! من قبلُ ، كانت الثعالب أجرأ وسلوكها أفضل .

ـ نعم ؛ من قبل ، كانت كذلك .

دون كلوديو دوبيكو لابونييرو يقطن فندق دونيا إيلبيرا . يقال أيضاً ، إنه مرتبط بها ، لكن ، بالسرّ . دون كلوديو على علاقة أيضاً بكاستورا الخادم التي كان يغازلها دون كريستوبال بدوره .

ـ يغازلها ؟

ـ حسن! أنت تفهمني جيداً .

العريف دوروتيو ، إضافة إلى إنشاده الأشعار ، يعزف الهارب . كانت خيرَ معزوفاته قطعُ الفالس . مانويل بلانكو روماسانتا الذي تحوّل إلى ذئب يقتل الناس عضاً ، أنقذه من الموت بالجلد ، الطبيب الصيني الذي لم يكن طبيباً ولا صينياً ، وإنما منّوم مغناطيسي وإنكليزي يدعى مستر فيليبس ، وكان أستاذاً في الكهرباء الحيوية في الجزائر . كتب الطبيبُ الصيني رسالةً أثارت ضجّة كبرى ، إلى وزير العدل الإسباني ، وإلى الملكة إيسابيل الثانية . لما علمت هذه بمجالات تقدّم العلم ، خفّفت حكم الإعدام عنه ، لكنّ الذئاب لا تتحمّل الأسر جيداً ، لذلك مات مانويل بلانكو روماسانتا خلال السنة التي حُبس فيها ، مات من الحزن الذي سبّبه له فقدانُه الحرية . بعض الناس شديدوّ الحساسية للحبس ، وتصل ردود فعلهم حتى الموت . وهذا ما يجري أيضاً للعصافير الدورية . يُقام في خورنية سان بيريسمو دهِ إسبنييروس في أياريث ، قدّاسٌ لراحة نفس الرجل الذئب في التاسع والعشرين من شباط ، أو في كل سنة كبيسة ، إلى أن اضمحلت العادة بنشوب الحرب الأهلية . جرس سان بيريسِمَوُ ده إسبنييروس نبيل جداً

وشكور ، يدقّ مسبحاً لما تطلع عليه الشمس ذلك اليوم ، فيلتبس الأمر على الناس الذين لا يعرفون القصة .

ـ خال كليتو!

ـ قل لي ، كاميليتو!

ـ أتعطيني عشرة ريالات ؟

ـ لا!

ـ ستة ؟

ـ ولا هذه أيضاً .

دار أخوالي في آلبارونا مغطّاة كلها باللبلاب والجلبان العَطِر ، وهي دار فسيحة وذات منظر حسن ، والآن آلت إلى الخراب تقريباً .

ـ أتتذكّر ذلك الشحرورَ الذي كان يسرق طعام الأعمى سنديريث ؟ كان أسوأ أعمى في الدنيا ، وقد عاقبه الله بتسليط عصفور عليه ليسرق طعامه ولم يلبث أن مات جوعاً .

دون كلوديو لابونييرو معلّم مدرسة ، وكان ، كما يبدو ، على صلة بدونيا إيلبيرا صاحبةِ الفندق .شيء من هذا كان قد قيل .

ـ كستورا عاهرة ، لكنها أصغر مني بثلاثين عاماً ، وهذا يعطيها مزيّة كبرى عليّ . لم أطردْها إلى الشارع لأنني بذلك أبقيك هنا . ألن تحبّني دائماً ؟

ـ دائما ، دائماً ، يا امرأة! بكل ما لكلمة دائماً من معنى... من يدري!

دونيا إيلبيرا ودون كلوديو يتحدثان دون كلفة في السرير فقط ، فمن

الملائم الحفاظ على المظاهر . لم يكن سهلاً على دون كلوديو الاضطجاع مع كستورا ، لأن دونيا إيلبيرا كانت تضعهما تحت رقابة صارمة . كل ما كان يستطيع عمله ، أن يلمس نهديها وعجيزتها حين يلتقي بها في الممشى .

ـ اهدأ ، دون كلوديو! ماذا ينفعك هذا العمل ؟ ستحصل على كل شيء متى حلّ يوم الأحد .

دون كلوديو وكستورا يلتقيان أيام الآحاد مساءً في مخزن كبير على طريق ريرو . صاحبه كان صديقَ دون كلوديو ، فكان يعطيه مفتاح المخزن ، بل وضع بتصرفهما سريراً وإبريق ماء . أما دون كريستوبال ، فكانت دونيا إيلبيرا تُرخي له العنان لأنها لم تكن مغرمة به .

ـ نعم ، أنت حسن الحظ ، دون كريستوبال . للاضطجاع معي يكفيك أن تدفع الباب فقط .

ـ اسكتي ، يا امرأة! لا تكوني وقحة واهتمي بما يعنيك .

مامرتو بيكسون صديقُ منويلينيو ريمسيرو دومنغيث ، كان من هواة كرة القدم . لكنه نُكب باختراع اختراعه ، واضطُرّ إلى التخلي عنه .

ـ ألم تفكّرْ أبداً في أن تصبح خورياً ؟

ـ لا ، يا سيدي ، لم أفكّر في ذلك قطّ .

مونتشو بريغيثاس كذوب . العرجان في العادة كذابون . ليسوا كلهم سواء ، لكن هذي هي القاعدة العامة .

ـ بنت خالتي خيورخينا كانت تسبح حتى في حياة زوجها الأول آدولفيتو ، في بركة طاحونة لوثيو مورو ، كما كانت تصنع كابوكسا بِنْته . وكان في الماء سمكة تروتشا تظل ناظرة إلى التديين ، وما كانت تبرح مكانَها ، حتى تنصرف

بنت خالتي إلى شأنها . بنت خالتي كانت دائماً ذات ثديين حسني المنظر جداً ، لكن الغريب أن تظل السمكة تنظر إليها كأنها جندي غِرّ .

آدولفيتو بينوتا آوغاليبادا ، الملقّب بتشوكيرو ، كان خطيب ماريا أوكسيلادورا بوراس التي تخلت عنه لأنه كان أشبه بالميت .

ـ هذا الرجل يشبه الأموات ، لا جدال فيه . ما عليكم إلآ أن تلمسوا يديه .

مونتشو بريغيثاس شاهد أيضاً ابن عرس وأرنباً يصعدان حجراً على الضفة ، ويستمتعان بالفرجة على ثديي بنت خالته .

ـ يجب مشاهدة سلوك الحيوانات ، أي ذكاء فيها!

ماريا أوركسيلادورا بوراس كانت تفسر قرارها بحجج قوية جداً .

ـ هذا الرجل يشبه الميت . لا عليكم إلا النظر إلى انطفاء جلده ، يكفيكم أن تلمسوا يديه . تخلّيت عنه لصالح خيورخينا التي سيتعيّن عليها وحدها أن تلبس الحداد . أنا لا أرغب في أن يفضّ بكارتي ميت ، أي ميت كان . أنا لا أرغب في ذلك .

ـ لكن ألأنت عذراء ، يا ماريا أوكسيلادورا ؟

ـ اسكت ، يا رضّاع! وأنت ما لك ولي ؟

ـ تأدبي ، يا ماريا أوكسيلادورا . لا ترفعي صوتك عليّ!

تزوج آدولفيتو تشوكيرو بخيورخينا ، لكنه لم يعمرّ طويلاً ، لو شاء الله لعاش أطول مما عاش . لكنه لم يتحمّل القرون وشنق نفسه على سيخ لتعليق الثياب في الخزانة . بعضهم يزعم أن زوجه طبخت له عشباً ساماً . من

يدري! ولما فتح القاضي باب الخزانة ومال عليه الميت وهو يتأرجح ، انتابه ذعر كبير .

ـ اللعنة على هذ الميت القذر! انظر إلى هذا الاستقبال الذي لقيته!

كرميلو مِنْديث وقف إلى جانب خيورخينا خلال التحقيق . وإذا ما غفل القاضي لحظة ، كان يمد يديه إلى جسمها .

ـ اهدأ ، يا منديث . سنلعب حين ينقل المتوفّى .

ـ كما يعجبك ، ياحبّي . أفعل دائماً ما تأمرين به . أنت تعلمين أنْ لا إرادة لي غير إرادتك .

مونتشو بريغيثاس كان يتحدّث بحنان كبير عن بنتي خالته خيورخينا وآديلا ، وعن أمهما معاً .

ـ كانت الخالة ميكائيلا ، بالنسبة لي أماً . كانت طيبة جداً معي ، وكانت ترفّه عني لما كنت صغيراً . كانت تهدي إليّ كتاب مغامرات ديك توربين ، وتلاعب قضيبي إذا كنا وحيدين ، وكان قلبي يقفز من صدري ، حين كانت تقول لي « أيلذ لك ، يا خنزير ؟

حضر دفن آدولفيتو خلق كثير ، فكان يحظى لديهم بودّ ، لأنه كان صاحب فكاهة . وكان مدار حديث المشيّعين عن فريق ثِلّتا ديبيغو ، وعن جمال الأرمل المشتهاة .

ـ هي بجمال أختها!

ـ لا داعي للمقارنة! هما مختلفتان ، لكن كلتا المرأتين كما يجب .

مونتشو بريغيثاس أصيب بالعرج في أرض المغرب ، وعاد من مليلة بساق خشبية ، وهو يستلقي على قفاه من الضحك .

ـ ممّا تضحك ، يا تعيس ؟

ـ أضحك من فكرتي فيما لو كانت روحي من خشب! لكانت ، حينئذ ، الطاميّة!

في بيت عائلتي ، ظلت تنتقل من يدٍ إلى يَد ، وسنين إثر سنين ، ثلاثُ قبّعات بيض من عهد الملك كارلوس ، وهي ذوات شرّابات من خيوط الذهب . كانت القبعات تخصّ الدون سيبيرينو لوسادا ، أحد أعمام والدتي الذي وصل إلى رتبة عقيد وقاتَلَ في مقاطعتي أوردينيس وآرثو ، على هذا الجانب أو ذاك من نهر تِمْبرِهِ بين وادي دوبرا وأرض مِيْلدِهِ ، في ذات المكان الذي خاض فيه حرب عصابات بعد الحرب الأهلية ، كل من مانويل بونته وبينيغنو غارثيا ، الملقب بفوثيّاس . بعض المناظر يلائمها رائحةُ البارود ولون الدم . قبّعات دون سيبيرينو الثلاث استهلكها خالي كليتو خلال الحفلات التنكرية ، ثم أتى عليها العثُّ . من الطبيعي أن تتآكل الأشياء لدى عائلتي ، لأن عائلتي تكلأ السأمَ والانشقاق وترعاهما كأنهما فنّان جميلان .

ـ خيسوسا!

ـ ما بك ، يا إيميليتا!

ـ أتتذكرين تلك السُبحة من الفضّة التي باركها البابا ليون الثالث عشر وجلبتها والدتنا من روما ؟

ـ أويْ ، وما أدراك بها! منذ قرن لم أرها ، أرجّح أنها ضاعت .

ـ بالطبع!

فقدت الخالتان خيسوسا وإيميليتا كلَّ رجاء بسبب صلاتهما دون ضابط ، ووشوشتهما دون راحة ، وتبوّلهما دون نظام . كان الإيمان وحده

يريحهما ، أما الإحسان ، فكانتا تجهلانه . وإذْ كان الخال كليتو يضجر كمحارة ، فكان يقضي سحابة نهاره متقيّئاً في القصرية ، أو خلف الكوميدينة .

ـ راحة ، وأية راحة في التقيّؤ!

كلبة الخال كليتو تدعى بِسبُورا ، وتتغذّى على ما يقذفه الخال قَسْراً ، أو على ما يراجعه بهدوء . فقد كان الخال كليتو يقذف الرجيع بالطريقتين . بسبورا تقوم أحياناً بالعجائب ، وتسير مترنّحة من السكر ، لأن قيء الخال كليتو يكون قوياً عليها في بعض الأيام . كان الخال كليتو ماهراً جداً في عزف الجاز باند . وما كان ينقصه سوى أن يكون زنجيّاً . لعزف الجاز باند سماعاً ، أو أية آلة كانت كالفلاوت والبندورّة وغيرهما ، لا بأس على المرء في أن يكون أرملاً . ذلك يُضفي شيئاً من الأهمية على العزف .

ـ لا أفهمك!

ـ الله! ولِمَ ينبغي لك أن تفهم ؟ هناك أشياء كثيرة لا تُفهم ، يا صديقي . أثناء ذلك لا عليك إلا أن تصطبر .

ـ سأتحملّ عبء ذلك كله .

رفات القديس فرناندس ورفاقه الشهداء السبعة ، (لا داعي لذكر أسمائهم وليَقُمْ بذلك أقرباؤهم!) ترقد في الدير الإسباني في الأراضي المقدسة ، في حي باب توما المسيحي في دمشق . كل المعلومات الواردة عنه في الموسوعات خاطئة تقريباً ، وهذا أهون الشرور لأنه كان قدّيساً ضئيلَ الشأن ، ولا نجد في عائلتنا قديسا غيره . الأب سنتسبان س . خ ، كان فلاحاً يستنشق السعوط وينتهي بتراب كاكاو الخالتين .

ـ أتريد كأساً أخرى ، يا سيد أوبدوليو ؟ هذا الشراب يبعث على النشاط دائماً .

ـ إرضاءً لكما ، ياصديقتيَ الطيِّبتين ، إرضاء لكما .

الأب سنتسبان س . خ ، ما كان يعرف الرحمة أبداً .

ـ يوم القيامة ، سنلقى ـ نحن الأبرار ـ جزاءَنا مسرورين ضاحكين ؛ أمّا الفجار الهالكون فيسقطون في المرجل الرهيب حيث يحترقون وسط عذاب أليم خالدين فيه أبداً . أتسمحين لي بقرص آخر ، يا صديقتي خيسوسا ؟ جزاك الله خيراً . وسنقول لهم والفخر يملؤنا : أمّا كنتم تريدون فتنة الدنيا الفاسدة وملذّات الجسد الآثمة ؟ إذاً ، هذا جزاؤكم . أصْلوها ناراً حامية ، يا ملعونين ، بينا نحن ننعم بالسعادة الأبدية . أتصبّين لي كأساً من الكاكاو يا صديقتي إيميليتا ؟ جزاك الله خيراً .

لم يكن الأب سنتسبان س . خ . يسوعيّاً متميّزاً ، بل كان أشبهَ بجماعة الإسكولابيّين[1] . زِدْ على ذلك ، لم يكن ذكي الرائحة حقاً ، وإنما تفوح منه رائحة جَدْيٍ ، أو تيس فحل .

ـ ما يجري له هو أنه يعيش حياة قديس حقيقي ، ويهمل نظافته الشخصية . هو بعيد عن مباهج البشر .

ـ بالطبع ، هذا أرجح احتمال .

ـ هذا جدّ محتمل ، يا صديقتي . جدّ محتمل . قولا لي : ماذا يفيد تعطير الجسد الفاني والثياب التي هي إلى بلى ، بالمسك والمرّ ، إذا خَسِرْنا الروح ؟

---

(١) رهبان مدارس التقوى .

ـ هذا ، والله ، صحيح!

ـ هو صحيح جداً . لنُعْنَ بالمسألة الكبرى لخلاص الروح ، ولنبتعد عن زينة الحياة الدنيا وباطلها .

ـ سيدي المسيح ، لاهوت وناسوت حقيقي...!

في عام ١٩٣٥ لم تقع أية حادثة في خ ، ج ، ب ، إ . الخطوط الجوية البريدية الإسبانية ، التي طافت خلال ستة أعوام من الخدمة ما يوازي ١٢٦ دورة حول الأرض . مامرتو بيكسون اخترع آلة للطيران سمّاها السنونو ، لكنها كانت تشبه وطواطاً له دوّاستان وتِرس ثابت . لكنه سماها السنونو .

ـ سميتها باسم الطائر الذي يفوق الطيور الأخرى طيراناً . تبعث على الإعجاب رؤيته يدوّم . أتعلمين ، يا آنسة خيسوسا ، أن الله أراد لي أن أطير فوراً في الأجواء كالحدأة ؟ أفضل أن انطلقَ من برج أجراس سان كسوان ديباران .

ـ لا تُقدِمْ على ذلك يا ماميرتينيو! ذلك يشبه أن تنتحر .

ـ لا! يا آنستي! سترين كيف أنك على خطأ .

يوم أحد الفصح من عام ١٩٣٥ ، أطلّ ماميرتو بعد سماع القداس الكبير ، من برج أجراس سان كسوان ، ووضع جناحي آلة الطائرة . و : ثاث! رمى بنفسه في الفراغ لكنه ، بدلاً من أن يطير ، سقط متكوّماً على الأرض . أقبل ناس كثيرون للفرجة عليه . جاؤوا من كربييّنو ، وتشنتادا ، ولالين ، ومن كل الأنحاء . ولما سقط محطّماً ، أحدث جلبة كبيرة بين الناس راكضين إلى هذا الجانب أو ذاك .

ـ اهدؤوا! اهدؤوا جميعاً! ـ كان يهيب بهم الخوري رومموالدو ـ . لقد قام

بالاعتراف منذ عهد قريب ، وتلقّى القربان . وهو صاعد إلى السماء مباشرة . وسدّوه حجراً ، ودعوه يطلّق أنفاسه الأخيرة بهدوء وبعون الله . لطالما حضّر نفسه لهذه اللحظة التي لن تتكرّر أبداً .

ـ لا ، يا رجل! الأفضل نقلُه إلى أورينسه لنرى إن كان بالإمكان إنقاذه في المشفى .

ـ افعلوا ما تشاؤون . أنا أُعفي نفسي من كلّ مسؤولية عن قرارت عشوائيّة .

كان دون روموالدو حَذِراً جداً في كلامه ، لكن رعاياه كانوا يستمعون إليه كمن يسمع سقوط المطر . لُفّ مامِرتو بِكُسون برداء ونُقل إلى أورينسه بسيارة ربُوريدو الذي حضر فوراً . وصل المشفى وهو في الرمق الأخير . نجحت العملية التي أجريت له ، وخلال أيام قلائل أخذت صحتّه تتحسن .

ـ أبقي شيء من السنونو ؟

ـ شيء قليل . ولِمَ ؟

ـ لا لشيء . لأني أرغب في أن أشفى لأحاول تجربة جديدة . أظن أن ما حدث كان نتيجة خلل في حركة النقل .

ـ لا بأس عليك! دَعْك من السخافات . المهم أنك خرجت سالماً . وليس كل مرّة تسلم الجرّة .

دونيا ماريا أوكسيلادورا مورنِثِه أرملة بوراس ، أمُّ الفتاة التي رفضت الزواج بآدولفيتو لأنه يشبه الموتى ، كانت مفرطةً في السمنة ووجناء ، وذات مشية مترنّحة تخالطها حركات منعكسة متناظرة موزونة ؛ أما الخصائص وإطلاق العوادم فمتباينة متنافرة . النظام هو النظام ، وهو :

خطوتان وخمس خفقات للقلب ، انزلاقة سريعة . سكون . نوبة سعال . وشلاّل من الضراط وتكتكة فم . سكون . قرقرة بطنٍ مُجهضةٌ تقريباً ، ونحيب تنفّسي ، وفُواق منفرد . سكون . وهكذا حتى اليوم التالي والشهر القادم والسنة المقبلة ، وما شاء الله . مِبْرد ماركة لوسادا المشهور يزيل بالسحر ودون ألم مسامير أخمص القدم ، ومسامير الأصابع والأظفار الثخينة .

حصون تريلّه حيث يقطن موتى من العرب ، تقوم أسفل مينيو ، أو قل إلى الجنوب منها في منتصف الطريق بين أورينسه وكستريلو ، وبين وادي رَبْيدا ورِيْبيرو . غليشية مايزال يقطنها عرب كثيرون . المشكلة أنهم غير منظورين لأنهم أموات ومسحورون يسيرون تحت الأرض . في حصون تريلّة تقيم أغنى طائفة من العرب في المنطقة كلها ، برئاسة الساحر عبد العزير بن مروان البرتغالي والي مونفورتهِ ؛ وهو أعور ، أحمر الشعر ومجذوم ، لكنه يملك القدرة على تحويل كل شيء إلى ذَهَب سواء كان حجراً أو خنفساء ، أو زهرة من شقائق النعمان أو أمَةً أو أي شيء آخر . وحصون تريلّه مملوءة بحجارة وخنافس وشقائق وإماء من ذهب . باسيليو ريباديلو مُكارٍ عند سوبرادو دو بيسبو ، كان ينقل خمر العرب ليلاً كيلا يراه المسيحيون ، وكان يُدفع له أجره ألواحاً من الأردواز تنقلب في الطريق إلى ذهب . وقد جعله العرب يُقسم بأنه لن يقول شيئاً لأحد ، وإذا لم يحترم كلمته ووعدَه ، فإن الألواح ستعود سيرتها البائسة الأولى . وقد أخافت زوجَه كَسِيلدا غورغولفيه هذه الثروةُ الطائلة .

ـ هذه الثروة جاءتك من التهريب . ـ قالت لزوجها ـ لا تنكرْ ذلك عني . سوف تتحرّى بيتك شرطةُ مكافحة التهريب . وسوف توضع في « الفلقة » .

ـ كلا ، يا امرأة! ـ أجابها باسيليو ـ هذا المال كسبته بطريق شريفة . المشكلة أنني لا أستطيع أن أقول لك كيف .

ألحّت كسيلدا وألحت ، وتوسّلت ، وهدّدت ورجت حتى اضطُرّ باسيليو إلى الإقرار لها بالحقيقة ، وقد أرهقته بتقريعها وتعطّفها .

ـ لكن ، لا تقولي شيئاً لأحد . وإذا ما علم العرب ، فلن يدفعوا لي مرة أخرى سنتيماً واحداً .

كسيلدا خانها الحذر فزلّ لسانها ، وعلم العرب أخيراً . وأصبحوا لا يفتحون له الأبواب عقاباً وفاقاً له . ضرب باسيليو زوجه ألف عصا ، لكن الثروة فرّت منه إلى الأبد حتى مات بمضي السنين ومشيئة الله في الفقر والعمل مُكارِياً .

عباءة الآنسة رامونا أنيقة جداً ؛ هي تستر قليلاً لكنها أنيقة حقاً .

ـ أرغب في أن أتعرّى عرياً كاملاً ، لكنني أشعر بالبرد .

ـ لا تفعلي ذلك ، يا امرأة!

الآنسة رامونا تفكّر في أن الحياة قصيرة ، وأن الشيخوخة ما هي إلا عادة نتعوّدها .

ـ أنا قلقة جداً ، يا ريموندينيو ، لا جدال في ذلك . المرأة عجوز في الخامسة والعشرين ، لكنّ الرجل أصلب منها عوداً ، فقد يمتدّ سنّ الشباب بالرجل حتى الثلاثين ، وأحياناً حتى الخامسة والثلاثين . أتعطينني قبلة ؟ أنا اليوم ، شبه حزينة ، ولا أدري ما يجري لي . إذا كنت تظنّ أني صعلوكة ، فأنت مخطئ ، يا ريموندينيو .يمنحني الكلب من اللذّة مثلما تمنحني أنت ، على الأقل ، لكنني أحبّك أكثر مما أحبّه . يا للمسكين ، وايلد! أنتم ـ

الرجال ـ نزقون جداً ، وأنت أشدّهم نزقاً ، وأنا أرضى بأن أشبع نزواتك ما استطعت . نحن ـ النساء ـ أكثر عزلةً من الرجال . لذلك تجد بيننا حمائم أكثر مما تجد غرباناً . لو كنت أعلم أنني لن أصاب بالبرد ، لاندسست عاريةً في السرير ، ولا أنهض منه خلال شهر .

ولزم ريموندو كسندولفس الصمت .

ـ أتريدين أن تصبّي لي مزيداً من الخمر ؟

ـ بالطبع ، نعم!

ـ أتدعينني إلى تناول عشاء من الهليون الكبيس ؟

ـ أشكر لك جداً أنْ طلبت مني ذلك ، يا ريموندينيو .

يزعم الناس جميعاً أن دونيا ريتا فريره صاحبة معمل أقراص «البسكويت الإنكليزي» تزدري زوجها الثاني ، لكنهم غير محقين في زعمهم . دون روسيندو بيلار سنتيرو لا يزدريه أحد ، وهو معنيّ بكل ما يمسّه بما في ذلك الازدراء . لكن الأصحَ أن دونيا ريتا مغرمة بدون روسيندو ، بل يجب القول إنها مغتلمة ، وأموالها الطائلة تحمله على امتطائها مرتين في اليوم . دونيا ريتا لبوة لا تتعب من العِفاس والمِراس في السرير ، وأحياناً لا تصبر حتى تبلغ السرير ، بل يمسي كل مكان صالحاً .

لويسينيو بوثيلو خادم دون بينيغنو المخصيّ مات خلال الحرب ، لكنه مات حتّف أنفه . أولاً ، أُصيب بالعمى ثم بالتهاب الرئة فالموت . لويسينيو بوثيلو يلقب ببرولو أي «بطّة» ، لكن ، بالمعنى الحسن وليس السيءَ .

ـ برّولو!

ـ امرك ، دون بينيغنو!

ـ قف على رجل واحدة ، واصبر حتى لا تستطيع الاحتمال .

ـ سمعاً وطاعة يا سيدي .

آدغا تعلم حق العلم تاريخ الجبل .

أودت بالمسكين بيدويروس زلّة يد ، ومات المسكين كما يموت المجرمون ، ولا يمكن المُزاح مع المشنقة التي لا يوجد فيها سرعة خلفية . شُنق المغفل بيدويروس دون سوء نيّة ، لكنه شُنق . وهو لطالما ارتطم بمسألة النوايا . أبوه خوري سان ميغيل ديبوثينيوس تصرف مع الميت تصرفاً جميلاً ، فأقام له ثلاثة قداديس ودفنه حسب الطقوس المقدسة .

أوتيلو ، أو ثيرولاس يُسمح له بدخول بيت بروتشا ؛ لكن لا يُسمح له بالحديث .

ـ إمّا أن تُشغل نفسك بواحدة ، أو تنصرف . لا يمكن المجيء هنا للدردشة .

صهره تانيس غاموثو ما كان يكلّمه .

ـ حمّيَ قذارة خالصة . لولا روسا لكنت شققت رأسه منذ فترة . لا يمكن الثقة بأمثاله . مدّ لهم يدك ، يأخذوا ذراعك ، كما يقال عادة .

مارتا البرتغالية تفضل الموت جوعاً على الاضطجاع مع ثيرولاس .

ـ أموت من الجوع ، وأتسوّل ولا هذا . أوتيلو تيس يثير فيَ الغيثان . هو مقزّز .

زوج دونيا ريتا الأول كان تاجراً طويل القامة ، سميناً وناعم البشرة ؛ أطلق على نفسه النار من بندقية هرباً من الضجر الذي يعانيه . زوج دونيا

الأول كان يُدعى كليمِنْتِه الملقّب بآبوندا نثيا أو وَفْرة . دون كليمنته باريث كربايّو كان من قرية مونتبيلوسو في خورنية سانتا أوفيميا ديبيورْنيدو التابعة لمدينة كستريلو في مقاطعة رينوس جنوبي جبل نوفرِه ، وقد كسب ثروة من تجارة التونغستين . الحقيقة أنه انتفع بها قليلاً . إذ راح دون كليمنته يضجر شيئاً فشيئاً ، والضجر أسوأ عادة . وذات يوم ، لم يستطع أن يتحمل أكثر مما تحمل ، فجهّز بندقية بخرطوشة خردق لصيد الذئاب ، وجلس جِلسة هادئة مريحة على مقعد في الصالون ، وأدخل ماسورتي البندقية في فمه وضغط الزناد ، وتطاير رأسه مائة قطعة أكبرُها لا يزيد على حجم خوخة ، والتصق دماغه بالمصباح وكان لا بد من تنظيفه بالسيدول . كان لدون كليمنته ودونيا ريتا سبعة أبناء كانوا ما يزالون صغاراً في تلك الأوقات . حين ترمّلت دونيا ريتا كانت في الثانية أو الثالثة والثلاثين من عمرها وكان عندها رغبة في العراك والدلك . وإذا ما طلب الجسد عراكاً فكأنما يعاني عطشاً ، ووجدت ريتا عزاءها بمرشدها الروحي دون روسيندو بيلار سنتيرو ، الواعظِ الذي كانت على علاقة به في وقت سابق .

ـ لِمَ لا تخلع جلباب رجل الدين ، يا روسيندو ، ثم نتزوج كسائر الناس ؟

ـ لكن ، كيف لي أن أتزوجّ ، يا تعيسة ، إذا كنت رُسمت كاهناً لإقامة القداس للكبار ؟ ألا تعلمين ذلك ؟

ـ يا لله ، لهذه النعمة! لكنك تتجاوز معي مسألة العِفّة ، أليس كذلك ؟

ـ لكن ، ما علاقة المؤخرة بإوقات الصوم الأربعة ، يا روح الله ؟

كلاب تانيس غاموتو : ليون ومارنييرو وقيصر ، شجاعة ومخلصة ومطيعة ، بصحبتها تستطيع السير في الطريق مغمض العينين لا تخشى

اقتراب ذئب أو خنزير بري . وكان تانيس يربّى كلاب ماشية ذكية ، لعوبة ، صخّابة وقادرة على مطاردة حيوانات الجبل إذا علمت أن ظهرها محميّ . تانيس خبير جداً بالكلاب ، فهو يرعاها جيداً ويربيها وينتفع بها .

ـ توجد عيوب أخر أسوأ من هذا العيب . ألا تعتقدين ذلك ؟

ـ عيوب كثيرة ، يا بني ، عيوب كثيرة .

في حانة راوكو يتجادل ريموندو كسندولفس ، وروبين لبوثان وقشتالي يحمل بطاقات تعريف عليها صليب كَلاَ تْرَابا واسمه بأحرف كبيرة : توريبيو ديمغروبيخو إِيْ ديبوستيِّو ديل أورو .

ـ أهو من النبلاء ؟

ـ هذا كان ظنُّنا جميعاً حتى أخذه الحرس المدني مقيداً ، لأنه قام بعملية نصب واحتيال في أورينسه .

ـ كان الله في عونه!

ـ اسمه الحقيقي ، كما سمعت ، توربيو إكسبوسيتو . توريبيو ديمُغْروبيخو كان اسم القديس وليس اسمه ، سانتو توريبيو ديمغروبيخو أسقف ليما في البيرو الذي نشر بجهده وحماسته الدين المسيحي في أمريكا الهسبانية .

ـ عظيم!

ـ أنت ترى يا سيدي أن هذه المعلومات حصلت عليها من السكرتير .

ـ حقاً ، حقاً!

ـ أما بوستيوديل أورو فهو اسم قريته في ثامورا أرض الخمور . يبدو أنه كان مطلوباً من عدة محاكم .

ـ ولجرائم مختلفة ؟

ـ على الأرجح .

على ذكر توريبيو ديمغروبيخو ، كان ريموندو كسندولفس وروبين لبوثان ، يشتبكان في نقاش حادّ جداً . أما الآخرون فقد لزموا الصمت لأنهم ما كانوا يجرؤون على إبداء آرائهم . كانت المواقف كالتالي : توريبيو ديمغروبيخو كان يؤمن بالله وبرجال الدين ، وهذا خير الأفكار . ريموندو كسندولفس يؤمن بالله (يسميه الخالق الأعظم) ، لكنه لا يؤمن برجال الدين لأن هؤلاء يبدون له ماسونيين . وروبين لبوثان كان يؤمن برجال الدين ولا يؤمن بالله!

ـ هراء ، أي هراء!

ـ هراء كبير!

قطع النقاشَ الحرسُ المدني ، وكانت الساعة تجاوزت الواحدة فجراً ، شحب لون توريبيو ديمغروبيخو لما قيّده الحرس .

ـ أأنت توريبيو إكسبوستيو ؟

ـ خادمكما!

ـ استسلم!

لم يُبدِ توريبيو مقاومة وسمح بتقييده ، وغاب في ثنايا الليل ينحدر في طريقه يرافقه عنصرا الحرس المدني من كلا الجانبين .

ـ الطقس بارد...!

ـ سيزول عنك البرد بالمشي .

خطّطت دونيا ريتا كيلا يفلتَ دون روسيندو من قبضتها حياً ، واستطاعت تحقيق ذلك ، وسوف تقتل المرأةَ التي يلاحقها ، وبدأت دونيا ريتا تهاجمه من جهة البطن والفرج ، وأحكمت سيطرتها عليه بإثارة الغرور والحرص لديه ، وكان دون روسيندو شَرِهاً ، مغتلماً ، مغتراً وبخيلاً .

ـ خذ هذه الساعة التي كانت للمغفل زوجي المرحوم ، أنت أجدر بحملها منه لأنك أكثر رجولة .

ـ شكراً ! سآمر بنقش تاريخ إهدائكيها إلي .

وأفصحت دونيا ريتا ذات يوم عن قصدها .

ـ أنا لن ألجأ إلى اللف والدوران ، وما الداعي! إذا تخلّيت عن ثياب رجل الدين وجئت تعيش معي ، أعطيك مليون بيزيتة . ما رأيك ؟

أجابها دون روسيندو بنعم ، وبالطبع ، وواضح! ولن يخطئ مرة أخرى ، وانتقل ليقيم مع الأرمل ، وكانت الفضيحة التي ثارت ، ضخمة ، لكن دون روسيندو كان يبتسم .

ـ الانتقاد يمضي والنقود تظل في البيت . أنا وريتا سعيدان جداً ، ومتى أستطع ترتيب وضعي ، نتزوج . ماذا يريد ربنا غير أن يرى مخلوقاته سعيدة ؟

في مقبرة سانتا روسينيا ديكسيريكو ينمو اليبروحُ الذكرُ منه والأنثى ، الذي تعرف صفاتُه من الجذر إذاربُط به كلب . فالمرأة التي تلمس اليبروح ، تحمل . ويكفيها أحياناً أن تشم رائحته . والكلب يعوي إذا أراد أحد ما أن

ينام كيما يذكره بقول الحقيقة : أتهم نفسي بأني قتلت بالبلطة عابر سبيل كان يزين قبعته بالأقحوان ولحيته بالفراشات ذات الألوان المختلفة ، قتلته لأنه كان ينظر إلي بعين السوء ، وله علي دين مؤجل ، ولا أبالي إن شنقت ، لأني أعلم أن الله سيغفر لي خطيئاتي . حرقت الميت بأعشاب الكاميليا كيلا يكنْ علي حقداً . ونصب الجلاد المشنقة في مقبرة سانتا روسينيا فوق نبات اليبروح كيما يغذيه المشنوقون بالمني الذي يبعث الحياة ، وبالدم الذي يبقيه ويمده بالقوة ، وباللعاب الذي يطليه ويميزه عن غيره . عينا لويسينيو برولو ضعيفتان ، فأوصى دون بينيغنو أن تعالجا بجذر اليبروح المدقوق بالزيت والخمر .

ـ أوشفي ؟

ـ لا ، يا سيدي . بل عمي .

إذا كانت أعضاء الرجل الجنسية مرتسمة على جذر اليبروح ، فكل رجل يمر بقربه يصبح خِلْب نساء حتى آخر عمره ، أو حتى تقتله نزواته من الحب ويدفنه رجال الدين إشفاقاً عليه . أما توريبيو ديمغروبيخو إي بوستيو ديل أورو ، فقد قاده الحرس المدني حسب الإجراءات المألوفة حتى بونفرادا صاعداً سفوحاً وهابطاً منحدرات . لو كانت أعضاء المرأة مرتسمة على جذر اليبروح ، فكل امرأة تمر قربه ، سوف يحبها قزم متأنق ذو شعر كث غير مُسرّح يسمى مندراغورو ، يتغذى على القراص والقمح المجروش ، ويتكلم دون أن يفتح فمه .

ـ أتحبينني ، أيتها المرأة الجميلة ؟

ـ اسكت ، يا ولد ، ستموت من الحب .

قبل قلع اليبروح ، يجب رسم ثلاث دوائر حوله بالرمح ، في حين تغني إحدى العواهر أناشيد دينية ، ويرقص رجل دين غير مكلف ، الكانكان مشمراً رداءه حتى عورته . يمكن قلعه أيضاً بربط جذره بحبل وإجبار كلب جائع على الشد به دون أن يأخذ نفساً ، حتى إذا صرخت النبتة من الألم ، مات الكلب رعباً .

ـ لا تدفنه ، بل اتركه للغربان تأكله .

كانت دونيا ريتا تمسك بدون روسيندو من الفم ومن الفرج ، أو بحليمات الذوق من جهة ، حتى العفصة الرقيقة من الجهة الأخرى .

ـ امتطيني ، فأنا من أجل ذلك أدفع لك ، ياتيس! أيرضيك أن تتغذى غذاءً جيداً ، ثم تلعب بأعضائك ؟ هيا ، اسهر على الأطفال حتى يناموا ، وعد إلي سريعاً ، ولا تنس أن تمنحهم بركتك .

ـ لا تهتمي!

براوليو داودِه أحد خدم الآنسة رامونا (الخدم الأربعة عجائز جداً ، وهم نصف عميان ونصف طرشان ومصابون بالتهاب الرئة والرماتيزوم أيضاً) كان في الفليبين أيام كانت ما تزال إسبانية . براوليو دواده كان دائماً صعلوكاً محترفاً ومتحذلقاً .

ـ ألا تتذكر ذلك القرار المشهور الصادر عن الجنرال كاميليو بولا بييخا في جزيرة/ منديناو/ قائلاً بأنه سيخصي كل مسلم يقبض عليه وفي يده سلاح ؟

ـ لا ، لا أتذكرهُ . أليس هو من اختراعك ؟

لما مات براوليو دواده قد كان بلغ من الهزال مبلغاً حتى صار بلا وزن تقريباً .

ـ أنطلب إقامة قداس من أجله ، يا آنسة ؟

ـ أف! أظن تكفيه وتزيد عنه صلاة : أبانا الذي في السماوات .

تنبش الخنازير الأرض بحثاً عن ترفاس الجبل بمعرفة ،وتقلع الكلاب جذور اليبروح بأسنانها . ينبغي للكلب أن يكون أسود ثم يموت بعد قلعها . كلا الأمرين يتمان معاً .

ـأتريدين أن نحوّل الرجال إلى قنافذ والنساء إلى ديدان ؟

يبيع الشيطان دهونه من أجل الطيران في معرض القديسين ديونيس وليونيس في سان روكينيو في مالطة .وليت مامرتوبيكسون عرف ذلك!

تبيعها ساحرة بترخيص منه ، أو على الأرجح ، يبيعها الشيطان نفسه مقنعاً ، حتى مطلع الشمس ، بنصف ثمنها كيما يستطيع الفقراء التمتّع بمزاياها .

ـ هي من أجل الطيران كالعصافير في السماء ، وكأرواح الموتى في المطهر! من يُردِ الطيران فليطر .

تُحضّر الدهون الزيتية ، ويوجد منها مراهم أشدّ كثافة ، بطبخِ دهن طفل عربي أو طفلٍ لم يُعمّد بعد ، بماء الورد في قدر من نحاس . حين يغلي الماء حتى الكفاية يُخلط الراسب بحيض أرمل ، ومسحوق عظام مشنوق ، وبول امرأة ، وبجذور اليبروح ، ونباتات الشيطان الثلاثة : السيكران الذي يساعد على الطيران في الهواء ، ويزيل آلام الأسنان والرأس والأذنين ؛ والبلادونا التي تدهن بها النساء عيونّهن ، وكذلك الممثلون الكوميديون ؛ وتفاحة المقابر ذات الأشواك . (الأشواك الشبحية) ، الأشواك الجهنمية ، التي يطلقها ينبوع أحلام الموت الحلوة . يُباع في سان روكينيو أيضاً إكسيرُ

لإطالة العمر ، وشراب للمخفقات في زواجهن ، كلُّ جرعة منه بريال .

ـ أتريد أن تمحو القرون من الضمير ، ثم تتلوّث بلطخة الدعارة ؟

ذات يوم ، أخفق دون روسيندو مع دونيا ريتا ، فقامت بضربه ضرباً مبرّحاً ، حتى اضطرَّ عمال معمل «البسكويت الإنكليزي» إلى التدخل ، وعلى رأسهم المشرف كاسيانو آرييل ، وكان رجلاً يتحمّل المسؤولية دائماً .

ـ اهدئي ، يا آنسة! بحقِّ الله ، أطلب منك الهدوء . كنتِ على وشك أن تقتليه . إذا كان دون روسيندو غير مفلح ، فسوف يقوم أحدنا مقامه . اهدئي ، يا آنسة ، نحن على وشك أن نستاء . معذرة ، غطّي ثدييك ، فقد تُصابين بالتهاب الرئة .

في مقبرة سانتا روسينيا ديكسيريكو ، يلعب طرّةً ونقشاً الخال كليتو ، والحارس فاوستو بلنتشون غونثالث المولود في موتياديل بلانكار في لامنتشا ديكوينكا . شيء لا يُصدَّق ، لكنه مؤكد لأني رأيته .

ـ النذالات لها سحرها أيضاً ، يا كاميليتو . ليس السوء في أن تطأ اليبروح ، وإنما في أن تشرعَ تطوف وتظلّ تطوف في قاع الحياة . انظر إلى ريتا فريره التي هي على شبابها وإمكاناتها ، تسير في دروب الموت متوسّلة .

قتلت الذئاب في ليلة واحدة ثلاثَ بقرات وعجولَها في جبل سان كريستوبو . لم يحسب أحد أنها موجودة فيه . خرج تانيس غاموثو بحثاً عنها ، حاملاً بندقيته وترافقه كلابه . في الليلة التالية ، قتل اثنين منها ، أحدهما كان يزن خمس أرّوبات . لم يكن ذئب تاكوميرا ، لكنه لا يقلّ عنه . جُرح الكلب قيصر جرحاً بليغاً ، وكان لا بد من الإجهاز عليه

بالسكين . وهذا يبعث على الألم دائماً . أمر تانيس بدبغ جلدي الذئبين وأعطاهما مع ثلاثة جلود أخرى عنده ، لأنونثيا ثيون سبديلّه العاهرة في ماخور بروتشا .

ـ خذي ، اصنعي منها غطاءً لغودنثيو . هذا يجعله مرتاحاً جداً .

لما أرسل إليّ أبناء عمومتي علب التبغ من لاكورونيا ، حملتها إلى ماركوس آلبيته .

ـ وعْد الحرِّ دَيْن!

ـ شكراً لك . سئمت مضغ التبغ البرتغالي الذي يضيع كلّه في اللعاب . ستعودني عادة سيئة .

جلبت كاتوكسا بنته حوالي نصف لتر من الخمر من الحانة لماركوس آلبيته .

ـ أنا اليوم ، كما أريد أن أكون . قلما وجدت نفسي هكذا .

وغيّر الرجل لهجته .

ـ اعذرني إذْ خاطبتُك دون كلفة أمام الناس . حسن! الحقيقة أن كاتوكسا لا تبالي كثيراً ، لا تبالي بشيء أبداً .

وبدا لي أن تلك اللحظة ملائمة .

ـ خير لنا أن نتخاطبَ دون رسميّات . قبل الحرب كنا نتخاطب دون كلفة . وأنت أيضاً غوكسيندي ، غوكسيندي مثلما أنا تماماً .

ـ نعم ، صحيح . لكني غوكسيندي فقير ، غوكسيندي لا يصلح لشيء .

أحضرت كاتوكسا قدحين من الخمر ، أحدهما لماركوس آلبيته ، والآخر لي . قدحي كان يُسرّ الناظر إليه لنظافته .

ـ أتريد أن أغسل صفيحة الفضلات ؟

ـ نعم .

داعب ماركوس آلبيته علب التبغ .

ـ أتعجبك أكثر من تبغ الورق ؟

ـ لا أدري ما أقول لك .

طارت في السماء شرارة برق من الأمل . على الأرجح هي حمامة أليفة .

ـ أنا لا أثق حتى بالله . من قبل ، كان مايزال يحميني . لكن ، انظر ما أنا عليه الآن : مسجّى على هذا النعش ذي العجلات .

يغني محور عربة الثيران التي تسير قافزة في الطريق ، صريرها ينفّر الذئب ، وينبّه الثعالة ، والعالم علبة أنغام ، وجلد الأرض مثل جلد الطبل ، مثل غشاء الطبل . دهن ماركوس آلبيته النجمة من جديد ، ولمّع مسامير حروف اسمه الأول .

ـ انتهيت من حفر تمثال القديس تقريباً . أخرجت سان كاميلو على خير ما يكون وسوف ترى . سأعطيكه الأسبوع القادم . لا ينقصني إلا أن أمرّ عليه بورق السنفرة .

فيليتيانو بيلاغابه سان مارتينيو تزوج متأخراً ، كان خطيباً لأنغوستياس ثونيان كوربتين لمدة ثلاثة وعشرين عاماً . ودام زواجهما قليلاً ، حتى لم يبلغ الساعة ونصف الساعة ، لما خرج العروسان من الكنيسة ، قالت العروس .

ـ أنذهب وأمّي إلى المقبرة للحظة لنضع باقة ورد على قبر أبي ؟

فأجابها العريس .

ـ اذهبا أنتما . سأنتظر هنا .

لما عادت آنغوستياس ، وجدت فيليثيانو منصرفاً . خرجت ريميديوس صاحبة حانة راوكو وأعطت آنغوستياس ظرفاً .

ـ خذي . ترك فيلينثيانو هذا الظرف لك .

فتحت آنغوستياس الظرف مُثارةً ، فوجدت في داخله رسالة مكتوبة بحروف ناعمة «اذهبي ، عليك الخرء » . ولم تسمع بعد تلك اللحظة أي شيء عن فيليثيانو . كان يبدو كأنما ابتلعته الأرض . قال بعضهم إنه رآه في مدريد يعمل جابياً في الحافلات .

ـ ماذا صنعت آنغوستياس ؟

ـ وماذا ستصنع ؟ انتظرت في البدء ، وهي معتادة على الانتظار . انتظرت أربع سنين أو خمساً ، ثم صارت راهبة ، فما كانت تملك الشروطَ لتصبحَ عاهرة ، لهذ العمل تُطلب فتيات أنعمُ منها ، لنقلْ أحدث سناً .

آل بيلاغايه متبطلون جداً وكانوا كذلك دائماً ، لا يصلحون إلا للقليل من الأمور ، هذه هي الحقيقة . لكنهم إلى جانب بطالتهم ، كانوا متكبرين ونظيفين للغاية وذوي أذواق وميول خاصة بهم . وآنغوستياس ، على العكس من ذلك ، كانت متحذلقة عادية لا تكفُ عن الضحك وتمسك السكين بطريقة شنيعة ، وكانت تردّ شعرها عن وجهها حين تمسك بالكأس التي تسميها فنجاناً .

ـ كل ذلك مؤلم جداً .

ـ نعم ، مؤلم جداً . وهو أسوأ من العهر . العهر شائع بوفرة في أوساط

خير الأسر ، أما عهر أنغوستياس ، فعلى العكس منه ، يجري وسط ناس عاديين ، وصار الآن كل شيء مقلوباً .

ـ ولم لا يتخلّ عنها لما كانت مخطوبة ؟

ـ وما أدراني! يقول إنه حجز المسكينة خلال سنوات طوال .

ـ وقد يكون أسوأ من الانتظار لو جعلها تسأم .

ـ وهذا حق أيضاً . وتأمّل النتيجة .

تقول الآنسة رامونا إن أنغوستياس قطعة أثاث من صنوبر .

ـ هي مثل منضدة ليلية من الصنوبر البلدي ، وعلى الأرجح ليست صنوبراً . كانت آنغوستياس محدودةَ التفكير دائماً . هذي هي الحقيقة . بعض النساء لا ينتمي إلى الجنس البشري . أنغوستياس دابّة تشبه بقرة صفراء .

كل إنسان يحمي نفسه كما يستطيع . انطلق فيليتيانو بيلاغابه هارباً ، ولا يعرف كيف وُفِّق إلى ذلك ، لأن كل حالة لها سماتها الخاصة بها .

ـ أتتذكر ميداردو كونغوس ، ذلك البيطريَّ البونفريدي الذي كان بطول شبر ويغشّ في لعب الورق ؟

ـ نعم ، كيف لا أتذكره ؟

ـ حسن ، إذاً . ميداردو صنع العكس . هو لم يهرب ، وإنما هربت زوجه منه ، فأقام مأدبة لما يزيد عن مائة شخص احتفاءً بهروبها ، وأنفق عليها مبلغاً محترماً . «لا أحسب أن زوجي تجرؤ على العودة بعد كل هذا . ـ كان يقول لأصدقائه ـ لو رأيتم الهدوء الذي خلّفه ذهابها!» .

ميداردو كونغوس ورِث من أبيه الذي كان عامل برج الفنار قفصاً فيه نورس أنثى محنّطة .

ـ كان اسمها دُوْلْثِه نومبرِه تخليداً لذكرى خطيبة أبي الطيب قبل زواجه بأمّي الطاهرة ، رحمهما الله . تلك كانت عادات صريحة صادقة ، وليس كعادات اليوم الخرعة الفاسدة .

ـ تأدّب ، يا كونغوس!

ـ معذرة!

تَرتيسيتاديل نينيوخيسوس مِنْغيث غَنْدَريلا زوجُ البيطري الهاربة ، تقصّ شعرها كالغلام ، وتدخّن التبغ أمام الرجال .

ـ ما كان أوقحها! وإلى أين ذهبت ؟

ـ لم تبتعد كثيراً . ذهبت إلى سِرِّيا مع كاتب بالعدل مزيّف يرقص التانغو والفوكستروت جيداً جداً ، معلوم أنها سئمت عرج زوجها ؛ الحقيقة أن بعض النساء حتى لا يتصورن هاتين الرقصتين .

رأينا أنا وريموندو كسندولفس بنت عمنا تتنزّه بين أشجار الحديقة ، كانت تبدو أنيقة ، وحيدة شامخة تحت مظلتها . كانت تقود كلبها إلى جانبها . نتأملها أنا وريموندو خلال فترة طويلة دون أن نقول شيئاً . ولأي شيء ؟ وصلت قريبتنا رامونا حتى النهر . وقفت على ضفتّه برهة وهي تحدّق في الماء ، ثم قفلت راجعة بهدوء كبير إلى البيت . انصرفتُ ، وتظاهر ريموندو كأنما وصل لتوّه .

ـ خذي وردة الكاميليا المعتادة .

ـ شكراً جزيلا!

ـ أخرجتِ للنزهة ؟

ـ لا! وصلت حتى النهر لأرى الماء يجري . في مثل هذا اليوم أغرقت أمي نفسها منذ سنوات بعيدة .

ـ حقاً!

ابتسمت بنت عمي رامونا بحزن .

ـ ما أسرع مرورَ الوقت ، يا ريموندينيو! لما ماتت أمي كنت صغيرة ، كنت في الثالثة عشرة من عمري . أحسست أن العالم ينهار فوقي لكن العالم لا ينهار أبداً فوق رأس أحد .

ـ كلا!

ـ كلُّنا نهرم . وبمرور السنين يزول عنا كثير من الأوهام وكثير من الغرور .

ـ هذا صحيح .

ـ وكثير من الهوس أيضاً .

ـ وهو كذلك أيضاً .

بنت عمنا رامونا فيها غرابة . وريموندو يراها جميلة للغاية .

ـ دعني وحيدة . لديّ رغبة في البكاء .

تيريسيتاديل نينيوخيسوس ، لما تقرّ بت في سِرّيا من فيليمون توثيدو روثا باليث الكاتب بالعدل دون أوراق نظامية ، تصرّفت بشكل مثالي ، ذلك من أجل التمويه على أبناء البلد وتضليلهم .

ـ يجب تنظيم ثلاث روابط : رابطة كسوة الفقراء ، ورابطة نقطة الحليب ورابطة تشجيع الهوايات المتأخرة .

ـ بالطبع ، ونطلب مباركة قداسته كيلا يفوتنا شيء . ينبغي لنا أن نعمل الأشياءَ بشكل حسن منذ البدء .

ـ وقد نستطيع إنشاء مؤسسة لإرشاد الفتيات المنحرفات إلى الطريق القويم الذي لا ينبغي لهن أن يحدن عنه .

ـ بالطبع ، ومؤسسات أخرى لدمْجِ الغجر في المجتمع المسيحي والإسباني وضمّهم إلى ديننا الكاثوليكي المقدس .

دونيا أسونثيون تراسبارّغا ديميندِث ملقبة بتشونينيا الحلوة ، لأنها متزوجة ببائع الحلويات ميندِث ، فيلومينو ميندث بيلارمين ، تشونينيا الحلوة سألت بحياء :

ـ أو سنحصل على المبالغ ؟

ـ آي ، لوجع الرأس هذا!

لما أحسّت تيريسيتا ديل نينيوخيسوس بالاطمئنان ، أحس الناس بالاطمئنان شيئاً فشيئاً . هذا هو القانون الطبيعي . فألقَتْ بالروابط الخيرية وراء ظهرها . وخُرْء على الفقراء! ورابطة نقطة حليب إنْ هي إلا نقطة حليب! ومن أراد أن يصبح خورياً ، في لحظة يأس ، فلينتحرْ ويصبح خورياً! ولتستمتعْ الفتيات المنحرفات بأوقاتهن ، فالحياة قصيرة! وليظلّ الغجري مع عنزه وقرده! أقول لما بدأت تيريسيتا ديل نينيوخيسوس تشعر بالاطمئنان والثقة ، اندفعت في حياة داعرة بحماسة . كان توثيدو يحاول أن يخفّف من جموحها قليلاً ، لكن ، دون نتيجة واضحة .

ـ اصنعي ما تشائين ، يا تيريسيتا! لكنْ ، لا تثيري ضجّة ، ولا تنادي من فوق السطح ؛ لا أرى حاجة للتدعّر مع طبل وزمر وبمرأى من الناس ، بإثارة الفضيحة والإعلان عن حياة منحلّة . فكّري في الأمر ، تَريْ أني على صواب . أنا رجل عصري ، لكن ، للصبر حدود أيضاً .

ـ بالطبع ، سامحْني مرة أخرى ، يا فيليمون ، يا حبي . ذلك أني لا أستطيع تجنّب ما أقوم به . لا تتركني وحيدة أبداً . أتأخذني إلى الرقص ؟

تيريسيتا ديل نينيوخيسوس تحبّ لبس قبّعة عريضة الأطراف ، وتحب أن تلعب لعبة الشيطان .[1]

ـ لكن ، أتظنين أنك في سنّ مناسبة ؟

ـ الله! ولِمَ لا ؟

تيريسيتا ديل نينيوخيسوس تتكلم بأسرع مما هو مألوف .

ـ أتمنّى لو قُطعت ساقاك مثل ماركوس آلبيته ، يا حياتي ، كيما آخذك في حضني وأجعلك تبول عند الباب وقضيبك مشرعُ ليرى الناس جميعاً كم أحبّك ، وكم أُعنى بك كأنك مركيز .

ـ اسكتي ، يا امرأة! مالك ولهذا الهراء!

ـ ليس هراء يا مليكي . نعم ، أحبك أنت ، وليس كونغوس .

تشونينيا الحلوة صَناع وتُعنى بالاقتصاد المنزلي .

ـ ألا يعجبك اللهو ؟

ـ نعم ، يا امرأة ، هو يعجبنا جميعاً .

---

(١) لعبة صبيان على شكل اسطوانة صغيرة دقيقة الحصر نحينة الطرفين ، يقذف بها في الهواء وتلتقط بخيط مشدود الى عصوين . (المترجم)

تشونينيا الحلوة على علاقة بعاملين في محلّ حلويات زوجها ، صانعِ الرقائق ، وصاحب المِسطح . كلاهما يمارس الجنس بمرح وظرف . لكنْ ، إذْ كانت هي متحفّظة ، فما كان أي منهما يشكّ في أنها تتمتّع بسحره على شكل حصْريّ وليس على شكل شراكة غير معروفة لهما .

ـ أنا ملكك ، يا حبي! لا يمكنني أن أحبَّ أحداً كما أحبّك .

يجلس روبين لبوثان على الكرسي الهزّاز ويقرأ بصوت عالٍ كلّ ما سبق .

ـ أظن أني كسبتُ فنجان قهوة وقدحاً من الكونياك إضافيين . وإذا عثرتُ على أقراص شوكولا ـ لأن الوقت صار متأخراً ـ فسوف أحملها الى روسيكلير كيما تسمنَ قليلاً . تأمل هذا الهوس عندها بجعل قرد مونتشا يستمني! لا أحد يفهم النساء أبداً!

روبين لبوثان ذو مظهر حسن جداً . أمّا شراهته فجاءته بالوراثة ، لأنه من أسرة ميسورة الحال ما تزال تتناول طعاماً ساخناً منذ خمسة أجيال على الأقل .

ـ لا ينبغي لنا الاهتمام بالأشياء اهتماماً مُفرطاً . فالناس يدافعون عن التصنيفات الجامدة أكثر مما يدافعون عن الحقيقة . لأن الحقيقة نسبية دائماً .

لفّ روبين لبوثان سيجارة .

ـ هذا التبغ يجلب مزيداً من المصائب كل يوم . أخيراً ، ماذا نصنع لك!

روبين لِبُوتان ينظر من النافذة . المزروعات جد مبللة . وفي الطريق يسير فتى راكباً دراجة .

ـ نعم . آلان بو على صواب : أفكارنا بطيئة وذابلة ، ورتيبة أيضاً . وذكرياتنا غدّارة ذاوية وصدئة كالأمواس . معلوم أنها هكذا ، وأن تلك طبيعتها .

آثورين يعرض مسرحية «حرب صغيرة» في مسرح بينا بينتِه في مدريد بنجاح مزيّف . العادة هي عرض المسرحيات بنجاح مزيّف . حماقة حسْبُكِ من حماقة!

ـ يعيش المرء بالفكر . والذكرى كحبلٍ يتدلّى من منطاد لتخفيف سرعته .

رامونا فَرَمينياس تملك مذياعاً ذا سبعة مفاتيح ماركة تيليفونكن كلّفها ألف بيزيتة ، وقلّما تشغله . لكنه جيد جداً بل أجود من كل ما هو موجود .

بوليكاربو بن البغنييرا قادر على ترويض كل ما يعنّ له . حسن! ليس كلها . فهو لا يستطيع ترويض الخنزير البّري . لأن الخنزير البري ليس له منطق وهو غير قادر على الفهم ، ولا رغبة عنده في أن يفهم ، وكأن دماغ الخنزير البري محشوّ بالقشّ أو بصخر أصمّ . حين تبدأ الأمور في الاضطراب ، فالخير في الانزواء والانتظار إلى أن تنجلي . بوليكاربو بن البغنييرا فقد ثلاثة أصابع من يده اليمنى ، اقتلعها حصان لما ذهب ذات مرة لصيد الخيول الوحشية ، منذ سنتين أو ثلاثة ، وربما أكثر من ذلك ، وقد تكون أربع سنين أو خمساً . في بعض الأيام تبدو الشمس كأنما تريد أن تشرق ، ثم لا تلبث أن ترجع القهقرى ويظلّ كل شيء كما كان . لا يريد روبين لبوثان أن يكتب مذكرات ، لأنه لا يعترف بأن الإنسان دابّة خشنة الطباع تنعق مع كل ناعق ، ومضجرة جداً وميّالة للتطيّر والمعجزات . السوء في الضربات القوية التي تصيب دفّةَ القيادةمما يؤدّي إلى الإخلال بالتوازن

بين الرغبات والقوى ، والضمائر أيضاً . يسلك الخنزير البري دائماً الدرب ذاتَها ، لذلك يمكن قتلُه بالسكين . بوليكاربو بن البغنييرا قتل بهذه الطريقة أربعة عشر خنزيراً ، أوخمسة عشر وأفلت منه أحدُها وقد جرح جرحاً بليغاً . وإذْ لم يعثرْ عليه لم يعدّه من ضحاياه . فلايستوي موتُ حلاّق رعديد وموت جنرال في سلاح الفرسان تغمره الأوسمة والأمجاد . روبين لبوثان ذو قراءات متنوعة وذاكرة حسنة للغاية ، ويحفظ « الأحداث الوطنية » عن ظهر قبل . لاثرو كودسال قُتل في مراكش ، في موقع تيزي عزة ، دون أن يبكيه أحد ، ودون مجد ودون هدف أيضاً . وهذا هو السوء في الحرب ، إذ سرعان ما تنتشر منها رائحة الزنَخ والكافور وهما سواء . غَودِنْثيو بيرا يُجيد العزف على الأكورديون جداً . غوديتثو بيرا أعمى ، وها قد أتت عليه أعوام شتّى وهو يعزف الأكورديون في ماخور بورا غرّوته ، الملقبة ببروتشا . التيوس الأحدث سناً يسمونها دونيا بورا ، بينيثيا بنت أخت غودنثيو ، ثدياها ـ كما يقال ـ يشبهان حبتي كستناء . أنا لا أدري ما هما . كاتوكسا بنْتِه ، المغفلة بنت مرتينيا هي مثل أجمة الرتَمَ ذاتِ الأزهار الصفر . كل ركن في العالم له توزانه المحسوب ومفصّلته الثابتة ، ولا خير في أن نريد تغيير كل شيء . كاتوكسا بنته يعجبها أن تتنزّه في الجبل وثدياها مبلّلان ، وهي بذلك تحسن صنعاً . بلدوميرو آفوتو جرّد منذ سنتين أو ثلاثة زوجاً من الحرس المدني من سلاحيهما . وكان لبلدوميرو آفوتو وشم على ذراعه يمثّل امرأة عارية وأفعى ملتفّة عليها ، وهذا يثير مشاعر النساء كثيراً . لم يكن آفوتو قد تجاوز التلاتين لكنه لا يقلّ عنها كثيراً ، أبواه ماتا في تصادم قطارين ، لم يُسحقا وإنما اختنقا ، تانيس بيريلو أقوى من أخيه آفوتو ومن أي شخص آخر . تانيس بيريلو يستطيع أن يصرع توراً بلكمة ؛ آدغا أم بينيثيا ، آدغا تعزف الأكورديون بإتقان يماتل إتقان أخيها . تعزف لحن

البولكا فَنْفينيت خيراً من أية قطعة أخرى . زوج آدغا ، أعني ، زوج ابنتها بينيثيا يدعى آبوستول براغا مِنْديث ، ربما عاد إلى البرتغال لإنه لم يظهر هاهنا ، وآدغا ، أعني بيثينيا تجهل إن كانت ما تزال متزوّجة أو أنها أرمل . الحقيقة أنها ما كانت تأبه لهذا الأمر كثيراً . مات جورج الخامس رحمه الله ، وخَلَفه على العرش أميرغال . آدغا هي ذاكرة الأرض حتى مدى بصرها ، ثم تأتي بعد ذلك مملكة ليون وحدود البرتغال والبلاد الأجنبية وأرض العرب . حرف الجبل امّحى منذ أمد بعيد ، ولا يتذكّر أحد كيف كان اتجاهه . لأول مرة يُهزم منتخبنا الوطني في كرة القدم على أرض وطنية : إسبانيا ، ٤ ـ النمسا ، ٥ . مات أيضاً روديارد كبلنغ . تجري أمور غريبة جداً تبعث على الحيرة ، كأنما فقد تناغم الأكوان .

ـ ماذا تقول ؟

ـ ما تسمعينه . ذلك كأنما فُقد تناغم الأفلاك الحسن ، قالها الأب سنتسبان العام الماضي في عِظة الكلمات السبع .

آدغا تتكلّم القشتالية جيداً ، وتستطيع شفاء الرضّع من «مرض الهواء» : سيدي المسيح شافي ألمي ، لا أجد شيئاً ساراً ، ولا شيئاً مما يرضيني . أحتاج ، سيّدي المسيح ، خبزاً وخمراً من مائدتك . ويدخل الطبيب الإلهي من باب الألم سائلاً الله توفيرَ حياة المريض ومنحه القوة والحبّ ؛ ثم يجلس إلى جانب السرير ويقول له : ـ أخي ، أيُّ مرضٍ ألمّ بك ؟ ـ أنا مملوء بالخطيئة ، وصار جسمي كالجذام . ـ خذْ ، كلْ من خبزي ، واشربْ من دمي أيضاً ، بذلك قد تشفى يا أخي . أكْسان آمييروس يقيس المسافات بشكل رديء ، ومات ضَرْباً بالعصا ، سبعُ ضربات ضُربت بعزم ، مرة على هذا الجانب ومرة أخرى على الجانب الآخر ، وضربتان اثنتان

على صميم الروح ، يمكن قتل إنسان ، هي مسألة دقّة في التسديد . مَنِيْتشا عارية تشبه مهرة ، وهي لذلك ، لا تحس بالبرد أبداً . أخوها فوكو له عين واحدة فقط ، ويجري مثل الحريش أو أم أربع وأربعين . هرب الجَدّ إلى البرازيل ، وأرسل صورة شخصية كُتب على قفاها : ف . فيليلا ، مصوّر في محلّ إمبريال دو برازيل ، ١٨ ـ شارع روا دوكابوكا ١٨ ـ برنامبوكو . يبدو في الصورة ، في صحّة جيدة جداً ، وله شاربان ويضع ربطة عنق حريرية ، ويمسك بعكاز ، ويستند إلى مسند الكرسي بأناقة ، ويلبس أيضاً سراويل مجعّدة قليلاً . لو لم يقتلِ الجَّد اكْسان آميروس بالعصا لظللنا ، على الأرجح ، نركب الجياد في هذه الطرقات .

ـ هذا أرجح الاحتمالات . ولما كان لمَنِيْتشا آميروس حفيد برتبة نائب وزير .

ـ نعم ، صحيح .

أبوستول براغا يداوي الصرع بخلّ اللصوص الأربعة المكوّن من الثوم والخردل والصمغ . روكِه غاموثو لُقّب بكريغو أو كاهن كوميسانيا ، لا لأنه كان كاهناً وإنما شهرةُ عورةِ روكِه غاموثو ، ومقاسُها الوحشي ، طارت بعيداً جداً ويُزعم أنها وصلت حتى آراغون وما وراءها ، بل حتى قطالونية والبحر المتوسط . آدِغا ليس من عادتها أن تقصّ ما جرى ، لكنها تعلمه جيداً ، أعتقد حقاً أنها تعرفه جيداً ، تعرفه خيراً من أي شخص آخر . أرى أن بعض الأشياء التي تحكيها سمعتها من روبين لبوثان .

ـ نحن ـ الغليثيين ـ لربما سوّينا هذه القضيةَ كلَّها في أسبوع واحد . لكن ، ماذا بيدنا! فقد دسّ أنفه فيها من تعرفهم ، وهم كما يقول ريموندينيو ـ المغامرون ، والوطنّيون ، وأصحاب المنفعة ، والمتنبّئون وطالبوّ الشهادة من

الصين واليابان . وها أنت ، يا سيدي ، ترى كيف انتهى الأمر إلى إغرق البلد بالدم ، وجوعِ الشعب وعُريهِ ، وخو ف الناس من أن ينظرَ الواحد منهم إلى الآخر . يجب امتلاك القدرة على إبقاء النظرة صحيحةً ، دون أن تضُطرَ إلى خفض بصرك ولا الإشاحة بعينيك إلى هذا الجانب أو ذاك ، أعني دون أن تشعر بالخجل ولا بالخوف من أن تُقرأ أخفى عيوبك . لقد فُهمت الأمور فهماً سيئاً . والمسألة ليست بإخافة أحد بآخر ، وإنما بإلقاء الماء على نار الأهداف الشرّيرة . يجب تركُ الناس يعيشون كما يهوون ، وهذا لم يعرف صنعَه أحدٌ ، ولا أراد القبول به . كتّاب المكاتب لم يكونو متواطئين ، وإنما كانوا على الأرجح ، يغطّون تلك الأعمال . والخوفُ ليس ناصحاً جيداً ، فالسكاكين والمسدّسات تُخبّأ دائماً في جيوب الرعاديد الخائفين . أنت يا سيد دون كاميلو ، تنحدر من ديوك الجبل ، من ديوك شجاعة مقاتلة . هؤلاء لا يموتون أحياناً على أسرّتهم ، ولا وقت لديهم لذلك ، ولا أهمية له ، لأن الرجال لا بد من أن يموتوا بسبب أو بآخر ، وما كان لهم أن يظلّو في البلد من أجل البذر والإنجاب . جدك ومَنيِتشا كانا يلتقيان في كهف صنوبر داس بوثاس . جدك عاش حياته خيراً منك ، وبعمق أكبر . أنت أطول منه وتلبس ثياباً فاخرة حتى أنك تضع ربطة عنق حريرية ، وفي يدك ساعة ذهبية . لكن جدّك عاش حياته خيراً مما عشت حياتك . كان قصير القامة ، لكنه شجاع كالأسد ، عاش حياته خيراً منك ومن أي شخص آخر .

صعب جداً أن يستطيع أحد امتلاك سمات اللئيم ابن القحبة ، التسع . فلا بد من أن ينقصه منها زوج دائماً .

ـ وموتشو ، أكان يحوزها جميعاً ؟

ـ قد يكون ذلك .

أُكْسِيْلا تصطاد تروتشا غائصةً وراءها في النهر ، وتمسكها بيدها إذا تلجأ إلى حفرة أو تحت حجر ، هذا محظور قانوناً لكنها لا تبالي . أُكْسيلا حفيدة آدغا ، وذات نظرة حيّة ومشية ظريفة تطفر طفراً . وهي في الثانية عشرة ، وفي صحة جيدة . جدتها تزعم أنها لم تباشر الرذائل بعدُ ، ربما باشرتها ، وربما لم تفعل . ينبغي للخوارنة أن يكون لهم أبناء ليتجنَّبوا الدعارة ، وليتلقّوا الاعتراف من النساء دون أن يفوهوا بالحماقات . يجب على الخوارنة أن يساعدوا الناس بدلاً من إخافتهم . حسن! فليفعلوا ما يشاؤون ، وكل امرئ وضميره! ثلستينو كاروتشا ، وثفرينو فوريلو خوريان . وهما فوق ذلك صاحبا نوايا طيبةٍ ومشاعر حسنة . ثلستينو وثفرينو توأمان ، ثلستينو صياد ، وثفرينو عُرَكي . الخوارنة ومصارعو الثيران ليس لهم شوارب ، وهم محترمون جداً .

ـ كنت صبيّة لما شنق نفسه في بوتا دافوندو رجل بأناقة ونظافة ، حتى كان الصبيان يتأرجحون ممسكين بقدميه . ظلوا يتأرجحون طوال النهار إلى أن جاء دون ليون وأمر الحرس المدني بإبعادهم .

آدِغا هي أخت الأعمى غودنثيو ، وعمّة أو شبه عمة لأبناء غاموثو ولاثرو كودسال . مؤسفٌ أنْ مات لاثرو كودسال ، لأنه كان جريئاً ومِقْداماً . وإمّا لا ، فليْسألِ الزوج الذي طلع عليه في مضيق كروث ديل تشوسكو . حرف الجبل محاه المغاربة ليستطيعوا القول للمسيحيين : حتى هنا تصل أشجار التين ، ومن هنا فصاعداً لن تمر . هذا قانون محمد ، ولا يستطيع أحد خرقه . لا حاجة لعزف الموسيقى لا سماعاً ولا من النوتة . بينيثيا تشبه كلبة صارفاً ، وتعرف أن تغنّي جيدا كالعصفور . بينيثيا ذات حلمتين صغيرتين ، ونديين كبيرين : بينيثيا تتحمّل جيداً صولات الخوري سان

ميغيل ديبوثينيوس الذي يعيش محاطاً بالذباب ، ويسير متلفّعاً بالذباب ، على الأرجح ، كان يربّيه تحت قفطانه .

ـ ادفع ، دون مركسيلدو دون خوف من أن يكون فرج خادمتك فرج مبتدئة غِرّ . أدخله جيداً .

ثِيْدران سغاده زوج آدغا المرحوم ، أو أب بينيثيا ، كان لا مناص لقاتله من أن يقتلَه دون أن ينظر إليه مواجهة . ولو نظر إليه لما قتله ، لما تجرّأ على قتله .

ـ أو تظنّين أن الذين يقتلون الناس ينظرون إلى وجوههم ؟

ـ أنا أقول : يوجد من كل نوع . قد ينظرون إليهم بعد الموت . ولست متأكدة من هذه النقطة أيضاً . أما وهم أحياء ، فحسب الحال .

لوثيو سِغاده ، شقيق ثيدران ، كان له أبناء ذكور كثيرون وكان يزعم دائماً أنه يُعنى بهم جداً كيلا ينحرفوا .

ـ دعك من السخافات . إذا كان الأطفال مدجّنين ، ولا يطيقون الضوء ، أو كانوا يتعرّقون أكثر من اللازم ، أو كانت أيديهم مرتعشة ، أو يقضون وقتهم كله زاحفين ، فمن الخير الإلقاء بهم إلى الهاوية . ما نحتاج إليه هنا ، رجالٌ من لحم وعظم وليس أشباحاً . ولو كان الرجال رجالاً حقاً ، لما كان كل هذا الإجرام .

بورينيا موسكوسو ، زوج ماتياس غاموثو ، أو تشوفر يتيرو ، ماتت بالسلّ . كانت نحيلة جداً ورقيقة ، وماتت مسلولة . ما كان لتشوفر يتيرو أبناء ، وكان يُعنى بأخويه بينيتو الأبكم ، وسالوسيتو الساذج ، تشوفر يتيرو يلعب البلياردو جيداً ، حتى يمكنه أن يقيم مهرجانات له

ـ والداما ؟

ـ والورق والدومينو أيضاً . تشوفر يتيرو يلعب كل هذه الألعاب جيداً .

كاسيميرو بوكاموس بيلارينيو ، وزوجه ترينيداد ماثو لوكسيده ، يعيشان في خِصام كقطّ وكلب . لم ينفصلا بسبب الأولاد . وما كان أي منهما يرغب في أن يظل معهم . كاسيميرو خادم كنيسة سنتياغو ديتورثيلا . ويدفن الموتى أيضاً ، ويربي بقرتين وبعض الخنازير ويحرث الأرض . طاف كاسيميرو نصف العالم ، ولم يُوفَّق في طوافه فعاد . تزوجت ترينيداد باكراً جداً ورُزقت بخمسة عشر ابناً . كانت ترينيداد شبه خرقاء ، لأن الولادة لا تلائمها . ما يجري أنها حين تتنبّه إلى حملها ، تصبح دون حيلة لمعالجته ، ترينيداد تحب أن تعيش حيث لا يراها أحد ، وتموت دون أن تنذرَ أحداً بموتها .

ـ لو تبقى مع قطيع الأطفال ، لذهبتُ إلى الجبل . فأنا لا أخاف .

ـ لاَ! الأولاد أولادكِ . هم أولادك أكثر مما هم أولادي . وأنا أكبح نفسي كيلا انطلقَ مرة أخرى ، وأطوفَ حول العالم ، وأرسل بكم جميعاً إلى المزبلة .

يفكر روبين لبوثان أحياناً في الأحداث .

ـ المذابح تُنظَّم لإثارة خيبة الأمل ، وتأنيب الضمير . قليل من تأنيب الضمير ، وكثير من خيبة الأمل هذا ما يجري دائماً . ارجعي إلى التاريخ منذ الإمبراطورية الرومانية حتى يومنا هذا ، ترَيْ أن المذابح لا تسوّي ولا تحل شيئاً ، وإنما تعرقل أشياء كثيرة لفترة طويلة جداً . أحياناً ، تخنق جيلين أو أكثر ، وتزرع البَغْضاء حيث تجري .

روبين لبوثان يريد من الآنسة رامونا أن تقرأ الكيخوته .

ـ دعني في هدوء . أنا أكثر إعجاباً بالشعر . رواية دون كيخوته مملّة .

ـ لا ، يا امرأة!

ـ نعم ، هي كذلك . أنا معجبة بأشعار روساليا وبيكر .

ـ أتعلمين أنه مضى الآن مائة عام على ولادة بيكر ؟

ـ لا ، لا أعلم!

تصل حانة راوكو أخبارٌ مشوّشة جداً ، ويقصّ تاجر جوّال قصصاً لا تُصدّق عن تمرّد الجنرالات وحركات الفيالق في مراكش . وتبثّ الإذاعة أنباء لا تُفهم جيداً ، وتتردّد فيها مارشات عسكرية وألحان حربية الحدُّ الفاصل بينها ليس سهلاً تمييزُه . ما يُسمع اليوم لا أعرفه . وهذا الآخر المُسمى «متطوعون» ، أي شيء هو حقاً ؟ تشوفر يتيرو يكسب أجراً جيداً من معمل التوابيت ريبوسو . وهو يشكر الله شكراً جزيلاً لأنه يستطيع أن يكسب رزقه بشرف . روساليا تراسولفِه تدعى كابوكساتولا أو العنز المجنونة ، لكنها صلبة جداً وعاقلة ويقودها إحساسها إلى الأمام دائماً .

ـ اضطجعتُ حقاً مع القاتل القتيل . وماذا في ذلك . لكن ، انظر كيف انتهى . أنت تعلم جيداً كيف كانت نهايته . من يزرع الشرَّ ، يُحصدْ هو نفسه في النهاية ، وأي حصاد! ولتتكلم آدغا إن شاءت . كانت دائماً صديقة عزيزة عليّ ، وامرأة تامة وموضع ثقة .

ليس حسناً أن يكفّ المطر فجأة . في هذا البلد ، لا ينقطع حبل المطر فجأة أبداً . يكفّ المطر شيئاً فشيئاً دون أن يتنبّه أحد تقريباً ، إن كانت تمطر أولا تمطر . بينيتينيو غاموثو العقرب الأبكم ، يقصد المواخير مرة

واحدة في الشهر ، ولا يبالي بإنفاق المال ، يُنفق ما يحتاج إلى إنفاقه . فهو من أجل ذلك يعمل . بينيتينو غاموثو مسرور جداً ، لأن أموره تسير سيراً حسناً وهو في صحة جيدة ، ويفيض عنه دائماً بعض المال ، يُعرف سرور بينيتينو غاموثو حين يزمجر زمجرةَ بنت عرس ويبتسم . مؤسف أنه لا يستطيع الكلام ، ولو استطاع لحكى أشياء مسليةً جداً بالتأكيد . على العكس منه أخوه المغفّل ميكسير يكيرو الذي يبدو كأنما تؤلمه أذناه دائماً . أُخِذت آدغا بعد الحرب لترى البحر . أُخذت إلى بيغو .

ـ هذا الذي يُرى إزاءنا أهو أميركا ؟

ـ لا! ما نراه إزاءنا كنغاس .

ـ إذاً ، فلتكن!

ذهبت آدغا إلى شاطئ ساميل لكنها لم تستحم في البحر . هي كانت من أرض الداخل وليس من عادتها السباحة . البلاغ الذي ينظّم لباس الاستحمام دقيق جداً . يجب أن تكون البزّة من قماش غير شفّاف ، وأن تغطّي الجسم كلَّه دون أن تلتصق به . بزات النساء يجب أن تصل حتى الركبتين إما من قطعة واحدة ، أو من قطعتين مكونّتين من بلوزة ،وتنّورة . إضافة إلى سراويلات تصل إيضاً إلى ركبهن . والياقة يجب أن تكون بشكل لا تنفصل فيه عن الجسم ، أما الأكمام فيجب أن تكون ضيّقةً لا تسمح بالكشف عن الإبط في أية حركة عنيفة . ويُحظر حظراً تاماً الاستلقاء على الرمل حتى لو غُطِّي الجسم ببرنس . مع ذلك يسمح بالجلوس عليه .

كابوكسا تولا تعرف أن تروّض عصافير ودوابّاً . بعض الحيوانات أسهل ترويضاً من بعض هذا ما يجري دائماً . أمها حبلت منها وهي على ظهر الحصان أثناء هبوب عاصفة لورنتينيو ديكسفيغيرو . البنات اللاتي يُولدن من هذه

الحمل تُطيعهن كلُّ الحيوانات دون استثناء . أمّا الأبناء الذكور فليسوا كذلك ، وإنما يرتبط الأمر بمدى مهارتهم . فابيان مِنْغيلا له بقعةٌ من جلد الخنزير في جبينه تبدو كأنها وصمة ؛ وله شعر أزعر وجبين ضيق . لنقل ، يبدو من مظهره أنه لئيم ابن قحبة . أكبر عقاب ينزل بهؤلاء الأفراد أن تُعرف حقيقة وضعهم ، مهما حاولوا إخفاءه . كل القعدة يعملون قاعدين . لكنهم والحمد لله ، ليسوا كلهم من آل كرّوبو . بعضهم محتشمون جداً ومحترمون .

ـ ومن أين جاؤوا ؟

ـ هذا ما لا يعرفه أحد .

مونتشو ريكيكسيو كسبولادو ، الملقّب بمونتشو بريغيثاس ، أعجب ما يعجبه في الدنيا مدينة غوياكيل .

ـ هي أجمل من أمستردام وإن كانت مختلفة عنها ، فهي أجمل منها . أنا أؤمن بذلك . كان لي في غوياكيل حبيبة كانت تلمع ساقي الخشبية بدهنها بالشمع المغموس بالتريمنتين ، كان اسمها فلورده أورو كوتاكاتشي لوبيث ، وكانت غاية في الجمال ، وهي ثدياء قليلاً لكنها جميلة جداً . لا أدري ما جرى لها ، على أرجح ظن أنها ماتت . هناك يموت الناس جميعاً .

ذات مرة ومنذ فترة بعيدة ، لم تعد الطفلتان التوأمان كَوْتَبَاد إلى البيت حتى الساعة التاسعة ليلاً ، وقد تحطّمت نظّارتاهما وتلوث صداراهما بالتوت البري ومُلِئ شعرهما بالحرشون . أنّبتهما أمهما تأنيباً عنيفاً ، وغسلتهما : أرى النمل في بطنيكما ذاتهما . وجعلتهما تبيتان دون عشاء .

ـ ليكون درساً وعبرة لكما . ولن أُعلم أباكما ، وإلا فسوف يضرب كُلاً منكما سوطين .

كانت قالت بيارتريس لمرثيدس :

ـ أنذهب لقطف التوت والفريز البري ؟

وأجابتها مرثيدس .

ـ نعم ، نذهب .

ثم نسيتا نفسيهما حتى حلّ عليهما الليل . الأمر تفسيره سهل جداً .

ـ أعاقبت التوأمين ؟

ـ بالطبع! قلت لهما إنك لا تعلم شيئاً عنهما ، وجعلتهما يناماى دون عشاء .

ـ أطعميهما على الأقل قرناً من الموز ، واسقيهما قدحاً من الحليب .

يزعم مونتشو بريغيثاس أنه عثر على شاطئ بستيانينيو على محارة من البلطينوس غريبة جداً ، ولها صدفةٌ من البلّور الصخري بلون الكاراميل ، مصراعاهما مغلقان ، ولا يمكن أكلها لأنها سامة جداً . لكن إذا نُفخ فيها ، تفتح وتخرج منها ساحرة صغيرة للغاية يصعب القبض عليها لأنها سريعة في جريها ، عالية جداً في طيرانها . ومع ذلك ، يمكن صيدُ سويحرات أصداف لوغو على عكس أصداف أورينسه الأسوأ منها ، فتُجفّف على المدفأة ، وتُترك حتى تنمو وتصبح بحجم النساء ، فتوضع في الخدمة . إدِمغا كانت شبهَ مخطوبة لمونتشو بريغيثاس ، ثم تخلّيا عن بعضهما .

ـ من يسفح الدم ، يقطع الله دمه ويذبحه ، أو يجعله يموت نازفاً من فمه . لا يغفر الله للمجرم ولو اختبأ تحت الحجارة يُعثر عليه دائماً ، والله لا يسهو عن شيء ولذلك خلق الجحيم .

ريموندو كسندولفس وجد فابيان منغيلا مغروراً جداً

ـ فابيان ، لا تُلحِقْ أذى بأحد أبداً ، واعلمْ أننا هنا نعرف بعضنا بعضاً جيداً ما تقوم به تافه جداً .

ـ أنا أصنع ما أرغب في صنعه ، وهذا لا يعنيك .

ـ حسن!

يقول ريموندو لقريبتنا رامونا إنه مهموم لأن الأشياء اتّخذت مظهراً سيئاً .

ـ بلدوميرو آفوتو لا يريد أن يختبئ . أنا أرى أنه مخطئ في ذلك ، لأن الناس الذين يحملون السلاح ، ينتهي بهم الأمر إلى ارتكاب الحماقات . خيرٌ له أن يُرسل إلى ثيلا ، إلى بيت بِنْثَياس ، وتحدثت إليه بذلك ، لكنه لا يرغب في الذهاب ، أنتِ تعلمين أن ثيلا تقع على حدود البرتغال .

يسوء وضعُ الكلاب في شيخوختها فتنفض وبرَها بإفراط ، وقد صار الكلب وايلد عجوزاً . أهدى ريموندو إلى رامونا كلباً سلوقياً روسياً يستجيب للنداء باسم تسارفيتش .

ـ أليس من اللازم تغييرُ اسمه ؟

ـ لا ، يا امرأة ، لا أظن ذلك . دعينا نرَ ما سيجري .

ولا القط كينغ صغير جداً ، وإذ كان مخصيّاً ، فكان استهلاكه لقواه ضعيفاً ويتحمل وقع الأحداث جيداً . الغواكامايو رابيتشو يقضي نهاره صاعداً هابطاً مَجْثَمه ، وقد بَهت لون ريشه ، لأن هذا الضوءَ لا يلائمه ، وظل الببغاء دون اسم . كان يُدعى روكامبو لكنه سرعان ما سقط اسمه . ما أغرب هذه الأشياء! يقول الببغاء حين لا يشعر بالبرد ، لوريتو ريال ، لوريتو ريال ، من أجل اسبانيا وليس البرتغال . هو ببغاء قليلُ التنويع في معزوفته ، وعلى معرفة بدعاء المسبحة الوردية .

- يجب على النساء أن يذهبْن إلى الحروب ، أعتقد أنها ستكون الصيغة الملائمة للقضاء عليها ، فالنساء أرسخ قدماً في الأرض من الرجال ، وحسُّهن العام أقوى ، وهن أشدّ ذكاء وإحساساً بالواقع ، وسوف يرين سريعاً أن الحروب حماقات يُهدر فيها كل شيء : العقل والصحة والصبر والمدّخرات ، وحتى الحياة ، في الحرب ، كل فرد يفقد شيئاً ، ولا يكسبُ أحد شيئاً ، حتى الذين يكسبون الحرب ذاتها .

- أراك متشائماً جداً .

- لا ، يا امرأة ، المسألة هي أني مهموم .

- أتريد أن أقفل المذياع ؟

- نعم ، وضَعي بعض الإسطوانات في الغرامولا .

- تانغو ؟

- بل فالس .

الخفّاش فأر ذو ذكاء حادّ ، ونشاط شديد . الخفافيش تصل إلى حيث لا يجرؤ أحد أن يصل ، الخفافيش تضع قدماً في فضاء الأرض كالشياطين التي تسعى لصيد الأرواح ، وقدماً أخرى في فضاء الجحيم كالشياطين التي تسعى لإدارة شؤون الأرواح ، الخفافيش تحمل أحياناً وطواطاً مصّاصَ دماء في قلوبها .

- تابع!

لا بأس! سأتابع . المرضى والمعتقلون وحتى الموتى هم هم ذاتهم دائماً . إليك عني بهوسك ، وتأنيب ضميرك وندمك ونوبتك وألم قلبك! يتدلّى الموت من أعلى الدعائم وأقتمها ، وأشدّها تعفّناً ونخراً ، تبعث على

الاشمئزاز رؤية الموت يتأرجح كمشنوق فوق بقعة الزيت التي تشبه شبه الجزيرة الإيبيرية .

ـ أتريد أن نرقص ؟

ـ في وقت آخر .

الصفر الشاحبون يبذرون بذور الموت ، ويسقونها بمرشّة الموت ، ولما شاء الله ، ـ لأنهم راحوا يموتون أيضاً ـ زرع الذين سبق لهم أن بكوا ولا يزالون أحياء ، ـ والإنسان حيوان شديد التحمّل ـ شجرة فستق مقابل كل أصفر يموت كيما يحصل الخنزير البرّي على الفستق طريّاً طازجاً . القِرْد خريمياس يزداد يوماً بعد يوم ، مرضاً وفساداً ، ولا يقع كل الذنب على عاتقه ، فالآنسة رامونا تشعر بالعجز عن حمايته من حصار روسيكلير له .

ـ قلت لك ألف مرة ألا تجعلي القرد يستمني مرة أخرى ، ألا ترين أن المسكين لا يكفّ عن السعال ؟

مضت أشهر عدة على السلحفاة كساروبا وهي مختفية ، حتى قدوم فصل الحرّ لم يظهر لها أثر . أمّا الحصان كاروسا فيقاوم جيداً ، وهو الحيوان الوحيد غير الكئيب في البيت . يخرجه إيتلْبينو كل صباح ليتنشط قليلاً ، ويحسُّه بالمحستة أيضاً ، دونيا خيمّا تقول لزوجها عند مغيب الشمس :

ـ ناولني قليلاً من عرق اليانسون ، يا تيودوسيو ، فأنا لا أقدر على التنفّس ، أمّا أنت فضعْ رأسك في كيس من القماش ، وإذا لم تستطع التنفّس ، فالويل لك!

دونيا خيما ليست ودودة ولا كريمة ، لكنها ، نعم قذرة ومتدينة جداً ، هذا جانب فيها يستر الجانب الآخر ، دونيا خيما كانت ذات ماضٍ عاصف ،

بَيْد أنها تقرأ اليوم « مِتَع الأمهات ، تأمّلات من أجل المرأة المسيحية » ، من تأليف الأب المحترم ثاكيو مَنْتيكون ، والمنشور في هويلبا عام ١٩٢٠ . دونيا خيما تعاني من التهاب الشرج وتعالجه بحمامات من أوراق البابونج .

ـ أرى أن البابونج لا يفيدك ، يا خيمًا ، لا شك في أنه يهيّج الشرج .

ـ اخرس أنت!

ـ حسن! كما تريدين ، الحكّة حكتك ، فيا للرعب ، ويا لهذه الآداب!

سُمي دون تيودوسيو عند تعميده باسم كاسيانو ، لكن اسمه بُدِّل عند طقس التثبيت ، دونيا خيما ودون تيودوسيو يعيشان في أورينسه ، في ساحة سان كوسِمه ، في الشقّة التي مات فيها أبوا خيما . البيت موبوء بالحشرات وكأنه غابة ، والمرحاض مسدود منذ عشر سنوات ، ولا بد من إلقاء مترين مكعبين من الماء فيه ، والاستعانة بمكنسة ؛ بلاط الرواق مخطّط بخطوط وزوايا وصلبان . كلّ بلاطة فيها أربعة خطوط وأربع زوايا ، وكل زاوية مكوّنة من خطين حين يمتدان يشكلان ثلاث زوايا أخر ، واحدة إلى الشمال (أو الجنوب) ، وزواية أخرى إلى الشرق أو إلى الغرب ، دون تيودوسيو يحاول ألا يطأ خطاً ولا زاوية ولا صليباً ، بالطبع هو يسير منحرفاً ، وعلى شكل زيكزاك ، كلما قصد دون تيودوسيو بيت بروتشا ، دخل المطبخ مباشرة .

ـ هل « بيسي » هنا ؟

ـ هي مشغولة ، يا سيد دون تيودوسيو ، لا أظنها ستتأخّر ، لأنها ما زالت منذ فترة مع دون حزقيال صاحبِ محلّ الرهون ، أتريد أن استدعيَ لك فيرمينِيتا ؟ دون حزقيال تقيل الظل قلبلا .

ـ لا! لا! أفضّل الانتظار وشكراً جزيلاً .

ـ كما تشاء . أنت تأمر .

عودِنْثيو يعزف على الأكورديون بحزن ، وتنطلق الألحان من تحت يده مضطربة على غير عادته ، غودنثيو منذ أيام عدة ، وهو شبه مغموم .

ـ ألم يصبح الناس مجانين ؟

ـ لا أدري! لا يبدو عليهم أنهم عقلاء جداً .

دونيا خيما مولودة في بيامارينا ، أبواها كانا يملكان معملاً للأنابيب والمياه الغازية : إسبومو سو بيلّيلا ، ومعملاً آخر للخزف : لاسوبريرينا ، عاشا جيداً وبرخاء إلى أن اخترع دون آنطونيو رئيسُ العائلة عصارة اللحم / إكساباثيون/ ، وهي خلاصة لحم البقر المركّز ، لكنّ هيئة التفتيش الصحي أغلقت المعمل لأنه يستخدم لحم الكلاب والضِّباب ، مما أودى بهما إلى الإفلاس .

دون تيودوسيو يحظى في بيت بروتشا برعاية كبرى .

ـ أتريد ، يا سيدي ، أن أنادي لك مارتا البرتغالية . كيما تشعر بالدفء ؟

ـ شكراً لك ، يا امرأة ، أنت دقيقة ولطيفة دائماً!

ـ لا تقلْ ذلك ، دون تيودوسيو! لا ترغب خادمتك في شيء إلا إرضاء أصدقائها المجيدين .

بيسي هي من بينا بيتادا ، من قرية تريبيس ، تتكلّم بلهجة أندلسية ، لكنها ما زالت لا تتقنها جيداً ، وإنما آخذةٌ بتعلّمها . لدى بروتشا ثلاثُ

مجموعات ثمينة جداً ، إحداها مجموعة مراوح ، والأخرى مجموعة طوابع ، وثالثة مجموعة عملات ذهبية أوصى لها بها دون بِرْبيتو كرنيرو إياماريث ، من تجّار مدينة ليون . في مخابئ العواهر تغوص أشياء نادرة جداً ، ومن المؤسف أن هذه القصّة لم يكتبها أحد ، بروتشا لا تحدّد المصير الذي ستؤول إليه المجموعات حين تموت .

ـ ليتني أعثر على من أثق به لأعيّنه وصيّاً عاماً! ليس لي أبناء ، وأبناء أخوتي لا يريدون أن يعلموا عني شيئاً . سواءٌ لهم! لا يمكنني أن أتركها لرجل ، بالطبع ، ولا لرئيس البلدية ذاته . ما أدقّ هذه الورطة! سأتركها في نهاية الأمر إلى فتيات المحلّ لتبعنها كلّها ، ويتوزعن المبالغ فيما بينهن ، ولربما رغبت في أن أُدفن مع المراوح ، وطرحة مانيلا والعملات الذهبية ، دون الطوابع ، لكن قبري ، في هذه الحالة سيُنبش وأُسرقَ .

ـ لا شكّ في ذلك!

يُطلب من غودنثيو أن يعزفَ مارشات حماسية ، كثيراً من المارشات ، ويصرخ الرجال : عاشت إسبانيا! ويطلبون المارشات ، مزيداً من المارشات بينا النساء يضحكن ، بعضهن بشَبَق ، والبعض الآخر باسترخاء .

ـ ارفعي حاملة الثديين!

ـ لا أرغب في رفعها!

رومولو وريمو طائرا التمّ عند الآنسة رامونا يصلان حتى النهر في الصباح ، ويصطادان بعض السمك الذي يبتلعانه كاملاً ، ويبدآن بهضمه قبل أن يقتلاه . إذا انقطع المطر فجأة ، نصاب بالحيرة جميعاً ، دون خيسوس منثنيدو كان أيضاً زبوناً هاماً من زبن بروتشا ، لما بدأ يميل إلى أن يكون

ضُبُعاً ، تخلّى دون تيودوسيو عن إلقاء التحية عليه في الأصباح ، لم يتخلَ عن تحيّته تماماً ، فليس الأمر كذلك ، وإنما أخذ يمتنع عن تحيته شيئاً فشيئاً ، وفي هذا فرق صغير .

ـ أسمعتِ شيئاً يا دونيا بورا ؟ أسمعت ما يقال هنا ؟

ـ أنا عمياء صمّاء ، يا دون تيودوسيو ، أنا لا أعرف شيئاً ولا أريد أن أعرف شيئاً ، في رأيي ، جُن الناس جميعاً في آن واحد ، ولا يوجد تفسير آخر ، وليقبضْنا الله إليه متمّين واجباتنا الدينية!

جفّ حلق غودنثيو .

ـ أتجلبين لي زجاجة مياه غازية ؟

ـ نعم .

دون منثنيدو دقيق جداً ، فالنظام هو النظام ، ويسجّل الموتى في دفتر جيب ، يسجّل الرقم حسب حسابه الخاص ، والتاريخ ، والاسم والكنية ، والمهنة والمكان والحوادث الطارئة ، تكاد لا تقع حوادث طارئة . رقم ٣٧ ـ ٢١ تشرين الأول ـ عام ١٩٣٦ ـ إنوثِنْثيو سولّيروس نانْدِهِ ، عامل في مصرف آلتو دي فوريولو مات معترفاً ، إنوثنثيو نانْدِهِ كان أب روسيكلير ، من العار أيضاً أن يُطلق اسم روسيكلير على بنت!

ـ لكن أتعتقدين ، يا سيدة أرسينيا ، أن من الحكمة قتلَ أحد ؟

ـ انظر : أنا لا أقول لك لا ، ولا أقول نعم ، أنا لا علاقة لي بهذا الأمر ، وليتركْني الناس بسلام .

ـ لا بأس عليك! لا بأس!

فابيان منغيلا خدّاع ، فابيان منغيلا ليس صغيرَ الحجم تماماً ، بل متوسطه ، لا أحد من آل كروبو قويّ ولا كبير ، بعضهم ضئيل الجرم ، وبعضهم يميل إلى الضآلة ، وكلهم ذوو حيلة ، وفيهم مكر وخداع ، فابيان إلموتشو ، مقارنة بخيسوس منشيدو ، مبتدئ وتلميذ . دون خيسوس منشيدو يقتل الناس خضوعاً لأمر ما ، وللذّة في القتل أيضاً ، أو للشيئين معاً ، بعض الناس يرى الرجولة في إطلاق الرغبة لأصابعهم في الضغط على الزناد ، على العكس منه ، فابيان منغيلا الذي يقتل الناس إرضاءً لأحد ما ، لا يعرفُ من هو ، أحد ما يبتسم له ابتسامة ، وهذا ما يحصل ، ويقتلهم خوفاً ، لا يعرف أيضاً ممن ومما ، شيء ما يخيفهُ فعلاً ، الخوف يفرّ كما يفر الجرذ في ترعة الرعب . بينيثيا ذات عينين زرقاوين وإرادة جاهزة دائماً ، ثِيْدران سغادة ، أب بينيثيا كان من كاثورّاكه أسفل هضاب بورتيلينا ، ومات أيضاً في المعمعة ، حين ينقلب العالم رأساً على عقب ، ربما مات الرجال الحقيقيون بأيدي المهرجين ، وهذا لا يحصل لو لم تُفقد السلطة والإباء .

ـ أتقلين لي قطعة نقانق ؟

ـ نعم .

مياه ينبوع ميانغيرو سامّة لكنها لا تنخر الجسد وإنما الروح ، من يشربْ من ماء ميانغيرو ، يُصبْ بالجنون ، وعلى الأرجح يقتل بشراً ، في حين يخرأ في ثيابه من الرعب . الجوّ بارد في كنيسة لاس مرثيدس ، لكن الأعمى غودنثيو لا يبالي به ، غودنثيو يذهب إلى القدّاس كلّ صباح ، إذا فرغ من العزف على الأكورديون ، ثم ينام حتى منتصف النهار في خزانته تحت الدرج ، ليس لديه ضوء ، ولا حاجة له به ، ولأي شيء يريده ؟ العميان ذوو جلد ، وعند الضرورة يشنقون .

ـ أتعرف من هي الكونتيسة التي وضعت جائزة لمن يأتيها برأس بينيغنو ؟

ـ نعم ، أعرفها ، لكنني لا أريد أن أسمّيها . ولمعلوماتك ، لم تكن كونتيسه بل مركيزة .

الحواري سان آندرِس كان يغار من القديس سنتياغو لأنه أخذ منه رعايا خورنيّته كلّها .

ـ إلى كومبوستيلا يقدِم حجّاج من كل أنحاء الدنيا حتى من اليابان وتراتاريا وإثيوبيا ، في حين لا يقدم إلى تيكسيدو أحد ، ولا حتى من فيرّول أو بيبيرو أورتيغيرا المجاورة لها ، هذا ليس عدلاً لأنني رسول المسيح أيضاً ، رسولٌ مثل كل رسله الآخرين .

قال له سيدنا المسيح الذي كان قادماً من ذات الطريق :

ـ أنت على حقّ تماماً ، يا آندرِس ، لا بدّ من تسوية هذا الوضع ، سآمر منذ الآن فصاعداً ، لا يدخلنّ أحدٌ ملكوت السماوت إن لم يمرّ في تيكسيدو .

قول مقرونٌ بفعل ، إذْ طلب السيد المسيح من كل المسيحيين الذين يريدون إنقاذ أرواحهم ، أن يقصدوا مرة واحدة على الأقلّ في الحياة أو في الممات مكان القديس ، وإلا تحوّلوا إلى حيوانات غير عاقلة ، لذلك يقال سأقصد سان آندرس في تيكسيدو ، ميتاً إن لم أستطع حياً . وهكذا ترى في ما حول مقام سان آندرس في تيكسيدو ، الواقع في أقصى الأرض قبالة البحر الذي لا يُبحر فيه أحد لأن أمواجه كالجبال ، قطعانٌ من العقارب واليرابيع والعلاجيم وحيوانات أخر أليفة وبريّة ، توجد أفاعٍ وعناكب ذات شعور

تحمل داخلَ أرواحها أولئك الذين لم يزوروا القديس في حياتهم . وبذلك يستطيع النجاة من سمع كلمة سيدنا المسيح .

ـ ما أغربَ هذ المصير! لكن ، أيُصدّق ذلك ؟

يمرّ المغفّلون قرب الموت دون أن يروْه أو يشمّوا رائحته ، أمّا العميان فيرونه حين يحسون به يسري في العمود الفقري ، وتشمّ رائحتَه الكلابُ ، لكن ، ليس المغفلون ، فهؤلاء لا يميّزونه عن الحياة ، روكينيو بورّين قضى خمسة أعوام في صندوق دون أن يدري أن ذلك ضارٌّ به ، حتى أنه كان يبتسم لما أُخرج إلى الهواء ، روكينيو بورّين يعضّ أظفارَه ويأكل الكلس المتقشّر عن الجدران ، ويبدو أن ذلك يقيم أودَه . كذلك المغفلة كاتوكسا بِنْته لا تميّز الموت عن الحياة أيضاً ، المغفلة بنت مرتينيا لا تعلم أن الموت يمحو البصر ، لذلك كانت تُبرز ثدييها للثعالب وبنات عرس الميتة ، فيطردها خادم الكنيسة ضرباً بالعصا ورجماً بالحجارة .

ـ انقلعي من هنا ، يا خنزيرة! اهربي قبل أن أقتلك بالعصا .

بينيغنو ألباريث هرب إلى جبال ماثيدا الواقعة بين سلسلة ميدا ، وسلسلة سان ماميدِه ، دون مرِكْسيلدو وخوري سان ميغيل ديبوثينيوس يشبه عشّ ذباب ، وكر ذباب ، شرنقة ذباب ، إذ لا يمكن رؤيته غيرمغطّى بالذباب ، كان يسير بمعية لياندرو ، وإنريكيتا إيغلِسياس ، لاكامارادا ، خادم خوري سان ميغيل ديبوثينيو تدعى لوردِس وهي عجوز قطعاء ، لوردِس لها رائحة النفتالين وتشرب القهوة بغزارة ، بينيغنو ألباريث مرضَ ومات ، وأُطْلقت عليه طلقتان ناريتان بعد وفاته للاشتباه بموته ، ومات أخوه ديمتريو أيضاً ، أما أخواه الآخران ، خوسيه وأنطونيو ، فقد هربا إلى البرتغال ، لكن الحرس المدني قبض عليهما ، وأعيدا عبر حدود توئي ، ثم

أطلق الرصاص عليهما ، كما جرت العادة ، في مكان يُدعى بولتا ديمورا ، على بعد أقل من نصف فرسخ من المدينة منطلقاً من طريق بيغو . خوري سان ميغيل دييوثينيو تلاحقه النساء ، شبقات كالماعز ، لا يدعنه وشأنه ، النساء لبوات يشممْن رائحة الرجل من مسافة بعيدة ؛ وكان الناجي الوحيد أولوخيو فَرنكيرا بفضل عمّه الذي كان موظّفاً في بلدية ثِنيّه .

ـ أأنت في صحة جيدة ؟

ـ نعم ، جيدة جداً ، ما دمتُ أتكلم ، فأنا لم أُقْتل . كن واثقاً بذلك .

الخالتان خيسوسا وإيميليتا لا تعيان شيئاً مما يجري ، أضافت الخالتان صلاة أبانا الذي في السماوات ، إلى صلاة المسبحة الوردية متوسلتَيْن أن ينتصر ملاك الخير على دابّة الشر ، ويظل الهدف غامضاً قليلاً ، لكنه ربما كان كافياً ، والعقارب والغربان تحطّ ليلة بعد ليلة على سور مقبرة سان فرنسيسكو .

ـ هل داميان هنا ؟

ـ ذهب إلى سنتياغو .

ـ أذهب على الحصان ؟

ـ لا!

ـ أذهب على الدرّاجة .

ـ نعم .

وتقول تيلما لكونتشا داكونا :

ـ انطلقي ولا تقفي حتى تعثري عليه ، وقولي له ألا يعود إلى هنا إنهم يبحثون عنه .

أخذ خادم الكنيسة تورتيلا يقص قصصاً عن نيران زاهية ، وعن أرواح المطهر وعمّن بُعثوا أحياءً بعد قرن من موتهم . عريف الحرس المدني لا يؤمن بذلك .

ـ هذا غير ممكن . بعد شهر واحد من الموت ، لا يمكن أن يُبعث أحد . خلال شهر يمكن أن يبعث عدد قليل جداً . أنا لا أؤمن بما تقول .

أَعطي خادم كنيسة تورثيلا كونتشا داكونا ثلاثةَ من قرون الوعل ، وزجاجة بِلْميل خيمينيت صغيرة مملوءةً بزيت المصباح المقدس .

ـ أعطى داميانَ هذا كلَّه ، وقولي له أن يتجّه إلى تستيرو ، هذا الوضع لا يمكن أن يدوم طويلاً .

ـ نعم .

ـ قولي له أيضاً ألا ينسى أن يبتهلَ إلى سان خوداس .

ـ لن أنسى . لا تهتم .

سان خوداس تاديو ، يا حواري ، يا مجيد ، اجعل جلاديّ يسقطوا في بئر . كونتشا داكوانا امرأة جميلة وجريئة وتدقّ الصناجات بإتقان كبير كأنها غجرية تقريباً . سان خوداس تاديو الذي في السماء ، نجّني من الأمراض والبغض والسم . لا بد للأشياء من أن تعود إلى ما كانت عليه دائماً ، لا يمكن للأمور أن تظل تسير بالمقلوب .

ـ نعم . وإذا ظلّت ؟

ـ كلا! وسترى أنه لن تظل .

إنهار بيت بوليكاربو بن البغنييرا لما مات والده دون بينيغنو بورتو موريسكو توربيسكيدو . اجتمع خَلْق كثير حتى انشقّ السطح قسمين

كالبطيخة . هربت بنات عرس التي درّبها بوليكاربو ، كانت ثلاثاً ، وصار عنده اثنتان فقط : داويت وبيلاردهِ اللتان تسرحان في أرجاء البيت ، اسمان أطلقهما عليهما روبين لبوثان ، بنات عرس المدرّبة لا تهرب ما لم تُذعر . لويسينيو برّولو صار أعمى ، لكنه حتى هذه الساعة لم يصب بذات الرئة ، لما ماتت دوروتيا إكسبوسيتو أم بوليكاربو ، اضطُرّ الخوري فوريلو إلى التدخّل لأن الزوج ما كان يريد دفنها حسب الطقوس المقدسة .

ـ فلتحرقْ هذه العاهرة بنشارة الخشب ثم تدفن خارج المقبرة ، فهي لا تستحق مصيراً آخر .

لم يأبه الخوري ثفرينو فوريلو بكلامه ، فلطالما أبدى الخوري ثفرينو مشاعر طيبة ، وهو يبذل أيضاً مما يملك ، ويُعنى بمن ضاقت ذات يده ، لأن البخل خطيئة مميتة . عمي كلوديو مونتنيغرو التقيّ ، أراد أن يُكمل خدَمه المنزلي ، فاستدعى إليه ، بتوصية ، قسيساً خاصاً ومحظيّة لشغل الوظيفتين الشاغرتين ، لما قيل لعمّي أن لئيتون ذهب إلى أورينسه ليلتقط هامة القمقام ، وجد سلوكه غاية في الصواب ، انتقل «القمقم» العاهر ، ولا يهم الاسم وهو أهون شيء لأن كل القماقم متشابهة ، أقول انتقلت حشرة القمقام إلى سانتوس كوفراس ، أو لئيتون ، الذي نقلها إلى زوجه ماريكا روبيرس ، وهذه نقلتها في برج الأجراس ، وهو مكان غيرُ مُريح وغير دافئ ولكنه معزول وهادئ ، إلى الخوري ثلستينو كاروتشا ، وأخيراً ، وصل القمقام حتى حاجبيه ، ذلك كما في لعبة الدومينو ، بقليل من الحظّ وبمرور الوقت قد تكتسح الحشرة البلدَ كلّه ، ولتأتِ بعد ذلك الحروب والكوارث . عمي كلوديو يرغب في أن يعيش سنيّه الأخيرة براحة وهدوء . فقد عاش ما يكفيه عواصف وتقلّبات قدر ما يطيق جسمه .

ـ شاء الله أن يمنحني كلّ ما أحتاج إليه تقريباً ، وما ينقصني أسعى للحصول عليه بإرادة طيبة : أنا في صحة مقبولة ، وعندي مال كافٍ وعشت فوق أعوامي أعواماً ، ولي بيت ملك وأبناء كثيرون ، وعندي حصان وكلب وبندقية وطباخة وخادمان ، وأعمال كيبيدو الكاملة التي طبعها آنطونيو سانشا في أحد عشر مجلداً . فإذا عثرت الآن على محظيّة وعلى قسّيس جيدين ، كل في اختصاصه ، أجلس في الصالون وأقرأ كل ما فاتني قراءتُه ، وأنتظر الموت وكلبي إلى جانبي ، وقدحٌ من الخمر أمامي ، وجرس صغير في متناول يدي . أأريد أن أشرب قهوة ، أو قدحاً من العرق ؟ دقة جرس وتصعد بورتودِس الطبّاخة . أأريد أن يُلقى مزيد من الحطب في النار ، أو يُسرج الحصان ؟ أدقّ الجرس مرتين ويصعد آندرِس الخادم العجوز . أأريد أن أخلع كم سترتي أو تُنظّف نظارتي ؟ ثلاث دقات ويصعد آبيلينو الخادم الشاب الذي هو شبه لوطي . أأريد أن أذرّ «البودرة» على وجهي ؟ أقرع قدح العرق بالجرس وتصعد المحظية التي أدفع لها من أجل ذلك . أأريد أن أنقذ روحي ؟ أقرع الجرس قرعات متفرّقات ويصعد القسيس ليمنحني الغفران الذي يكلّفني مالاً معتبراً . متى ينجز كل واحد منهم مَهمّته ، يعدْ مرة أخرى دون إزعاج . ما يجري أسفل الدرج ، لا يهمني في شيء . من جهتي ، فليموتوا .

ـ اسمع ، دون كلوديو ، بشأن المحظيّة ، أتصلح فتاة برتغالية ؟

ـ تصلح ، يابني ، تصلح ، سواء عندي أكانت برتغالية أم صينية . ما يهمني أن تكون ذاتَ جسم جيد ، ونظيفة ومطيعة ، وتتحدث اللغتين الغليشية والقشتالية ، وكلُّ ما عدا ذلك نافل .

هذه العادات النبيلة والسليمة ، أصبح لا يمارسها أحد ، صار الناس اليوم مكسوري الأفواه وكسالى ، وكل يوم تزداد الأمور سوءاً .

ـ أسمعت أن المغاربة عبروا جبل طارق ؟

ـ هذ الخبر صار بائتاً ، يا صديقي العزيز ، أنت تأتي دائماً متأخراً .

دولورِس خادم دون مركسيلدو ، قُطع ذراعُها في المشفى بسبب ورم خبيث .

ـ بذراع واحد ، يمكن تدبير الوضع على خير ما يكون . مايجري هو أن الناس سيئو التعوّد . وإذا اعتاد المرء ، يسير كل شيء كما كان يسير من قبل . أهي نهاية العالم ؟ إذاً ، فلتكنْ عليّ .

مونتشو بريغيثاس ترك إحدى ساقيه في إفريقيا لما ذهب إلى هناك من أجل خدمة الملك . ابنتا خالته آديلا وخيورخينا تستعملان الأعشاب بوفرة ، وسوف تتسبّبان ذات يوم بكارثة .

ـ إلى القطب الشمالي لم أذهب ، لكنني أفكّر في الذهاب ، ولا إلى القطب الجنوبي سِرتُ . لا يزال ينقصني شيء كثير كيما أرى العالم . في القطب الشمالي توجد فقمة ، وفي القطب الجنوبي بنغوان . البنغوان طائر أنيس واجتماعي . ما يعجبني أنا ، غوياكيل . عشت فيها أياماً طيبة ، وهي مدينة مملوءة بالجداجد . لكني ما كنت أبالي بها .

عمي كلوديو مونتنيغرو يقول إنه اشترك في السباق الوطني الكبير في ليفربول عام ١٩٠٩ . قد يزيد عمي في روايته ، لكنه يقول أيضاً حقائق لا يصدّقها أحد . ركب حصاناً أدهم ، وهو الوحيد بهذا اللون في السباق ، يُدعى بيتي ساندي ٢١ ، سقط عمي عند الحاجز السادس وكُسر عظم ترقوته . أرجّح أن تكون القصة صحيحة . سان ماكاريو يجلب حُسْنَ الحظ في اللعب بالورق ، واليانصيب ، لكنّ نفعَه قلبل في سباق الخيول لاترو

كودسال كان ذا عينين زرقاوين ، وكذلك كانت عينا عمي كلوديو ، المغفّلات يستجبن للمداعبة واللمس خيراً من الممغفلين ، فإذا مُدّت الأيدي من خلال الياقات ظللن لابداتٍ كالأفاعي .

ـ أذاهب إلى لالين ؟ـ

ـ لا! أنا ذاهب إلى ماسيراس ، لكن إن شئت ذهبت إلى لالين ، لا فرق عندي .

منذ ما يزيد عن أسبوع لم تمطر ، وها هو الترغلَ يستحمّ في الجدول بأمان ، لأن البنادق جمعها الحرس المدني . ريموندو كسندولفس يتحدّث إلى قريبتنا رامونا .

ـ أما التسجيل ، فلم أسجل اسمي . هذ الأمر ليس له أساس ولا رأس . تحدثت إلى روبين فوجدته يفكر تفكيري . فقد الناس عقولهم ، وهذا خطر للغاية ، ما يهمني هو بلدوميرو آفوتو ، لأن فابيان ، وإن كنت لا تعتقدين ، لئيم ابن قحبة ، ومعذرة للكلمة . أنت جميلة جداً يامونتشا ، أتصبّين لي قهوة ؟ ما ينقصنا هنا هو أن يُمسك بزمام الأمر أحد شبه محترم وذو إحساس عام . فقد تخلّى الناس عن الاحترام والعادات . وما أبأسَ إسبانيا! كم كان بإمكان هذ البلد أن يكون عظيماً! أتتذكرين الأعمى غودنثيو ، شقيق آدغا ؟

ـ ذاك الذي في هذا البيت في أورينسه ، أو تعرفه أنت ؟

ـ نعم ، أعرفه .

ـ نعم ، أتذكّره . هو يعزف على الأكورديون جيداً .

ـ حسن! منذ ليلتين ، ضُرب ضرباً مبرّحاً لأنه لم يردْ أن يعزف ما أُمِر بعزفه .

مونتتسو يسير في أنحاء أورينسه منتصراً ، والذنب ليس ذنبه .

ـ أأجلب لك قليلاً من الكونياك بالقهوة ؟

ـ نعم ، وشكراً .

ـ أأضع قليلاً من الموسيقى ؟

ـ لا! اتركيها الآن .

ماركوس آلبيته مسرور لأنه فرغ من تمثال سان كاميلو .

ـ أتريد أن ترى سان كاميلو الذي عملته من أجلك ؟ لقد أنهيته ، هو أفضل سان كاميلو في الدنيا ، ليس لأنني أقول لك ذلك ، يقال إنّ له وجهَ مغفل . أنت تعلم أنه الوجه الذي يتجلّى به القدّيسون حين يفجرون المعجزات . أتريد أن أدعو ثفرنيو فوريلو كيما يباركه ؟

ـ حسن! سيكون ذلك أفضل!

سان كاميلو الذي صنعه من أجلي ماركوس آلبيته حسن جداً ، له وجه مغفّل ، أو بالأحرى هو كذلك ، وعلى الأرجح ينفع من أجل إحداث المعجزات .

ـ شكراً جزيلاً لك ، يا ماركوس ، هو جميل جداً .

ـ أأعجبك حقاً ؟

ـ نعم ، أعجبني كثيرا .

تشتدَ الحرارة صيفاً فى أورينسه ، وتصبح أعلى مما هي عليه في غوياكيل .

ـ ألا يوجد مزيد من الغرباء هذا العام ؟

ـ نعم ، أعتقد بوجود مزيد من كل شيء .

لزم غودنثيو السرير نتيجة «العلقة» التي تلقّاها ، كانت تُعنى به انونثيا ثيون سبديلّه ، نونثينيا ، وتدعى أيضاً انونثيا التي هربت من بيت أبويها في لالين لترى العالم ، لكنها لم تتخطّ أورينسه .

ـ أتشعر بالألم ؟

ـ لا! أصبحت في أحسن حال . سأعود هذه الليلة إلى القاعة .

ـ أجِّلْ عودتك حتى ليلة غد . الأفضل أن تستريح أيضاً بعض الراحة .

بقعة جلد الخنزير التي يحملها فابيان منغيلا في جبينه تبرق كأنما لمعت تلميعاً ، فابيان منغيلا لا يزال شاحباً كعادته ، أما النموّ ، فلم ينمُ ، لكنه يظهر أكثر فخفخة وأناقة .

ـ أتحسب أننا قد نلتقي هذا البغيض في السماء ؟

ـ لا ، يا امرأة! هذا هراء . لا يمكن دخول السماء هكذا ببساطة ، خاصة برقعة جلد خنزير في الجبهة . بهذه العلامة لا تسمح له الملائكة بالمرور . يمكنك أن تكوني مطمئنة .

حضّرت البرتغالية صاحبة روكه ماربيس أخ تريبيرو الأصغر ، وبالتالي عم آفوتو ، طبخة من أعشاب الماعز ، كيلا يصاب آفوتو بأي سوء ، لكن الرقْية لم تثمر ، فقد نقص منها شيء ، عشبة الماعز يجلبها السنونو من الأراضي المقدسة ، فإذا قام هرطقي بوضع بيوضها في الماء العذب لسلقها وقتْل أجنّتها ، تضع السنونو تلك العشبة في العش فتبعث البيوض بعد موتها ، وإذا ما ألقي بقبضة من هذا العشب في النهر ، تسبح عكس

التيار ، وتأمر المردة حراس الكنوز أن تعلن عن مخابئ الكنوز ، المردة شجعان لكنهم مطيعون ، ولا يتخلّون عن الانقياد لأوامر الله ، المردة تحرس ثلاثة كنوز : كنوز العرب والغوط والرهبان ، ولكنها تسلّمها بكل هدوء ، إذا ما قُرئ عليها : الثيبريانيّو (١) ، وإذا لم يكن المارد تنّيناً أو ثعباناً يتحول إلى شبح ، فإنه يعمل لنفسه رقية سحرية ويستطيع الهرب صافراً في الهواء .

دون خيسوس منثنيدو يضحك كثيراً وهو يقص قصة إنوثِنْثيو سولّروس نانْدِه ، موظف المصرف .

ـ ما كان أشد خوفه! لما سألته إن كان سيعترف أم لا ، شرع يبكي ، وأبقيته للحظة راكعاً تأديباً له .

رواية دون خيسوس منثنيدو ليست صحيحة ، فقد وقف إنوثنثيو وقفة رجل ومات بكرامة كبرى . لما سدّد إليه دون خيسوس البندقية وهو راكع ويداهُ مقيّدتان وراء ظهره ، ويتلقّى الركلات على كليتيه وخصيتيه ، دعاه إنوثنثيو بابن القحبة وبصق على وجهه .

ـ إن لم تكن ابن قحبة ، اقتلني ، ـ قال له ـ أنت لا تقتلني لأنك مجرم تقتل غيلة ، هذا واضح عليك .

ضفادع كونتيّة تيبرّاري في إيرلندة ، نبيلة كضفادع بحيرة آنتيلا ، وقد شهدت بالتأكيد ، فيضاً من الدم المسفوح ، حين تتفجر مجاري الدم يغرق كل شيء في الدم الذي سيبطئ طويلاً حتى يجف ؛ بعض الرجال يحمل وطواطاً مصاص دماء معلقاً بالقلب .

---

(١) نسبه إلى ثبريانو وهو عند العامة كنتب في السحر يستعان بكلماته على الكشف عن الكنوز

لم يمتْ إنوثنثيو معترفاً ، ولم يأته أحد بخوري كيما يأخذ منه الاعتراف ، ويمنحه الغفران ؛ ما سجّله دون خيسوس في دفتره فِرْية . كلا! إنوثنثيو لم يمت معترفاً ، دون خيسوس كاذب ، وإن كان دقيقاً فيما خلا ذلك ، كان لدون خيسوس بنت تدعى كلاريتا ، تخلّى عنها خطيبُها لما ساوره الخوف منها ، بعض الناس حذرون جداً ، وبعضهم يتحمّل الإهانة حتى حين يتحاشاها الآخرون .

ـ أنا ذاهب للدفاع عن الوطن ، يا كلاريتا ، لا تكتبي لي ، فعلى الأرجح سوف أُقتل ما إن أصل الجبهة .

ذهبت روسيكلير إلى قريتها لما قُتل والدها ، ولم تلبس الحداد لأن السلطات ما كانت ترغب في أن يلتزم الحدادَ أحدٌ على بعض الموتى .

بينيثيا تقلي الكعك جيداً ، وتصبّ الخمر عارية بمعرفة وثنيّة جد عتيقة ، والزمن يسحب ذيله فوق الناس جميعاً ، وأنا أحدثك عن زمن قادم ، ولعلك تفهمني .

ـ بذلك يصبح مذاقه أطيب ، أتريدين أن أسكبه فوق ثدييك ؟

ـ نعم ، أشكر لك ذلك ، فأنا حزينة قليلاً .

تُعنى الصحف كثيراً بالتفاصيل : فلان بن فلان رفض أن يتلقّى المساعدة الدينية ، ومات يائساً قانطاً ، بينا فلان بن علان اعترف وتناول القربان بحماس ومات سعيداً مطمئناً راضياً . هي عادة أن تتوالى حالات الاطمئنان واليأس في مقبرة سان فرنسيسكو ، فالموت يدعو إليه الموت . نحن ـ آل غوِكسينده ـ كنا نرغب دائماً في حمل العصيّ في المهرجانات ، لكننا أصبحنا اليوم أشبه بالحمقى .

ـ أنا حزينة ، يا روبين ، فهذا الوضع لا يوجد من يوقفه ، هو أشبه بالكوليرا القاتلة . من يستطيع ضبط الناس ووضع قليل من نظام في هذه الفوضى ؟

ـ وما أدارني!

قُبض على الوزير السابق غوميث براديلا في بيرين ، وسُكِب عليه البنزين وأضرمت فيه النار ، فرقص ، على قول آنطونيو ولا يعرف أحد من هو أنطونيو ، رقصة جنائرية حتى مات .

ـ وماذا عن أنطونيو ؟

ـ لا يعرف أحد من هو أنطونيو كما قلت لك ، ولا النهاية التي انتهى إليها ، ربما قُتل ضرباً بالعصي ، وهو أرجح الظنون . هؤلاء الناس مصيرهم دائماً الموت تحت الضرب .

جلب فابيان منغيلا روساليا تراسولفه من القرية .

ـ وفوق ذلك ، تسكتين . أنت هنا لأستمتعَ بك ، وعليك أن تسكتي ، أتفهمين ؟

روساليا تراسولفِه كانت تصدّق على قول كل إنسان . كابوكساتولا ، أو العنز المجنونة ليس فيها من الجنون شيء .

ـ أنا ما زلتُ أحيا ، بينا موتشو انتهى كما انتهى . أنا أرى أن مصير كل فرد معلّق بما قام به خلال حياته ، قد لا تصحّ القاعدة أحياناً ، لكنها صحيحة تقريباً دائماً .

تعيّن على روبين لبونان أن يستضيف ابن عمه آندرس بوغاييرا الذي قدم من لاكورونيا .

ـ في دائرة أرتيسانو أُحرقت كتب باروخا وأونامونو وأورتيغا إيغاسيت ، وديمارينيون ، وبلاسكو إيبانييث بالطبع ، في حين أبقي على كتب فولتير وروسو لأنهم وجدوها أخف وقعاً .

أما الصحف فتقول : حُرقت على شواطئ البحر ، كيما يجرف البحر ، بقايا كل هذا العفن ، وكل هذ البؤس ؛ أحرقت أكوام من الكتب والمنشورات التي تتضمّن ذات الدعاية الإجرامية المعادية لإسبانيا ، وأدباً مقززا بورنوغرافياً .

ـ أرأيت إسبرانثا بعد مقتل زوجها ؟

ـ لا! قيل لي إنها ليست في بيتها .

كان آندرس يريد العبور إلى البرتغال .

ـ إذا كان معك مال ، تستطيع الابتعاد سريعاً عن الحدود . ومن لشبونة يمكنك الانتقال إلى أي مكان تشاء في أوربا . لكن ، إذا كنت لا تملك مالاً ، فَسِرْ بحذر ، لأن الحرس المدني يُعيد كل من يقبض عليه ويسلمه في توني وهو مكان سيءُ السمعة .

تشيلو دومينغيث بنت أبيلانينوس ، أو قل زوج روكه غاموثو ، هي موضع حسد نساء البلد كله .

ـ ليقبضنا الله إليه معترفات ، آمين! يقال إن روكه زوج تشيلينو يتمتّع بقضيب بحجم رضيع عمره ستة أشهر أو سبعة .

ـ لكن ، ما هذا الهراء ، يا أمرأة! كل القضبان متشابهة .

ـ آي ، كلها ، لا! بعضها تبعث على الفخر رؤيته ، وبعضها الآخر يشبه ديدان الأرض .

ـ ذلك ، حسب الحال ، يا امرأة ، حسب الحال .

ـ حسب ماذا ؟

ـ ماذا سيكون ؟ تبدين مغفلة .

مونتشو بريغيثاس يتحدث بشوق مُمضّ جداً عن خالته ميكائيلا .

ـ احتفظ بذكرى ذهبية عن الطفولة ، والأقراص بطعم القهوة بالحليب والتفاح المشويّ الذي يُقدّم بعد الطعام ، وشجيرات الورد المحمّلة بالورود الحمر ، والأشياء الرخيصة التي كانت تصنعها لي خالتي ميكائيلا... كانت المسكينة رؤوفة ومسلية ، وكانت تداعب قضيبي لتوقظ فيَّ روحي حبَّ الحياة والفضول لأكتشف العالم من حولي .

ـ لا تنطقْ بالحماقات! كانت تداعب قضيبك لأنها كانت تُسر بلمسه ، وهو ما نعجب ونسر به جميعاً .

آديلا وخيورخينا بنتا خالة مونتشو ترقصان التانغو مع الآنسة رامونا وروسيكلير .

ـ أتريدين أن أخلع بلوزتي ؟

ـ لا بأس!

الخالة سلبادورا ، أم ريموندو كسندولفِس في مدريد ، ولا يُعلم عنها شيء ، لأن الاتصالات مقطوعة ، على الأرجح يمكننا الاستعلام عنها عبر الصليب الأحمر ، الخال كليتو لا يزال يعزف الجاز باند كسابق عهده ، والخالتان خيسوسا وإيميليتا تبدوان مخدّرتين ، أو بالأحرى هما مخدرتان فعلاً .

ـ يا لهذا الرعب! ويا لهذه الضوضاء! كليتو يقضي نهاره وهو يقرع الطبل لكي يصدع رأسينا ، لا ندري لِمَ لم يسجّلْ اسمه في فرقة صليبيي أورينسه ، ويتركنا في هدوء .

الخالتان خيسوسا وإيميليتا تتلقيان ورقة دعائية : أيتها المرأة الغليشية ، فكرّي في قول كيبيدو الذي لا يوجد قول آخر ينطبق على الواقع الحالي مثله : النساء أدوات لإضاعة الممالك (يا الهي ، لهذا الجهل!) وهنا يكمن سرُّ قوة نفوذك في العالم .

ـ أتفهمينه ؟

ـ ليس كثيراً ، زِدْ على ذلك ، يبدو لي أنه كان يستطيع أن يكتب «سيدات» بدل نساء . ماذا كان يكلّفه ذلك ؟ في رأيي ، ما يريدونه منا أن نشتغل بكنزات التريكو وسوف ترين .

بِسْبورا ، كلبة الخال كليتو ، تقضي لياليها كاملة وهي تعوي لأنها تشمّ رائحة الموت في الهواء ، الخالتان خيسوسا وإيميليتا ، بالرغم من العلامات المنذرة ، تصلّيان أكثر من أي وقت آخر ، تتهامسان أكثر من أي وقت آخر وتبولان بقوة وغزارة أشد من ذي قبل ، الحقيقة أنهما تعدّان كل شيء ضائعاً ، يبدو أنهما تبولان دون كلل ، وصار للبيت رائحةُ مبولة عامة .

ـ له رائحة قط .

ـ نعم ، نعم ، له رائحة قط! ما يفوح هو رائحة بولٍ عتيق .

ـ يا إلهي!

الحيوانات الميتة المتدلّية من عريش خادم الكنيسة أخذت تتساقط تيناً فتيناً ، والآن أصبحت دون رونق .

ـ بسبب المنافسة ؟

ـ بالطبع .

خبّأت دولورِس خادم خوري سان ميغيل ديبوثينيوس الفونسينيو مارتينيث عاملَ البرق ، ولما جاء الحرس يبحث عنه لم يجده .

ـ ألم يدخل هذا البيت ؟

ـ لا! أموت ولا أتركه يدخل .

قال دون مركسيلدو لألفونسينيو .

ـ ستتحمّل إلى أن تهدأ العاصفة ، فلا تطلَّ من أية جهة ، ولا من الباب ، هذا الوضع لن يدوم مدى الحياة .

ـ نعم ، يا سيدي ، وشكراً جزيلاً . ما يخيفني هو موتشو كرّوبو ، يقال إنه يتجوّل في هذه الأنحاء بكامل عدّته .

ـ دعْك منه . لن يجيء إلى القرية ، وهو لا يتجرّأ علي .

ـ سمع الله منك .

مريكينيا من قرية توكسيدينيو في خورنية بارادا ده أوتيرو التابعة لمدينة بيلار ديسانتوس في ليميا ،كان ذلك التقسيم منذ زمن بعيد ، منذ أيام العرب ، غراب السجين منويلينيو ريميسيرو دومينغيث ، يُدعى مونتشو باسم ابن العم الذي مات بالسعال الديكي . تبعث على الإعجاب رؤيته يطير . مريكينيا راعية شابة فقيرة وجميلة تقود كل صباح بقرة ونعجتين وثلاث عنزات إلى مكان اسمُه جبل كَنْتَرِيثنياس . تعلّم الغراب مونتشو الصغير . وهو يعرف بعض الإيقاعات من لحن الماثوركا الذي لا يعزفه

الأعمى غودنثيو إلا حين يشاء . أم مريكينيا أرمل ، وقد عرفنا طعم البؤس والمرض . دون كلوديو دوبيكو لابونييرو معلّم ، وقد ساءت أحوال المعلّمين هذه الأيام . كلوديو على علاقة غرامية مع دونيا إلبيرا صاحبة الفندق الذي ينزل فيه ، يبدو أنه يضطجع مع الخادم كاستورا أيضاً . في الجبل صخرة تسمى «مَمْشطة الملكة» لها شكل كرسي مقر الاعتراف بنافذته الصغيرة ، تجلس عليها الملكة العربية وهي تسرّح شعرها وتحلّي كنوزها . كان المسيحيون يستطيعون رؤية المشهد من بعيد ، لكن ، إذ اقتربوا ، اختفى كل شيء كالسحر . دوروتيو العريف في الحرس المدني الذي يلبس ثياباً داخلية نسائية ، أُجبر على البقاء في الثكنة منذ بضعة أسابيع . دوروتيو يحفظ مقاطع طويلة من : « في الفلاندر غابت الشمس » ، لدون إدواردو مركينا . ذات صباح ، رأت مريكينيا عربيّةً هرمة ذات مظهر نبيل جداً ، فنادتها العجوز باسمها .

ـ مريكينيا!

ـ مري ، يا سيدتي!

ـ أتريدين أن تفلّيني من القمل ؟

وإذْ كانت مركينيا مهذبة ، أجابتها .

ـ نعم ، يا سيدتي ! لن أتأخر عنك .

وتوجهت العجوز العربية التي كانت ملكة جبل كنترينياس ، إلى الفتاة .

ـ أتسقينني قدحاً من الحليب ؟

وقالت لها مريكينيا ما قالته من قبل .

ـ نعم ، يا سيدتي . سأجيئك به .

ملأت العجوز منديل مريكينيا دون أن تقول لها بماذا ، وأمرتها ألا تقول شيئاً لأحد ، وألا تنظر إليه حتى تصلِ بيتها وتجلسَ قرب المدفأة ، وتغلقَ الباب والنوافذ . دون كلوديو وإيلبيرا يتخاطبان دون كلفة في السرير ، أما خارج السرير ، فيتخاطبان بشكل رسمي حتى لو كانا وحيدين يلعبان : (البارشيس) . وَفَتْ مريكينيا بما أمرتها الملكة العربية ، ولما فكّت المنديل رأته ملآن بالقطع النقدية الذهبية ، وشعرت أم مريكينيا بالسعادة ، ولم تستطعْ معرفةَ مصدر المال ، مهما طرحت من أسئلة . آدريان أستبيث ، أو تبيرون ، يسبح خيراً من الأسماك والضفادع ، ويبدو كذباً أنْ يستطيع السباحةَ بهذا الإتقان ، ويتحمّل البقاء تحت الماء أكثر مما يستطيعه أي شخص آخر ، عادت مريكينيا في اليوم التالي ، وتكرّر معها المشهد ذاتُه ، لكنها بينا كانت تفلّي الملكة العربية ، انتابتها نوبة من السعال لأن الطقس كان بارداً جداً .

ـ لا تسعلي فوقي! ـ قالت العجوز ـ التفتي بوجهك إلى جانب آخر ، لأنني لا أريد أن تعمّديني بلعابك .

في فيرّيرا بيلا ، قرية تبيرون ، كلُّ الناس مُعمّدون ، وبإمكانهم أن يبصق كل واحد منهم على الآخر دون خوف ، فكلُّهم مسيحيون ، منذ أمد بعيد ، منذ قرن أو يزيد ، عادت مريكينيا بمنديلها مملوءاً بالعملات الذهبية مرة أخرى . وكانت تجيب عن أسئلة أمها دائماً بالصمت ، لكنها لم تستطع الصمود ذات ليلة ، فزلّ لسانُها ، ورأت كيف ضاعت منها الثروة والحياة . فقد تحوّل الذهب إلى حصى كحصى الطرقات ، وأصبح جسمها وروحها لا يعرف أحد عنهما شيئاً . ولما خرج جيرانها في توكسدينيو باحثين عنها في الجبل ، سُمع صوت من العالم الآخر يقول : «مريكينيا ، بسبب ثرثرتها ، صارت في بطني ، وقد قليتها بالزبدة والثوم» .

ـ ياللمسكينة مريكينيا! مصيرها كان أسوأ من مصير باسيليو ريباديلو ، مُكاريْ سوبرادو دوبيسبو .

ـ أي ، نعم . هذا الأخير ظل فقيراً . لكنه نجا بحياته .

أقرباء روسيكلير الارجنتينيون الذين يسمّون الغرامولا بيترولا ، رحلوا إلى بوينوس آيريس ، لما سجّل خيسوس منثنيدو في سجل وفياته الخاص اسم إنوثِنْثيو سوليروس نانْدِه ، رقم ٣٧ ، تاريخ ٢١ ت١ ، عام ١٩٣٦ ، موظف في المصرف ، آلتوفورّيولو ، مات معترفاً (وهذا غير صحيح) ، قالوا إنهم راحلون ، ورحلوا ، وحسناً صنعوا ، كما أرى .

ـ هذا سيتحّول إلى مذبحة ، لا يعرف أحد من سينجو بجلده ومن لا ينجو ، هذا سيكون حريق طروادة ، ونحن لن نظل هنا ، هذا خصام بين الإسبان .

آلتو ديل فوريولو تقع بين ليميا ثيلانوبا ، والناس تنزلق أقدامهم فوق الدم ، وما أكثر الذين كُسِر عظم من عظام هيكل روحهم!

ـ أصحيح أن العشب نما بسرعة كبيرة ؟

ـ نعم ، صحيح ، ذلك كيما يمحو آثار كل هذا الألم .

مرضت الخالة خيسوسا فجأة ، مرضت مرضاً خطيراً .

ـ ألم يُستدع الطبيب ؟

ـ بلى!

ـ ماذا يقول ؟

ـ يقول إن المسكينة عجوز ، وهي مُنهكة جداً ، لا تعاني من شيء مُحدّد لكنها عجوز ، وسيتوقّف قلبها شيئاً فشيئاً .

ـ شفاها الله!

لما ذهبتُ لعيادتها وجدت كل شيء مغلّفاً بالسر والغموض ، فالكلبة بِسْبورا أصبحت لا تطيق كل هذا الإعلان عن الموت ، والخال كليتو يعزف الجاز باند حتى مشارف الموت ، يعزفه مرة تلو الأخرى ، يعزفه أكثر من مئة مرة ، ربما أكثر من خمسمائة مرة في اليوم حتى لا يُسمع في النهاية إلا كضوضاء الريح بين أشجار السنديان . الخالة إيميليتا والخال كليتو يختصمان بشأن المكان الذي ستحتلّه جثّة الخالة خيسوسا في المقبرة ، والخالة خيسوسا لم تصبح جثة بعد ؛ لكن ، يلاحظ أنها ستصبح كذلك بين فينة وأخرى .

ـ قبور العائلة مُلئت كلها ، ولا نستطيع الآن تحمل نفقات .والطرق مسدودة أمامنا .

ـ كلا! لكنك لا تريد أن تلقي أيضاً برفات آبائك إلى النهر .

ـ أنا لا أقول شيئاً ، لكنك ستقولين لي ماذا نصنع .

تعتقد الخالة إيميليتا بوجود امتيازات بعد الموت ، وتؤمن بالاحترام الواجب نحو العِفّة والطهارة الناصعة .

ـ ينبغي لك أن تتذكر يا كليتو ، أننا ـ أنا وخيسوسا ، عذراوان ، وموقفك لا يقلّ سوءاً عن تركك لوردِس في باريس .

نظر الخال كليتو إلى الخالة إيميليتا نِظرةً كأنما يريد أن ينوّمها مغناطيسياً .

ـ لكن ، أيّة دابة أنت ، يا أختي! أنت أشبه بالبغلة .

انفجرت الخالة إيميليتا باكية ، وخرج كليتو من الغرفة صافراً بعد أن أفلت صرطة ، كما يصنع دائماً

ـ أعلِمِيْني إن أردت شيئاً .

الأخبار التي تصل من كل الأنحاء ليست مطمئنة جداً ، ولا أخبار الكوارث في مصر . على الأرجح غطت الضمائر سحابة قاتمة وأخذت تتعتع .

ـ نحن ـ الوطنيين ـ استولينا على بَدَخوس .

ـ ولِمَ تقول نحن ؟

ـ لا أدري! ماذا تريدني أن أقول ؟

ميثيفو ثاموري سقط على أورينسِه دون أن يدعوه أحد وأخذ يُصدر أوامر لكل الناس ، لأنه يملك مواهب قيادية كبرى .

ـ أليس أحول قليلاً ؟

ـ ربما! لكن ، يستطيع كل شخص أن ينظر إليه ويتحقق .

أطلق عليه لقب ميثيفو بسبب شاربيه ، أما اسمه الحقيقي فهو بيينْبينيدو غونثالث روسينوس ، وكان خبيراً تجارياً . ميثيفو كان قصير القامة ، لكنه ضامر جداً ورشيق ، حتى يبدو طويلاً إذا لم يقف إلى جانبه أحد . دون أُبْريخيمو فَرَمِيْنياس كان يمقت قصار القامة الذين كان يصنّفهم في فئتين كبيرتين جد مميزتين . فئة الذين يمكن للدجاج أن ينقر مؤخّراتِهم ، وفئة الذين ينبغي لهم أن يغنّوا وهم سائرون كيلا تطأهم الأقدام .

ـ أيّ من الفئتين ليس صالحاً ، لا هذه ولا تلك ، وكلتاهما أسوأ من الأخرى .

ـ يجب أن يُحجر على قصار القامة .

ـ نعم ، يا سيدي .

ميثيفو كان منظم «كتيبة الفجر» وباعثها والرئيس الأول لها . كانت الكتيبة تعمل حسب طقوس جليلة جداً ، وكان أفرادها يبدون إيطاليين ، قُتل ميثيفو طعناً بالخنجر عند باب محلّ لابروتشا ، غودِنْثيو يعرف من قتله لكنه لا يريد أن يبوح باسمه ، وهو ، كأعمى ، يستطيع الإنكار .

ـ أنا هنا للعزف على الأكورديون . كيف لي أن أعلم ما يجري إذا كنت أعمى ؟ ألا ترى أني أعمى ؟

ـ بلى ، يا رجل ، بلى ، سامحني ، هيا ، تابع عزفك .

ميثيفو لم يُطعن سوى طعنتين اثنتين ، الأولى في حنجرته ، والأخرى في صدره ، وكان قاتله هادئاً غاية الهدوء . برّوتشا لم تعجبها الحادثة في شيء .

ـ إمّا أن يهدأ الناس ، أو أغلق الباب ليلاً ، ولا يعمل أحد إلا نهاراً . هذا بيت محترم ولا أقبل شجاراً هنا . بذلك يصبح الوضع أفضل!

تُركت جثة ميثيفو في الشارع بعيداً قليلاً عن الباب ، وغُسل البلاط بالماء لإزلة الدم . توجهت بوراغرّوتشا إلى الديوثين المحزونين .

ـ الآن ، اسكتوا جميعاً ، أتفهمونني ؟ الأفضل أن يُنسى الحادث بأسرع ما يمكن .

ـ نعم ، نحن نفهمك .

قالت آنونثيا ثيون سبديلّه لغودنثيو .

ـ استغفر الله! لكني فرحت بمقتل ميتيفو .

ـ وأنا ، يا أنونثيا ، وأنا أيضاً .

ـ زدْ على ذلك ، أنا أعرف القاتل .

ـ انسي اسمه ، ولا تفكري فيه .

ذكرى ميثيفو دامت قليلاً ، لأن الأحداث تدافعت وراء بعضها البعض لتحتّل مكاناً في الذاكرة .

ـ أتناولينني فنجاناً من القهوة ، يا أنونثيا ؟

ـ نعم ، سآتيك به حالاً .

أمرت الآنسة رامونا بإسراج الحصان وخرجت به إلى الجبل . عند قرية آرينتيرو التقت زوجاً من الحرس المدني .

ـ صباح الخير يا آنسة . إلى أين ذاهبة ؟

ـ لِمَ تسألني إلى أين ذاهبة ؟ أذهب إلى حيث أشاء ، ألا أستطيع الخروج للنزهة متى أشاء ؟

ـ بلى ، يا آنسة! لم نقل ذلك بقصد سيّء . تستطيعين الذهاب إلى حيث تشائين . هذا حق . لكن ، ما أشد اضطراب الأمور!

ـ ومن جعلها مضطربة ؟

ـ آي! هذا ما لا أعرفه يا آنسة . على الأرجح ، كل ذلك مضطرب بطبيعته .

لما عادت الآنسة رامونا ، كان بانتظارها ريموندو كسندولفِس وروبين لِبُوتان ابتسم ريموندو متهيّئاً للكلام .

ـ استدعاني الحاكم المدني .

ـ ولأي شيء ؟

ـ لا أدري . استدعاني الحاكم الجديد العميد كيروغا .

ـ أو ستذهب ؟

ـ لا أدري أيضاً . هذا ما أريد أن أسألك عنه . ماذا ترتئين أنت ؟

ـ لا أعرف ماذا أقول لك . ينبغي لنا التفكير في الأمر بهدوء .

في لحظة كهذه اللحظة ، لا يُعرف الصواب أبداً . ريموندو كان من أنصار المثول أمام الحاكم ، أمّا روبين ، فكان معارضاً . روبين كان يحاول أن ينزع هذه الفكرة من رأسه .

ـ دخولك البرتغال سيكون خطأً بسبب وجود الحرس المدني ، وأنت تعلم ذلك . لكنّ خروجك من هذا المأزق سهل . يمكنك الانخراط في فرقة «الرايات الغليشية» لبارخا ديكيروغا . وأنا أفضّل الحرب على الحل الآخر .

العميد دون مانويل كيروغا ماثيا الحاكم المدني للمنطقة ، ومسؤول النظام العام ، استدعى إليه ريموندو لتعيينه رئيس بلدية بينيور ديثيا .

ـ يشرّفني ذلك ، سيادة العميد . لكنني فكرت في الانضمام إلى فرقة الرايات الغليشية ، وكنت على شفا الانطلاق إلى لاكورونيا .

ـ حسن! سلوكك جدير بالثناء . أتستطيع أن تذكر لي شخصاً من أجل هذه الوظيفة ؟

ـ لا ، يا سيدي . لا يحضرني في هذه اللحظة اسم أحد .

الإذاعة تذيع إن انتصار الانتفاضة لا يقف في وجهه عائق : أصبحت

مدريد دون حكومة . آخر مجموعة من المهرّجين المضحكين الذين خانونا ، هربت بالطائرة إلى تولوز ، وتركت السلطة فعلياً في أيدي الشيوعيين ، وآخر مآثرها كان حريق متحف إيل برادو وتدميره .

ـ اللعنة! إذا صحّ ذلك ، فلن يبقى مهرج واحد حيّاً!

ماريا أوكسيلادورا بورّاس ، الخطيبة أو شبه الخطيبة التي تخلت عن آدولفيتو تشوكيرو زوج خيورخينا الأول ، قضت أسبوعاً كاملاً في السرير مع ميثيفو .

ـ أوَ لَمْ يُثِرْ نفورك ؟

ـ ولِمَ ؟ بيينبيينيدو رجل أيُّ رجل! هو ليس طويلاً ، لكنه رجل حقاً . وليُقطع لساني إن كنت أكذب . مايقال عنه مزاعم ، والناس حسودون جداً ، وينشرون إشاعات أكثر مما يجب .

الخالة إيميليتا ترفض أن تكلّم الخال كليتو .

ـ أنا سيدة كبيرة ، ولا أجد ما يدعوني لأتوجه بالكلام إلى خنزير دون مبادئ . وليغفرِ الله لي . لكنّ كرامتي تمنعني من أن أقوم بذلك . يا للمسكينة خوسيفينا! كانت تستحق أن تُعامل عند موتها معاملة أفضل!

جثمان الخالة خيسوسا مايزال مسجّى ، يرافقه الخال كليتو بالجاز باند ، وينطق بخطب : أيها المواطن الغليشي! لقد أشرق يوم جديد من الخلاص الوطني واستقلال إسبانيا!

ـ أنا لا أعلم خَالك وطنياً متحمساً .

ـ لا! هو ليس كذلك . وإنما يقول ما يعرض له .

لما عدنا من المقبرة جميعاً ، تتقدّمنا الانسة رامونا ، قال الخال كليتو للخالة إيميليتا :

ـ أريد أن أتحدث إليك ، يا إيميليتا ، وأطلبَ منك الصفح عن الإهانات التي ربما ألحقتها بك . أتصفحين عني ؟

ـ بالطبع ، أصفح عنك ، يا كليتينيو . ألم يصفح المسيح عن اليهود الذين صلبوه ؟

ـ شكراً لك ، إيميليتا . والآن ، استمعي إليّ . لا ينبغي لنا تضخيم الأمور جداً . أتفهمين ؟

ـ لا! لا أفهمك .

ـ حسن! سواء عندي . لا ينبغي لنا أن نُفرط في التهويل . الاعتراف بالهزيمة خير من متابعة القتال لا سيما بين أفراد العائلة الواحدة . أتعترفين بهزيمتك وتستسلمين ؟

احمرّ وجه الخالة إيميليتا أولاً ، ثم شحب ، ثم سقطت أرضاً مغشياً عليها ، حتى سُمع صوتُ ارتطامها بها . في حين كنت والآنسة رامونا نُعنى بها ، صعد كليتو إلى شقّته وأخذ يعزف الجاز باند ، لكن ، ليس قبل أن يُطلق كعادته ، ريحاً جافة حادة وطويلة .

ريموندو كسندولفس انضمّ إلى فرقة «الرايات الغليشية» ، في لاكورونيا يسود حماس وطني كبير . تبرّع الطفل خ . ت ، بجَدْيٍ وخمس صفائح من حبّار البحر مع سائله ، أُعْدِمِ الحاكمُ المدني دون فرنسيسكو بيريث كاربالّو ؛ السيدة ت ، والدة الطفل السابق والمعجبة بالجيش الإسباني المجيد ، تبرّعت بمصيرٍ دقيق محشو باللحم والبهار ، وبآخر

كبير ، وبستّ دستات من قطع النقانق ، أُعدِم المقدم دون مانويل كيسادا من قوات الاقتحام ؛ دون خ . ت ، زوج السيدة السابقة ووالد الطفل الأول ، بأربع دجاجات ، وبستّ دزينات من البيض وبثلاث صفائح من سمك البكالاو المملّح ، أُعدِم النقيب غونثالو تيخيرو من قوات الاقتحام ؛ إي . أ ، بعُلبة من مربّى السفرجل صنع بوينته ـ خينيل ، أُعدم رئيس بلدية كورونيا دون آلفريدو سواريث فِرّين ؛ سيدة محبة للسلام ، تبرعت بخمس زجاجات من خمر ريوخا الأحمر ، وبستّ صفائح من الزيت ، أُعدم الأميرال دون أنطونيو آثارو لاغروسيّون ؛ آ .س ، بثلاثة أرانب وثلاثة فراريج ، أُعدم الجنرال دون روخيليو كَرَيْداد بيتا ؛ وطنيّ متحمّس ، بعلبة سمن أستورغي ، أُعدم الجنرال دون إنريكه سلتيدو مولينويبو . ريموندو كسندولفس حزين .

ـ ستقع هنا جرائم كثيرة ، وهي تقع اليوم بحماقة كبرى ، لكنّ الأسوأ من ذلك تقهقرُنا جميعاً ، سيكون تقهقر البلد . يا لبؤس إسبانيا! أسوأ هذه الانفجارات انتصارُ السوقيّة ، في بعض اللحظات ، يشعر المرء بسوقيّته ، والتباهي بأنه حمار وجاهل ، أوقات هي أسوأ الأوقات ، وهي أيضاً أشدها مأساوية ودموية ، السُوْقة لا يغفرون شيئاً ، ويحجبون عن الله الصورة التي خلقها على مثال صورته ووجهه ، ويُلبسونها ثياب بهلواني أو مهرج ، ربما تراجعنا مائة عام ، لكننا مُلزمون بالسكوت ، ولا يفيد شيئاً إنْ أردنا الوقوف في وجه هذا المدّ ، ولا يستطيع أحد أنْ يجسَّ نبض التيارات السفلية . وليكن ما أراده الله!

الطقس حسن ، وسكان البلد حائرون ، والشمس تقلب الهواء الذي نتنفّسه وتطلي الجوّ بزهم غريب قليل السلامة ؛ الآنسة رامونا يقلقها مسير

ريموندو ، ويشغلها أكثر من ذلك إقناعُ الرجال الآخرين بالبقاء .

ـ أتحبّون أن تُطلق عليكم النار ؟ هذا يجعل سُكنى الأرض غير صالحة لبني البشر . أتتذكّر ما قاله من لا أعْرِف اسمه : الإنسان ذئبٌ على الإنسان ؟ وكأنما رُفع الحظر عن قتْل الرجال . نحن ـ النساء ـ نحمي أنفسنا بشكل أفضل ؛ ولِمَ لا تذهب أنت أيضاً ؟

ـ كلا ، يا مونتشا! أنا في هذه اللحظة ، باقٍ ، سأرى إن كنت أطيق الوضع . إيل موتشو لئيم ابن قحبة ، تعرفين ذلك كما أعرفه ، ولكنه لا يجرؤ عليَّ .

ـ لا تكنْ شديد الاطمئنان ، هؤلاء يَنْمون في الفِتنة ، كلُّهم سواء ويدعمون بعضهم بعضاً .

ـ حسن! سأدافع عن نفسي .

في حانة راوكو يشرب الناس الخمر صامتين . مرٌّ للغاية ألا يثقَ أحد بأحد .

ـ أتعتقد أن كابوكساتولا مسرورة بفابيان ؟

ـ أنا لا أعتقد بشيء . هذا شأنهما هما .

الآنسة رامونا أجمل مما هي عليه في أي وقت آخر ، بعينيها العميقتين السوداوين وشعرها المسدل ، لأن الحزن أضفى عليها سحراً ، ولأنها تلبس أيضاً بزّة مشدودة على جسمها .

ـ ماذا سيصنع روبين ؟

ـ هو متَردد ، وأنا لست الوحيد المتردّد . كلنا متردّدون دون أن ندري ماذا نصنع وهذا الوضع سيُزمن جداً .

تخرج الآنسة رامونا من الصُوان زجاجة خمر أوبورتو وعلبة أقراص بسكويت عميقة .

ـ أتريد قدحاً ؟

ـ نعم ، وشكراً .

ـ معذرة ، إذْ لم أحضر صحنا من أجل أقراص البسكويت . أخرِجْها من العلبة بعضُها فاخر جداً و مصنوع من جوز الهند .

جلست الآنسة رامونا إلى البيانو .

ـ ماذا تريد أن أعزف ؟

ـ ما تريدينه . ما يُعجبني هو أن أراكِ .

ابتسمت الآنسة رامونا بغنج لطيف للغاية . قلّما كانت بهذا الجمال! ثم أزعم أني أعرفها جيداً!

ـ أهو تصريح بخطبتي ؟

ـ لا ، يا مونتشا! نكتة ، ويا لها من نكتة! أنا لا أريد أن أكون سبباً في تعاسة امرأة ، خاصة أنت ، أنا لا أصلُح للزواج ، ولا أن تكوني خطيبتي ، والأرجح أني لا أصلح لشيء .

ـ لا تنطقْ بالحماقات! أأنت واثق بأنك ستجعلني تعيسة ؟

عزفت الآنسة رامونا فالس الأمواج .

ـ هو لحن متكلّف قليلاً ، لكنه جميل . أليس كذلك ؟

ـ نعم ، هو جميل للغاية .

وطار فيما وراء عيني ، أو قل جال داخل رأسي شيء يشبه ضربةً مؤلمة حزينة فيها بعض الاستسلام .

ـ مونتشا!

ـ ماذا!

ـ أتعتقدين أني سأكون هدفاً للرصاص ؟

ماروخا بوديلون ، بونفرّديةُ ثلسو باريلا ، خطيب الخالة إيميليتا البعيد صارت تُحرّم كلّ شيء ، فقد أرخت طيّات كمّيها ، وتخلّت عن صبغ شعرها .

ـ لا ضرورة للإثارة ، والسلطات على صواب . نحن ـ الإسبانيات ـ ينبغي لنا أن نتميّز قليلاً عن الإنكليزيات والفرنسيات ، في الحشمة على الأقل ،

ثلسو باريلا لا يفقه شيئاً مما يجري ، لكنه يلتزم الصمت ، لأن الأحقاد التي تدور في قلب الرجل تحتجب أحياناً في حفر جد كريهة .

ـ في هذا الوضع ، يُفضَّل السكوت ، وسوف تهدأ النفوس متى شاء الله .

ـ نعم ، وإذا لم تهدأ ؟

ـ لا أدري ، حينئذ ، لا بدّ من التفكير في الهجرة ، أو قطعها . ما أحزن رؤية خير بلد في الدنيا ، أو من خيرها ، ينزف دماً في الخنادق!

فينا البونفريدية تُلقّب ببوركا مارينيا ، مسألة الألقاب تسير في مجارٍ جدّ غريبة ، الألقاب تنتشأ تلقائياً وتُولد كالفِطر ، بوركا مارينيا ظريفة

ومرحة دائماً .

ـ أحقاً أنك معجبة بالخوارنة أكثر من الرجال الآخرين ؟

ـ أي ، نعم ، يا سيدي . هم ممتازون للغاية . وتَلَذ للمرأة معاشرتهم ، أنت تجبرني على أن أكون وقحة .

بوركا مارينيا تضطجع مع ثِلِستينو كاروتشا ، وكانت تُعدّ له أرنباً متبّلاً بالبهار ، وأرنباً بالبصل ، وأرنباً على طريقة الصيّادين .

ـ يجب تقديم طعام مغذٍ للرجال كيلا ينفشّوا .

المرحوم أنطون غونتميل زوج فينا بوركا مارينيا ، لم يكن سميناً أبداً ، بل وُلِد بقليل من الصحة ومات كما يصعد النَفس .

ـ كان المسكين قليل النفع ، الحقيقة أنه لم يعش معي شيئاً تقريباً . أي شخص آخر لكان أكثر ثباتاً منه .

رِسُرْكثيون آبينيودو تُلَقَّب بلودولا أو القبّرة ، لأنه كالعصفور ، لودولا عاهرة حزينة يشفع لها أنها شابة مسلية .

ـ أو لها حلمتان صلبتان ؟

ـ هكذا يقال .

انفعلت لودولا كثيراً بمقتل ميثيفو ، وكانت أولّ من اكتشف جثته .

ـ ألم تسمعي صراخاً ؟

ـ لا ، يا سيدي لم أسمع شيئاً ، أرى أنه مات دون أن يفتح فمه . يا للمسكين!

لودولا قَدِمت من قرية ريبوريتيلو ، في خورنية سانتا مارينا ديروبيانا التابعة لمنطقة إيل باركو . لما جاءت كانت حافية بردانة ، وما كانت تنطق بكلمة إسبانية واحدة ، رَعَتْها مارتا البرتغالية ذات المشاعر الطيبة والميول الحسنة .

ـ أتظنّ أن المرأة تصبح عاهرة برغبتها ؟ ألا يكون لأنها لا تجد مأوى ، وأن الناس يطاردونها من كل جانب كأنها مجذومة ؟ أتظنّ يا سيدي ، أن الطعام يسقط من الشجر ، وأنه مبذول لكل من يلتقطه ؟

التوأمان مرثيدس وبياتريس ميندس كوتباد وقعتا فريسة التشاهوق ، أصيبتا به بعد أن كبرتا شيئاً قليلاً ، وكان لا بدّ من إرسالهما إلى الجبل ليستنشقا هواء نقياً ، ويبتعدا عن دخان القطارات الخانق ، فأُخذتا إلى كاريل .

ـ بياتريس كسرت نظّارتها مرة أخرى .

ـ ومرثيدس ؟

ـ ومرثيدس أيضاً .

ـ حسن! مُري بشراء نظّارتين أخريين لهما من نونتِفريدا ، ولا يتعرضا للمتاعب هنا .

دون خيسوس منثنيدو ، وميتيفو قطعا هذا السلكَ الغامضَ الذي يُمسك بزمام الدم ، قطعا حبل حياة كثير من منكودي الحظ الذين تخلّى الله عنهم ، فالله لا يتدخّل في خصومات هذا العالم ، ويُدرَك ذلك سريعاً ، ألذلك يقال إن يد الله تخلّت عن الإنسان ؟

هنا في أورينسه ، وفي بونتبِدرا ، وربما في أماكن أخر تطلق كلمة

أصحاب كلوديا على الذين يَقْتِلون غِيلةً ودن محاكمة ، يعني يقتلون بالرصاص .

ـ أصحاب كلوديا ؟

ـ نعم!

ـ أيعني الدراق صنف كلوديا ؟

ـ الحقيقة أني لا أعرف .

مكسيمينو سيغان ، وهو من آميروس ، تدخل في النقاش .

ـ نعم ، أنا أعرف . يقول الصفر الشاحبون لبعضهم بعضاً ، أنذهب هذه الليلة لقطف ثمار الكلوديا ؟ والأمر معروف : هذه الليلة يُدلجون باحثين عن ناس لقتلهم .

يُطلق الرصاص على الذين تحكم عليهم المحاكم العسكرية بالإعدام ، في معسكر آراغون إلى جانب مقبرة سان فرنسيسكو . لودولا هي كَنَفَس رقيق ، لودولا تفضّل الجنود لأنها تخمّن أنهم أقل سماً .

ـ ألن تعودي غداً ؟

ـ لا! غداً ستكون نوبتي مع الجنود .

أصحاب كلوديا يظلّون حيث أمكنهم أنْ يظلّوا ، ولا يصلون جميعاً حتى آلتو ديل فورّيولو . هذا في أورينسه ، ولا أتابع أخبار المناطق الأخر ، لأن الأمر ليس أمر زرع البلد كلّه بالقبور . ريموندو لا يعرف كثيراً من الناس في لاكورونيا ، لكنه أقام علاقات صداقة سريعاً ، فرقة الرايات الغليشية انطلقت يوم عيد سان أغسطين (١) ،

---

(١) ٢٨ آب (المترجم)

وعادت بُعيد عيد الأموات المؤمنين ، مُمزّقة الشمل تقريباً . فقد مات سيّنو الحظ في الطريق ، والسوء في الحروب أنها تَصْرُم الحياة قبل نضجها وهذا يعني مخالفة أمر الله ، في بعض أنحاء غليشية ، تُسمى الطائرة الورقية بابينتو (بالعة الهواء) ، فكلمة papar بابار تعني بلع ، التقم ، ازدرد ، في البرتغالية تُسمى هذه الطائرة باباغايو ، أكان أطفال أورينسه يطيّرون منذ قرنين طائراتهم الورقية في الجبل الذي يُسمى اليوم شارع باباغايو ؟ ريموندو كسندولفس على صلة قربى بخوان نايا ، وهو خيرُ من يعرف تاريخ لاكورونيا ، ولعله سأله هذا السؤال ، في غليشية ، نحن جميعاً ذوو قربى ، أو ذوو قربى بشكل ما ، على الأقل ، أقارب الأقارب ، ولربما نشأت في أزمان غابرة في هذه الأنحاء ، زهرة القطيفة التي تعني في البرتغالية وغليشية المهجورة باباغايو = طائرة ورقية . واليوم ، شارع باباغايو رابية غاصّة بالمواخير المطمئنة الهادئة ، اعتاد ريموندو على أن يقوم في الليل بجولات صغيرة فيه ، بحثاً عن شيء من الثرثرة . طُرِد ذات مرة من بيت ميدياتيتا ، ابن عم ريموندو الجندي المدفعي في الكتيبة ١٦ الخفيفة التي كانت في الصفوف الخلفية ، لأنه ألقى بآلة البيانو من الشرفة ، هو وخمسة أو ستة من رفاقه بينهم عريف ، كم هم دوابّ! وهوّن من الخطب أن الشارع كان خالياً من المارّة . ألغى الجنرال ثبيريان إجازاتهم ، وأعادهم إلى الجبهة . ولو علمت ميدياتيتا أن ريموندو ابنُ عم المدفعي كاميلو لطردته ركلاً بالأقدام وألقت به إلى الشارع ، لأن هؤلاء السوقةَ أشباهُ مجانين دائماً . في بيت آباتشا ، والمتقيدون بالقاعدة يقولون آباتشِه ، أصغر عاهرة بين القبرات السبع تدعى دولورينيا مونتثيلو تراسميل في الواحدة والعشرين ، وما تزال في طور النقاهة بعد عملية الزائدة الدودية ، وهي الآن أحسن حالاً . القبرات السبع هن إينيسينيا . الترياق المضاد للتكبر ، وهي تمتل التواضع ولها

حبل من الشعر الصغير يصل حتى سرتها ويشبه عش النمل ؛ روسينيا ، الترياق المضاد للبخل ، وتمثّل الرخاء وهي ثدياء ضخمة العجيزة تصلح أن تُمتلك أكثر مما تصلح للرغبة ؛ مريكينيا الترياق المضاد للغضب وتمثل الصبر ، وهي لا تقول لا لشيء ، وليس ذلك بسبب الدعارة وإنما احتراماً ؛ ريتينيا الترياق المضاد للشراهة وتمثل الاعتدال وهي ضحوك دائماً ، وتقفز قفزاً إذا شربت لأنها خفيفة العقل ؛ آمبرينيو الترياق المضاد للحسد وتمثل الشفقة وهي خجول كوردة ، لكنها إذا غضبت فلا مناص من إخضاعها بالعصا ، ثم دولورينياس الترياق المضاد للكسل ، وتمثل النشاط وهي تعرف القراءة والكتابة والعمليات الأربع : اثنتان منهن من بتانثوس ، واثنتان من تشمْبرِه ، وثلاثة من لاكورونيا ، والسبع جميعاً من الحياة . في شارع ببغايو تمارس القوادات والسمسارات فنون الترفيه أيضاً : في بيت فرينيا ، اسألْ عن فاطمة المغربية ، في بيت كمنياس اسأل عن بيلار لامانيا ؛ في بيت توناليرا ، سَلْ عن بسيليا لابَرْبا وهي عاهرة العواهر . كل بيوت الدعارة الشائقة ، وكل هذه المواخير الغرامية والرياضية المذكورة تتمتّع بعزلة وديعة وفرح سليم ، ورقابة صارمة لأن النظام هو النظام . ريموندو كسندولفس صار صديق دولورينيا آلونترا ، وهو بثقافته يُحسن التصرّف ، فكانت المشرفة تسمح له بدخول المطبخ ، الآنسة رامونا تطلب إلى روبين لبوثان أن يحضر لعندها .

ـ تلقيت رسالة من ريموندو يذكر فيها أنه سيمنح إجازة .

ـ هذا يفرحني .

وكان يبدو الانشغال على وجه روبين .

ـ مونتشا!

ـ ماذا تريد ؟

ـ لم أسجّل نفسي ، وسوف تُستدعى دفعتي . وفوق ذلك سأقول لك سراً .

ـ أتقوله لي ؟

ـ نعم ، لك ، ولا لأحد سواك . إذا جاء فابيان منغيلا القرية ، سأقتله ، ما يُشاع عنه صحيح .

أبطأت الآنسة رامونا لحظات حتى تكلمت .

ـ اهدأ ، سيد روبين . فلنر ماذا يقول ريموندو متى وصل ، أكلمت ثيدران سغاده ؟

ـ نعم .

ـ وبلدوميرو آفوتو ؟

ـ وبلدوميرو آفوتو أيضاً .

ـ فيما يفكران ؟

ـ يريان أن إيل موتشو لا يساوي شيئاً ، لكنّه يمكن أن يكون خَطِراً لأنه غدّار ، وفوق ذلك ، لديه عصابة .

ـ من هم أفرادها ؟

ـ لا أدري . لا أعرفهم ، لكنهم ليسوا من أهل المنطقة ، ولم أرهم من قبلُ .

ـ ألا يعلم الحرس المدني بذلك ؟

ـ يقول إنه لا يريد أن يعلم شيئاً ، وأن المسألة ليست من اختصاصه .

ـ أليست من اختصاصه ؟ من اختصاص مَنْ ، إذاً ؟

ـ وما أدراني!

الخبز مقدّس . لكن الأشياء المقدسة كالحلم والخبز والوحدة والحياة لا تُحترم حين ينقلب العالم رأساً على عقب . الخبز : لا يمكن رميُ الخبز في النار ، ولا الإلقاء به وإنما خُلق الخبز ليُؤكل ، وإذا صار يابساً يُنقع في الماء ليأكله الدجاج ، وإذا سقط على الأرض يُقبَّل ويُوضع حيث لا تدوسه الأقدام ، وإذا أُعطي صدقة يُقبّل أيضاً ، الخبز مقدس كما الله ، أما الإنسان ، فعلى العكس منه ، هو شيء مضحك فارغ يؤمن بالخوارق ، وتملؤه الأوهام .

ـ وهذا أسوأ!

ـ نعم ، في الحقيقة ، هذا أسوأ .

أغلقت الآنسة رامونا مصاريع النوافذ .

ـ كل ما يجري غريب جداً ، ولا أفهم منه شيئاً ، على الأرجح ، معظم الإسبان لا يفهمون شيئاً مما يجري . لِمَ كلُّ هذا الدم ؟

تتوقّف الآنسة رامونا عن الكلام بين حين وآخر .

ـ يمكن للحرب أن تكون نبيلة إذا خضناها لمواجهة الغرباء الذين يدخلون بيتنا ، كالحرب التي خضناها في القرن الماضي في مواجهة الفرنسيين ، لست أدري ، وأنا لست رجلاً ، نحن ـ النساء ـ نفكر دائماً بطريقة مختلفة ، قد يكون نبيلاً قتالُ الغرباء ، دفاعاً عن الأرض ، أما الحربُ في سبيل فكرة يُرجَح أنها كاذبة ، وبين الإسبان أنفسهم ، فهي شغل مجانين .

ـ نعم ، هذا حق ، وأنا أفكر التفكير ذاته ، لكني لا أعلن عنه ، ولا تعلني عنه أنت أيضاً .

ـ لا! لا! ماذا أقول ؟ أنا أسكت كما الموتى ، كل ما أرغب فيه أن ينتهي هذا الوضع في غاية السرعة . الناس الذين يؤمنون إيماناً أعمى خطرِون جداً ، وأخطرُ منهم من لا يؤمن ولكنه يتظاهر بالإيمان . فهذا الإيمان ينزع صِمام الضمير ، ويكشف الستر عن الضمير... كل ما أريده أن نرى نهاية هذا الجنون سريعاً .

ـ لكنه سيطول .

ـ أتؤمن بذلك ؟

ـ غاية الإيمان . كل الناس مُثارون مهتاجون . ولا يريد أحد منهم اللجوء إلى العقل .

قرّبت الآنسة رامونا مَنْفضة سجائر من روبين لِبُوثان .

ـ لا تُلقِ بالرّماد على الأرض .

ـ معذرة!

ما كانت الآنسة رامونا تستطيع إخفاء انشغالها .

ـ نعم ، الحقيقة هي أن هذه الصراعات العمياء غدّارة وعنيدة ، وتسمّم النفوس سريعاً ، وهي غامضة أيضاً ، أَوَ تَفْهم شيئاً مما يجري ؟ وتجعل الناس في حالة هياج ومزاجٍ رديء ، وإن رجلاً هائجاً وذا مزاج رديء ، هو أسوأ من العقرب .

ـ آخر الأمر ، نسأل الله أن يأخذ بيدنا .

يجري اليوم ما كان يجري في العصور القديمة لما كان الناس يحجّون إلى الأراضي المقدّسة سيْراً على الأقدام ، فقد كانوا يهتدون بلون عيون النساء والسحب ورائحة الزهور وأشكال النحل ، وعبق البراعم والمروج : إننا نتّجه نحو الشمال ، إننا نتّجه نحو الجنوب ، نحن في الطريق الصحيح ، بل ضللْنا الطريق ، ضِعْنا ولن نعثر على بيوتنا أبداً ، الخ ، الخ... فاجأت الأحداث فريق مرتينيو فرويمه حين كان في طريقه من أجل العمل في الحصاد في بلنتشون من أراضي كوينكا . أتتذكر أشعار : «قشتاليو قشتالة» ، لروساليا ديكاسترو ؟ فريق مرتينيو فرويمه كان يضمّ تسعة رجال وست نساء إحداهن وضعت مولوداً في المرج ، وكان معهم أيضاً ثلاثة أطفال في السادسة أو السابعة من العمر . لما بدأت الأحداث ، تحدّث مرتينيو فرويمه إلى جماعته :

ـ تعلمون ما يحدث ، أرى من الخير العودة إلى البلد ، هنا يقتل الناس بعضهم بعضاً ولن يبقى أحد حياً .

ـ حسن! لكن ، يُقال إن غليشية تحت سيطرة الفاشيين .

ـ ونحن ما لنا ولهذ الأمر ؟ البلد هو البلد ، والأرض هي الأرض ، وليَحْكُم من يحكم .

ـ نعم ، صحيح .

كانوا يسيرون ليلاً مُهتدين بنجم القطب وضوء القمر ، وينامون نهاراً ، ويجتازون جبهتي قتال ، سار فريق مرتينيو فرويمِه من الأرض الواقعة خلف نهر التاخو حتى قرية نِسْبِيْريرا في خورنية كربيلّيرا في منطقة نوغيرا ديراموين ، قرية الجلاخين ، قريتهم هم ، قرية الحصّادين الذين انطلقوا كالورود وعادوا سوداً كالزنوج تبارك الله!

ـ أكنت تعتقد دائماً أننا سنصل قريتنا أحياء ؟

ـ نعم ، هكذا كان اعتقادي .

أول تيس شُغلت بـه دولورينيا آلوتترا بعد عملية الزائدة الدودية كان ليسمِس كَبِثْون أورتيغيرا ، طبيب الجراحة الصغرى وأحد رؤساء الميليشيات المدنية المسماة فرسان لاكورونيا ، وهي نوع من الحرس المحلّي سياسياً وقومياً .

ـ أيؤلمك مكان الجرح ؟

ـ نعم ، يا سيدي!

ـ إذاً ، تحمّلي الألم ، أنا من أجل ذلك أدفع لك .

ـ نعم ، يا سيدي .

يشاع أن ليسمِس كان على علاقة بعمليات الإعدام في معسكر لاراتا ، وبالهجوم على لوجي «النهضة الماسونية» و«الفكر والعمل» ، كنتَ تحزن لموت الغريب ، وها أنت ترى نفسَك فجأة مُحاطاً بالأموات وتتنبّه إلى أنك تقتل أيضاً وتحرق .

ـ أتعلمين شيئاً ؟

ـ وماذا عليَّ أن أعلم ؟

دون ليسمِس يسعى متنكّراً إلى بيت لاآباتشا ، فمركزه يُرغمه على مراعاة الشكليّات ، وكان يقول لدولورينياس إن اسمه دون بيثِنْته ، وإنه رجل دين .

ـ لا تُفشي السرّ لأحد ، يا بُنيتي ، لأن الجسد ضعيف وآثم ، اهتمي ، أنت بشأنك .

ـ نعم ، ياسيدي .

ذات ليلة ، أثار دون ليسمس فضيحة لخطئه في التشخيص ، فقد انفجر أنبوب بينا كان منهمكاً في إشباع لذّته ، وشعر بالخوف .

ـ هذا عمل تخريبي! عمل إجرامي! ـ كان دون ليسمس يجأر وهو يزرّر بنطاله ـ هذه جريمة ! لا بد من تفتيش البيت تفتيشاً دقيقاً! إنه مغارة للحمر .

أوقفته لاآباتشا من قدميه .

ـ اسمع دون ليسمِس ، ومع كل احترام لك ، لا وجود للحُمر هنا ، أتفهم ؟ نحن هنا كلنا وطنيون كخير ما يكون ومن الطراز الأول ، لا أسمح بوجود أدنى شكٍّ في هذا المجال . وإذا لم تتأدبْ فسوف أهتف لدون أوسكار ، وهو أحد أصدقائي الكبار ، وسوف تتفاهم معه . الناس يجيئون بيتي للترويح عن أنفسهم ، لكنهم لا يتآمرون . أتفهم ؟

استعاد دون ليسمس صفاء ذهنه .

ـ معذرة منك ، يا سيدتي! ظننت الصوت انفجار قنبلة . بسلامة فهمك!

ريموندو كَستَنْدولفِس لا يعرف من هو أوسكار ، ولكنه لم يستعلم عنه أيضاً . ولأي شيء ؟ ومن يبالي بما يجري في بيوت العواهر ؟ نحن ـ الوطنيين ـ استولينا على طليطلة . ولِمَ تقول نحن ؟ وحرّرْنا مدينة القصر ، لاحظ ريموندو كستدولفس أن صدغيه ينبضان ، على الأرجح ، هو يعاني من الحمّى . عُيّن فرانكو قائداً أعلى للجيوش البريّة والبحرية والجوية ، وروبين لبوثان يقول إنه لم يسجلْ اسمه ، وقد سُحبت دفعته ، كل إنسان يسلك طريقاً خاصاً به ، ويتّبع هواه ، والآنسة رامونا تركب الحصان وتأكل

أقراص البسكويت وتفكر ، وتفكر دائماً ، صرنا على أبواب مدريد ، ولِمَ تقول صرنا ؟ لما جاء ريموندو كسندولفس قريته وجد رامونا في وضع غريب .

ـ ماذا جرى لك ؟

ـ لا شيء ، ولِمَ ؟

ـ لا لشيء وإنما ظننت أنه جرى لك شيء ما .

بورينيا كورّيغا ، أكبر خدم الآنسة رامون سناً ، وُجِدت ميتةً في الصباح وعلى جبهتها حيّة صغيرة انطلقت هاربة كقلم رصاص .

ـ ماذا جرى لها ؟

ـ ماتت بحكم الشيخوخة . كلُّ امرئٍ سيصيبه الموت بسهمه آجلاً أم عاجلاً ، بل أن بعضهم لا يصل إلى سنّ الشيخوخة .

لم يبقَ للآنسة رامونا من عهد والدها من الذكريات غيرُ أنطونيو بيغاديكابو وسابيلا سولِثِيْن .

ـ والببّغاء ؟

ـ والببّغاء ، بالطبع .

فابيان منغيلا ، إيل موتشو ، لن يُخرج ثيدران سغاده ، ولا بلدوميرو آفوتو من منزليهما . وما كان يجرؤ على ذلك . ظل فابيان منغيلا على مسافة معيّنة من بيت تيدران سغاده أولاً ، ثم من بيت بلدوميرو آفوتو ، ولما رآهما مقبلَين أمر عشرة من رجاله أن يقبضوا عليهما ويسوقوهما مقيّدين ، تلقّاهم ثيدران سِغاده بإطلاق الرصاص ؛ واستسلم لما حُرق بيته . لم تجلب

الضوضاء أحداً ، ولا أزيز الرصاص ، ولا وهج الحريق ، وقد منعت الآنسة راموna ريموندو وروبين اللذين كانا عندها ، من الخروج ، وضُربت آدِغا بعقب البندقية على وجهها وسقطت مغشياً عليها ، وقُيِّدت إلى شجرة ، كذلك بلدوميرو آفوتو أطلق النار ، وكان تسديده صائباً فقتل أحدَ المهاجمين ، واستسلم بلدوميرو لما قُبض على زوجه لولينيا وأبنائه الخمسة ، وقد اضطر الجناة إلى كمّ أفواههم بالأكياس لأنهم كانوا يعضّون .

ـ يا إلهي! ما أشرس هؤلاء الناس!

فابيان منغيلا ، القتيل الذي قتل آفوتو ، الذي سيقتل آفوتو ، يبتسم كالأرنب لأسيريه اللذين رُبطت أيديهما وراء ظهريهما وسال الدم فوق عيونهما وكانا يلتزمان الصمت كلاهما .

ـ سيروا!

تلمع بقعة جلد الخنزير على جبهة فابيان منغيلا . غواغامايو الآنسة رامونا طائر أقاليم أخر ، وأجواء أخر ، لكنه هنا يبدو شبه محزون وضجر . فابيان منغيلا كان أزعر الشعر مبعثره ، على ضوء القمر ، كان يبدو القتيل الذي قتل آفوتو كالميت .

ـ أكنت تخمّن أن تصير إلى هذا الوضع ؟

لا تيدران سغادهِ ، ولا بلدوميرو آفوتو ينبسان بكلمة واحدة . وماذا أجدى المغفّل بيدويروس أن شُنق دون سوء نية ؟ فابيان منغيلا له جبهة سلحفاة ، أو ربما أسوأ منها ، ومذ بدأ ذلك كله ، أمست لا تُسمع محاور العربات تغني حين تغيب الشمس .

ـ أتنبهت إلى أن ضوء نجمتي حان وقت غروبه ؟ إنه آخذ بالأفول .

انطفأت نجمة آفوتو المضيئة ، المتقدة في جبهته ، ـ أحياناً كانت حمراء كالياقوت ، وأحياناً أخرى زرقاء كالزفير ، أو بنفسجية كالجمشت ، أو بيضاء كالماس ـ ، وانتهز الشيطان الفرصة ليقتله غدراً ، وما كان يفصله عن الموت غير مائة خطوة . فينا البونتيبِذْرية كطاحونة القهوة اليدوية الصغيرة يعجبها هزّ الخصر والرقص على إيقاع الأغنية الكوبية : «هزي ، هزي ، إيرينه! » ، زوجها مات لنقص في الشروط ، دهسه القطار لأنه لم يكن يمتلك الشروط اللازمة . رجال فابيان منغيلا تركوا رفيقهم القتيلَ في الحفرة بعد أن نزعوا منه الحقيبة والوثائق ، في الليل يضجّ ألف صوت ، ويتردّد ألف صمت تبثّ العزيمة في السائرين على الدروب وتدقّ في صدورهم كالصدى . فابيان منغيلا شاحب . حسن! ليس شاحباً أكثر مما هو في أيام أخر ، وإنما هو هو هكذا دائماً .

ـ أأنت خائف ؟

بيبينيو بوسادا كويريس ، أو بيبينيو أكسوريلو يذهب كل صباح إلى القدّاس ليطلبَ صدقةً من أجل القيام بأعمال الخير .

ـ أحقاً أنّ أحد أعمالك الخيرية دفنُ الأموات ؟

ـ نعم ، يا بني .

بيبينيو أكسوريلو خائف جداً ، يكاد يلمح نجيمةً تجعله على حقّ في خوفه . فابيان منغيلا تنبت لحيتُه متناثرة ، أربع شعرات هنا وأربع أخر هناك .

ـ يبدو لي أنك لن تملك الوقت بعد الآن كيما تصطادني عنوةً : ألا تريد أن تتكلّم ؟

أرجح أن ريكاردو باتكيث بيلارينيو خطيب الخالة خيسوّسْا ، في الجبهة

يطلق الرصاص ، أو في المكاتب يجري حسابات الشركة ، أمّا القتلُ فلمّا يُقتَل . يدا فابيان منغيلا تبدوان بزّاقتين ، أيدي المرضى الذين لهم هيئة المرضى ، ليست رطبة ولا باردة ولا ناعمة ملساء ، وإنما لها كلها مظهر الموت .

ـ أتريد أن تصلّي لسيدنا المسيح ؟

فابيان منغيلا ينظر دائماً إلى الجانب الآخر كعلاجيم سان مودِستو الثلاثة ، لكنها تبدو مائة [١] .

ـ أتخرأ ؟

فابيان منغيلا يتكلم بصوت مُصطنع نشاز ، كالعذارى السبع في الكتاب المقدس .

ـ اطلبِ العفو مني!

ـ فكّ يدي!

ـ لا ، لن أفكّهما .

أوتيلو أوثيرولاس حمُ تانيس بيريلو ، صار أكثر هدوءاً مذ بدأ الهيجان . بعض الناس ينفلت وبعضهم الآخر يضبط نفسه . فابيان منغيلا الذي قتل ثيدران سغاده أيضاً وربما عشراً أو اثني عشر آخرين ، ما كان يريد أن يستهلك نعليه ، فوقف على بعد خطوتين إلى الوراء ، وأطلق طلقة في ظهر بلدوميرو آفوتو ، ثم طلقة أخرى على رأسه وهو ممدّد على الأرض . بلدوميرو ماربيس بنتيلا ، أو فرناندس الملقب بآفوتو ، تألّم ومات دون أن يُطلق أنّةً واحدة ، أبطأ حتى مات ، لكنه مات بكرامة دون أن يمنح الهدوء أو الفرح أو العزاء لمن قتله . قال فابيان منغيلا لثيدران سغاده .

---

(١) عبارة تعني الواقع غير مايوحي به المظهر فابيان منغيلا جبان ومضطرب وإن تظاهر بالشجاعة والثبات .

ـ وأنت ، خلال نصف ساعة ستلحق به .

جثّة بلدوميرو آفوتو ظلت مسجاة عند منطعف كانيثيس . كان الشحرور أول من رآه في غبشة الفجر ، ومنذ شروق الشمس والعصافير تزقزق مجنونةً لمدّة دقائق من فوق أغصان البلوط ثم صمتت ، ذلك بأنها انصرفت إلى شؤونها . كان بلدوميرو آفوتو مُنبَطحاً على بطنه ، وقد اندفع الدم من ظهره ومن رأسه ، وتلوّث فمه بالتراب وبالدم الذي غطّى الوشم أيضاً ، وشرعت الديدان تلتهم المرأة والأفعى ، أما بنات عرس التي تمصّ دم الموتى فقد فرّت فجأة وكأنما أخافها أحد قصداً ، والأخبار تجري كما الضّباب .

ـ أو كجدول من البارود ؟

ـ وهو كذلك ، بل أسرع منه أيضاً .

لما تناهت الأخبار في المساء إلى بيت بروتشا ، كان الأعمى غودنثيو يعزف على الأكورديون لحن الماثوركا «صغيرتي ماريان» . لم يفتح غودنثيو فمه ببنت شفة ، وظل يعزف القطعة ذاتها حتى مطلع الفجر .

ـ لم لا تنوع قليلاً ؟

ـ لأني لا أريد . هذا اللحن أهديه إلى ميت لم يبرد جسمه بعد .

تتابع الحياة جريانها ، لكن ، ليس كسابق عهدها ، الحياة لا تجري أبداً على وتيرة واحدة خاصة إذا توسّطها الألم .

ـ أصارت الساعة الثامنة ؟

ـ لا! ليست بعد . اليوم يجري الوقت أبطأ مَما ذي قبل .

لحن الماثوركا «صغيرتي ماريان» ، ذو إيقاعات عذبة وجميلة للغاية ، ولا يملّ المرء من سماعها .

ـ لم لا تنوّع قليلاً ؟

ـ لأني لا أريد . ألا ترى أن هذا اللحن لحنُ حداد ؟

كسياو بكسرولو ، أخ القتيل بلدوميرو يعجبه أكثر ما يعجبه أن يمصَّ ثديي زوجه بيلارين ، بعض الأزواج متوافقون جداً ، خير ما يكون الوفاق .

ـ أحقاً أنك تسمحين لي برضع ثدييك يا حبي ؟

ـ أنت تعلم أني ملكك . لِمَ تسألني عما تعرفه ؟

ـ لأني أرغب في سماع البذاءة منك ، يا حياتي . هذا ملائم للأرامل جداً .

وحاولت بيلارين القيام بإيماءة غنجة .

ـ يا إلهي! كم أنت أحمق!

في المنطقة مناشرُ كثيرة لصنع التوابيت ، وفيها حزن كبير ، وإذا ظلّت الأمور تسير هذه السيرة فسوف تُملأ غاباتُ الصنوبر بالموتى .

ـ إذا اشتريتُ بالجملة ، أتمنحنا تخفيضاً ؟

ـ نعم ، يا سيدتي . تخفيض هام يتزايد حتى تصبح التوابيت في النهاية شبه مجانية .

لما علم العم رودولفو بنتيلادو أن قريبه كاميلو تزوج بإنكليزية ، أمر بإرسال رسالة له معنونة بالإنكليزية ، هو ما كان يشعر بالضجر من أحد .

ـ كان كاميلو خيالياً دائماً . انظر كيف تزوّج بأجنبية على كثرة النساء في البلد!

يقضي الخال كليتو حياته متقيّئاً ، ويضع إلى جانب الكرسي الهزّاز دلواً يتقيأ فيها براحة ونظافة .

ـ أتعلمون شيئاً عن سلبادورا ؟

ـ لا! ليس لدينا أدنى خبر عنها . لا تزال المسكينة في منطقة الحمر . نسأل الله ألا تُصاب بمكروه وسط هذا الفيض من الإجرام .

الخال كليتو يتقيّأ موادّ شتّى ، بعضها ذو لون وقوام معين ، وبعضها الآخر ذو لون وشكل مختلف .

ـ المتعة في التنويع . أليس كذلك ؟

ـ لا تصدق . مساء أمس ، أصرّ الأعمى غودنثيو على عزف لحن ماثوركا لم يستطع أحد أن يجعله يغير فيه ، فتلك كانت رغبته .

ـ ربما!

بقايا القديس فرناندس ورفاقه الشهداء محفوظة في دمشق ، في الدير الإسباني الواقع في باب توما والمسمّى اليوم بكنيسة اللاتين ـ شارع باب توما ، وهي داخل صندوق من البلور حيث ترى الجماجم وعظام الساق والكتف ، الخ... ، موضوعة بنظام وحسن ترتيب ، فقد كان الفرنسيسكان دائماً ذوي ذوق رفيع في عرض مخلّفات القديسين ، تباع في الدير بطاقات بريدية جميلة جداً ، كتبت عليها عبارات بالفرنسية .

ـ أتعلم أن كونتشا داكونا تغنّي بصوت كصوت الملائكة ؟

ـ نعم ، قيل لي شيء عن هذا .

حُظر الآن الإعلان عن «الحبوب الشرقية» ، من أجل نموّ الأثداء وصلابتها وإعادة الحيوية لها ، هذا إجراء حسن ، لأن المرأة الإسبانية ينبغي لها أن ترضى بالثديين اللذين خلقها الله بهما لا أكثر ولا أقل . كسياو بكسرولو مُعجب بالأثداء الضخمة ، من أجل ذلك لديه تديا بيلارين .

ـ أخرجي ثدييك من ياقتك!

ـ آي! كلا! أوربانيتو لم ينم بعد .

عُثر على جثة ثيدران سِغاده قبل قرية دِرّاما على مسيرة نصف ساعة تقريباً من منعطف كانيثِس ، كانت عيناه مفتوحتين ، وأطلق الرصاص على ظهره ورأسه ، فتلك كانت العادة الشائعة في القتل ، وجسمه قد برد منذ قليل . كانت آدغا لا تزال تنزف من أنفها وحاجبيها وفمها بسبب الضربة التي تلقّتها بأخمص البندقية . أطبقت عيني زوجها وغسلت وجهه باللعاب وبالدموع وحملته على عربة يجرّها ثوران إلى المقبرة . وقفت على هذا الجانب من القبر ، ووقفت ابنتها بينيثيا على الجانب الآخر ، ودُفن القتيل عميقاً ، ولُفّ بحشيّة جديدة من الكتّان ، وهي خير ما تحتفظ به ، والله وحده يعلم لماذا ، مُذْ خُلق الكون ، كان ذلك مكتوباً في لوح محفوظ . ركعت آدغا وبينيثيا على الأرض ، وشرعتا تصلّيان : أبانا الذي في السماوات ، في حين كانت لا تزال تتصاعد فقاعات هوائية من جسم القتيل من بين طيّات الكفن .

ـ القتيل الراقد تحت الأرض هو أبوك يا بينيثيا ، هو أبوك حقاً . أسأل الله أن يمنحني القوّة لأتمكّن من رؤية منْ قتل أباك قتيلاً .

صريرُ محور العربة البعيد كان يُشبه صوت الله قائلاً : نعم ، سأمنحها القوة كيما ترى القتيلَ الذي قتل ثيدران ، هي ما كانت تريد الإفصاح عن اسمه حتى تراه قتيلاً وأشلاؤه مبعثرة .

ـ أتسمعين ، يابينيتيا ؟

ـ أسمع ، يا أمي .

ثِفِرينو فوريلو أحد الخوريين أخوي بلدوميرو آفوتو ، أقام قدّاساً على روح ثيدران سِغاده .

ـ لا أستطيع أن أذكر اسم من يُقام له القداس ، يا آدِغا ، جاءت الأوامر بحظره من أورِيْنسة .

ـ لا تهتمّ ، فالله لا يتقيّد بلوائح البشر .

ريموندو كسندولفِس يرى أننا ـ الإسبان ـ فقدنا عقولنا جميعاً .

ـ أهكذا فجأة ؟

ـ لا أدري! على الأرجح ، لهذا الجنون سوابق .

يتمنّى ريموندو كسندولفِس أن تنتهي إجازته ، والحقيقة أنها شارفت على الانتهاء .

ـ في الجبهة إجرام أقل من هنا ، لا يمكن نفي الإجرام عنها ، لكنّ أحداً لا يغتال أحداً فيها . وهي أقلّ تسميماً للروح ، نعم فيها بعضُ السُمّ ، لكنه ليس بهذه الوقاحة التي نراه بها هنا . هذه الكارثة جاءت بها أفكار المدينة وهوسُها ، وانصبّت عذاباً على الريف ، فإذا لم يعدِ الناس إلى بيوتهم فسوف يظلّ كلُّ شيء فوضى ، إنه عقاب من الله .

الأب سنتستبان س . خ . يُلقي مواعظ ناريّة ، جليلة ، جارفة تتقبّلُها النساء قبولاً حسناً ، وهذا خطير للغاية ، والأب سنتستبان س . خ . يؤمن بفعالية النار المطهّرة ، وهذا جد خطير أيضاً . فورتونانو رامون ماريّا رِه ، ابنُ القديس فرناندس الذي وُضع في بيت للقطاء ، أخذ الناس يدعونه باسم رامون إيغلِسْياس وفقد مليونَ ريال خلّفها له أبوه إرْثاً ، في هذا الضرب من الأمور يجب الانتباه كثيراً .

ـ وأين صارت النقود ؟

ـ ومن يدري ، يا سيدي ؟ على الأرجح ، وزّعها فيما بينهم من استطاع الحصول عليها ، كل الناس لهم حقّ في الحياة ، وهم يستخرجون رزقهم من حيث يستطيعون .

اشمأزّ الخالُ كليتو من كل ما يجري ، فالأعصاب المنفلشة علامة على سوء التربية ، وأعني خاصة الأب سنتستبان ، والعفو منكنّ يا أخوات ، أنا آسف ، لكنّ الوضع هو ذاك . الأب سنتستبان رجل عادي ودعيّ . الأب سنتستبان حوذيّ عربة أجرة يلبس قفطاناً ، ورأسه محشوّ بالقشور والتفاهات بالتساوي ، ولو استطاع لجعلَنا نعترف جميعاً ، ومنحَنا الغفران ، ومتى نبلغ رشدنا يرسلنا بحفظ الله إلى العالم الآخر لنعزف الهارب . الأب سنتستبان جاهل يبتزّكن .

ـ إنْ كنت لا تُطيق سماعه ، فغطِّ رأسك بالمخدة .

تداعب الآنسة رامون نقرة روبين لبوثان ، وهما جالسان على مقعد حجري وقد أخذ المساء يزحف ، بينا تطير الخنفساء بدرعها البرّاق ، ويُغنّي العصفور بين أغصان الهورطنسيا ، وينزلق الحريش على جذوع شجيرات الورد المتنوّعة الأشكال . إنه السلام وسط الحرب .

ـ أنا حزينة جداً ، يا روبين ، وأشعر بالأحباط كثيراً ، وأرغب في أن تسألني حتى لا أجيبَك .

ابتسم روبين بشيء من المرارة .

ـ أأقبلك قبلة ؟

وابتسمت الآنسة رامونا أيضاً ، ولم تنطق بكلمة ، لكنها مكنته من تقبيلها .

ـ أنا حزين مِثلك ، يا مونتشينيا ، وخائف جداً ، هذا الوضع رهيب ، وإذا انقلبت الحرب لصالح الوطنيين ، فسوف يكون الوضع أسوأ ، ولا تسأليني عن السبب ، لا أعرف أن أقوله لك ، ولا أريد أن أقوله .

تبادل روبين لبوثان والآنسة رامونا القبلات ببطء ، ودون اندفاع كبير ، وداعبا بعضهما بعضاً بلطف بارد جداً ورقيق وغنج .

ـ اذهب ، ولا تبق هذه الليلة عندي .

ـ كما تريدين .

موتشو كرّوبو لن يناديه أحد منذ هذه اللحظة باسمه . هو يضحك ويضحك ، لكنه ضحكٌ غيرُ صادق ، موتشو كرّوبو لا يؤنّبه ضميره ، بل بالأحرى يؤنبه ولا يدري ، لكنه يشعر بالخوف ، بالخوف من ثلاثة أشياء ، الخطيئة والوحدة والظلام ، لذلك ، يسير مسلّحاً دائماً ، روساليا تراسولفه ، كابوكساتولا ، تغسل أعضاءه بماء عشب العشّاق ، وهي تضجر من شيئين ، ربما أكثر من شيئين ، لكنها تضجر على الأقل من شيئين : النوم والضوء مشعل ، واضطجاعه معها وهو بكامل عدّتِه وحمائله .

ـ نعم ، يضاجعني وحمائلُه مشدودة على صدره ، وبندقيته معلقة بخصره ، وأحياناً لابساً حذاءه .

موتشو كروبو يبتسم لأحد ما ، هو نفسه لا يعرف على وجه اليقين من هو ، ويحسد الناس جميعاً ، وبهذا الوضع لا تمكن الحياة . إذا انتاب المرءَ الخوفُ والنفاق دون خجل حتى يصبح بلون أخضر كالسحالي ، ينتهي إلى الإجرم ، فيلزم الصمت أوّلاً ، ثم يرعى الحقد الذي ينمو كزنجار القدور النحاسية ، وأخيراً ، يخرج الناس من بيوتهم ويزرع الليل بالرجال القتلى

بطلقة نارية في الظهر ، وبطلقة أخرى في الرأس ، كما هي العادة . حين تنظُم عاهرة أشعاراً في مدح مريم العذراء ، ذلك أنها ترغب في أن تكون العذراء مريم ذاتها ، التي لا يطمح أحد أن يكونها .

ـ برّوتشا ، أتسمحين لي بأن أبيت هنا ؟

ـ نعم . ادخل يابُنيَّ . ولا تحدّثني عن بلدوميرو ماربيس . لقد علمت الخبر .

بلدوميرو ماربيس ، آفوتو كان شجاعاً كنمر سنغابور ، أو ذئب ثاكوميرا ، وكان لا مناص لقاتليه من أن يقتلوه غيلةً ويداه مقيّدتان ، وما كانوا يجرؤون على مواجهته طَلْقَ اليدين ؛ أخوه الثاني ، تانيس بيريلو قويّ كثور جزيرة بَلَنْدْران الذي كانت خصيتاه تقرعان جنبيه ولا تنكمشان حتى أثناء هبوب ريح الشمال القوية ، وذكي كضبّ الملكة لوبا الذي كان يعرف جدول الضرب وعواصم أوربا . ولو عرف تانيس الطريق إلى بيت لحم لشلّ عند بوابتها حركة الثور ذي الغرّة . وهو يستطيع أيضاً أن يشلّ حركة بغلة إذا أحكم قبضته عليها . تانيس غاموثو كان يربّي كلاباً ذئبيّة ، وكان عليه أن يُجهز على قيصر الذي جرحه الذئب جرحاً بليغاً أثناء الصراع . تانيس غاموثو جندي في السرّية الثانية من كتيبة مشاة سرقسطة الثانية عشرة ، وقد عُين في شعبة التجنيد .

ـ أتتذكر الذئابَ دون خانيرو ودون أنطونيو البلنسيَّين إضافة إلى منويلينيو بلانكو روماسانتا ؟

ـ لا ، ياسيدي ، لم أدركْ هؤلاء .

ليونتيو كوتيلو جمهوري مدينة ألاريس الذي كان يُعلّم غراباً لحن

المرسييز ، قتله أصحاب كلوديا ليكون عبرة ومثلاً ، وكذلك اقتلوا أخاه الأعمى أولاليو لفساده ووقاحته . إتِلِبْينو كان مع تانيس في غرفة التجنيد ويقوم بخدمة العميد سوتو رودريغيث .

ـ ما يهمني هنا أن تمضي العاصفة ، وليفعل الله ما يشاء .

كلاب تانيس يُعنى بها بوليكاربو بن البغنييرا الذي لا يصلح للخدمة العسكرية أبداً ، لكنه ماهر في تربية الحيوان ، ويُخرج أيضاً الحصان كاروسا ليتنشط ، وقد أبعدته الحرب عن إتلبينو .

قائمة الشبان المعفيّين إعفاءً تاماً من الخدمة العسكرية هي : رامون ريكيكسو كسبولادو (مونتشو بريغيثاس) مبتور الساق اليمنى ، خوسيه بوسادا كواريس أعمى ، خوليان موستيرون بَلْميغالو (كوكسو ديمارنييس) ، أعرج ، روكِه بورّين بونتيلاس ، مجنون ، مامِرتو بِكسون بردوثيدو ، مشلول لكسر في عموده الفقري ، ماركوس آلبيته موراداس ، مبتور الساقين ، بينيتو ماربيس بنتيلا أوفرناندس (بينيتينيو لاكراو) ، أبكم ، سلوستيو ماربيس بنتيلا (ميكسير يكيرو) ، مجنون ، لويس بوثِلو ثِباموندين ، (لويسينيو برّولو) ، مخصيّ وأعمى ، هذي هي الأسماء التي تحضرني من الذاكرة ، وربما وُجدت أسماء أخر ؛ أمّا روبين لبوثان كاسترو ديثيلا فقد صُنف صالحاً للخدمات الثابتة ، لكنه لم يُدعَ .

ـ ذلك خير له ، أليس كذلك ؟

ما جرى عقاب من الله ، وأنا واثق بأننا كفرنا بالله بسبب من خطايانا . كان الريف هنا معرضاً ومهرجاناً للسماء ، وتحوّل اليوم بهذه الفوضى المؤلمة العمياء إلى ملاذ للنفوس الضائعة

ـ أو مسلخاً لتمزيق الأرواح ؟

ـ ربما! لم تبعد عن الصواب شيئاً ، الحقيقة هي أنه لم يُترك لنا غيرُ حطام الجسد .

ريكاردو باثكيث خطيب الخالة خيسوسا ، على فرض أنّ لها خطيباً ، أصيب في قلبه ، وهو زعم . كم صار مجموع القتلى من الجانبين : الوطني والأحمر ؟ أوتيلو ، أو ثيرولاس حمُ تانيس غاموثو قذارة خالصة ، وغير جدير بأن يُلقى عليه السلام .

ـ أوتيلو!

ـ مُرْني!

ـ أنت قذر!

ـ نعم ، يا سيدي .

أوتيلو خائف جداً ، وهو يبدِّد خوفه ووقته مع عاهرات بروتشا ، ما يجري هو أنهن لا يسمحن له بمعاشرتهن .

ـ لِمَ لا تبصق على وجه صهرك ، يا ديّوث ؟

مارتا البرتغالية لا تُطيق رؤية أوتيلو ، فهي تحسّ نحوه ببغض إفريقي .

ـ سهل جداً أن تبصق على أعمى . أحقاً ؟ لِمَ لا تواجه رجلاً يستطيع الدفاع عن نفسه ؟ أتخشى أن تُضرب عصوين ؟

ظل روبين لِبُوثان في بيت رامونا على الرغم من الطلب إليه أن يَنْصرف .

ـ أعدكِ بألا أزعجك ، يا مونتشا ، لكن كل يوم يمرّ يجعلني أشعر بالخوف من الوحدة .

ـ وأنا أيضاً . هذ البيت كبير جداً على امرأة واحدة .

كان بإمكان الآنسة رامونا أن تكون أنحف مما هي عليه قليلاً .

ـ هذا هو قانون الأرض يا روبين ، وقد خرقه أحد الأشقياء ، وأنت تعلم من أعني ، في هذه الجبال لا يمكُن لأحد أن يقتل مجّاناً ودون عقاب . من يَقْتلْ هنا ، يُقتل . أحياناً ، يطول الوقت به قليلاً ، لكنه ـ يُقتل في النهاية ، هذا إن لم يمت! لا يزال لدينا رجال قادرون على الأخذ بيد القانون . عائلاتنا تحترم القانون ، يا روبين ، وتحترم التقاليد ، التقاليد أيضاً . وإذا مات الرجال جميعاً ، فعندك لولينيا موسكوسو وآدغا بيرا للثأر لزوجيهما ، وكلتاهما شجاعتان للغاية ومحتشمتان . وإذا ماتتا هما أيضاً فسوف أقوم بالمهمة أنا ، أقسم لك ولا أدّعي ادعاءً ، استغفر الله!

روسا روكون ، زوج تانيس بيريلو مدمنة على عرق اليانسون ، هناك أشياء أُخر أسوأ منه .

ـ يقال إن شخصاً لا أريد أن أسميه ، يصنع كعكاً بدم أحد عباد الله الصالحين ، وكلنا عباد الله . تبّاً له ، وليقفِ الطعام في حلقه ، وليمتْ بالغصّة ، آمين ، يا رب العالمين . هذا الذي لا أريد أن أسميه يأخذ ليترين من دم أحد الصالحين ، (وقد قال لي ذلك من رآه بعينه ، وهو يضحك كثيراً) وحوالي خمسة ليترات من الحليب ، وأربع ملاعق من الطحين ومثلها من السكّر الأبيض ، وملحاً وقرفة وثلاث بيضات مخفوقة ، يسمى هذا الخليط عجينة الكعك ، تدهن المقلاة بشحم الخنزير ، ويقلى العجين على شكل رقائق ناعمة جداً ، وحينما توضع في الأطباق يضاف إليها العسل المجنيّ من زهرة «روح القدس» . سلطّ عليه الرسول سنتياغو الأفعى ومعها العقرب!

كاتوكسا بِنْته لا تعرف السباحة ، وتعوم بمعجزة حين تنزل عارية مقهقهة في بركة طاحون لوثيو مورو .

ـ سيدخل العلق مؤخرتك وفرجك ، يا هالكة!

ـ كلا! أنا أضغط عليهما جيداً .

ـ لا بأس عليك!

عُثِر على الطحان لوثيو مورو زهرة المهرجانات البرية ، مقتولاً في درب كسمونينيو صباح عيد سان مارتن . وجدت طلقة في ظهره ، وطلقة أخرى في رأسه كالعادة دائماً ، وعُثِر على زهرة رتم في قبّعته . دفنته كاتوكسا بنته دون احتفال كبير .

ـ أكان قريبك ؟

ـ نعم ، كان صاحب الماء!

في كل ركن من الجبل بقعةُ دم تصلح أحياناً غذاء لزهرة ، ودمعة لا يراها الناس لأنها تشبه قطر الندى ، تحفر الديدان الأرض ، وكذلك الخلد أيضاً ، أما الحباحب فأطفأت مصابيحها حتى العام القادم ، هذا العام ستكون أعياد الميلاد غاية في الحزن .

ـ متى يحل العام القادم ؟

ـ لا أدري! يخيل إلي أنه سيحل في وقته الموعود .

شُفي لوثيو مورو من الخراج الذي خرج في قدمه ، تفته كاتوكسا بنته برشّه بماء الرماد وبالعزائم المعتادة : خرّاج ، فرّاج ، اخرج من هنا ، الأسقف الأقدس مرَ قربنا ، وخلفك ذُرَ رماد المدفأة . محزن أن يقتل لوثيو

مورو بعد أن شفي من الخراج . مونتشو بريغيثاس له شكوكه حول دوافع كل فرد .

ـ لا جدال في أن وضعنا سيزداد سوءاً بهذه الضجة الكبرى . الناس مغرورون جدًا ، وهذا لن يكون في صالح البلد ، أنا أسكت لأني لا أريد متاعب .

ـ بذلك تصنع خيراً . لكن ، مهما تكن لا مبالياً ، تجد من يتربّص بك ، ويتهمك . وأنا أتألم غاية الألم من هذه «الهيصة» ، لكن ، ما علينا غير الانتظار .

مونتشو بريغيثاس فيه كثير من شعر الشوق والحنين والرثاء كأنه نائح جوّال .

ـ ما أظرفَ بنت خالتي خيورخينا! لما شَنَق زوجُها نفسه ، وأمر القاضي برفع جثّته ، وضع كاميلو ميند يث يده عليها بالطبع ، وليس على القاضي ؛ يالحماقته! أتتذكر كاميلو ميند يث كم كان يتقن لعب البلياردو وحلقاتُ الدخان تتصاعد من السيجار الذي كان يدخّنه ؟ حسن! لقد قُتل في حصار أوبييدو ، علمت ذلك في يوم سابق . أُصيب في صدغه ذاته .

الصيف الماضي وُجدت ضفادع في ينبوع ميانغيرو ، لا يعلم أحد من أين أتت . في العادة ، لا تحوي ينابيع المقابر ضفادعَ ، لكنها تحوي بعوضاً . نعم ، البعوض في كل الأنحاء . دون أبريخيمو والد الآنسة رامونا رحمه الله ، كان يعزف الفوكستروت والشارلستون جالساً على سور المقبرة . تلك وقاحة ، حَسْبك من وقاحة! وكان دون أبريخيمو يعزف على البانخو بإتقان فائق .

ـ يقول الناس يجب على الموتى أن يضجروا ، لكنني أقول : ولِمَ يجب على الموتى أن يضجروا ؟ ألا يكفيهم أنهم أموات ؟ هناك موتى من كلا الصنفين ، ضجرون ومرقّهون ، لا ينبغي لنا الخلط بينهما . أصحيح قولي أم لا ؟

ـ نعم ، يا سيدي ، ولِمَ لا يكون صحيحاً ؟

كان دون أبْريخيمو محبّاً للفسلفات وألْهيات الحديث الأخر .

ـ متى تنته الحياة ، يولد الموت ويترعرع ويحيَ مثله مثل لعبة الدومينو . في أورينسه ، كان أحد موظفي السجل العقاري يلعب الدومينو بمهارة كبيرة ، مات بانسداد في الأمعاء ، وظل على الأقل شهراً دون أن يتبرّز . حياة الموت تدوم حتى تموت آخر دودة في جسد الميت من الهرم والجوع . أحقّ قولي أم لا ؟

ـ نعم ، يا سيدي ، هو حقّ لا شكّ فيه .

أمر دون أبريخيمو في وصيتّه أن يُقام له قداس واحد مصلّى ، ولا قداس آخر مرتّل ، وأن يُطلق ليلة يسجّى جثمانه ، عشرون سهماً نارياً تصل أصوات فرقعتها إلى بعيد . تسلّى الناس جيداً في حين كان هو يجتاز اللحظات الأولى من نومه الأبدي بين أربعة مشاعل .

ـ ما كان أجمله بالبزة الرسمية!

ـ نعم ، يجب تكفين الموتى جميعاً بالبزة الرسمية .

ـ لا أدري! يبدو لي أن ذلك قد يقود إلى الفوضى . لا بأس عليهم أيضاً لو دُفنوا بتياب رجال الدين أو بالزيّ الفلاحي . أمّا بالزي الغليشي والأراغوني فسوف يبدون مسخرة ، وفوق ذلك ، هو محظور ، على الأرجح محظور هذه

الأيام . بعض الموتى يبدون في مظهر حسن بأية طريقة ، وبعضهم الآخر كوارث ، أو لنقل قذارت .

ـ تأدّبْ ، يا سوتولّو!

فلوريان سوتولو دوريكساس كان شرطياً في مركز باركو بلدورّاس ، وكان يعزف على مزمار القربة جيداً ، ويعرف كمّاً غفيراً من الموبوئين ، والمسلولين ، والمجذومين ، والمُحتضَرين ، وأشباه الموتى ، والموتى والأشباح ، وكان يتوفّر على بعض المعلومات الصحية ، والمعارف السحرية ، ويقلد مختلف الأصوات بفمه كهديل الحمام ، ومواء القط ، ونهيق الحمار ، وضراط سيدة ، وثغاء نعجة ، الخ... ، فلوريان سوتولو قُتل في جبهة تِرْويل ، شُوهد ولم يُشاهد ، فما إن وصل الجبهة حتى أصيب بين حاجبيه فمات من فوره . على الأرجح هلكت روحهُ ، إذ لم يُتح له الوقت ليقوم بأيّة إشارة تنمّ عن الندم والتوبة ، وخلّف علبة تبغ دُخِّن نصفها ، فأكمل تدخينَها رجلُ الدين ، وهو من صغار الخوارنة المحلّيين ، الذي تملّكته الرغبةُ في تدخين تبغ الموتى . بوليكاربو بن البغنييرا يتردّد هذه الأيام كثيراً على بيت الآنسة رامونا ، فكان يُخرج الحصان كاروسا ، ويقوم بالمهام التي تكلّفه بها .

ـ أذاهب أنت إلى أورينسه ؟

ـ إذا أمرتِني!

ـ كلا! من جهة الأمر ، فأنا لا آمرك ، لكن ، إذا ذهبت لسبب ما ، فأعلمْني . ربما كلّفتُك بمَهمّة .

ـ حسن!

دون ماريانو بيلوبال ، الخوري الضروط ، سقط من برج الأجراس ،

ودُقّت عنقُه . بعض العصور عصيبة كالحرب البونية أو أنفلونزا عام ١٩١٨ ، وحملة الريف ، وبعضها مؤلم يشار إليه بإصبع الموت كما يبدو . لما تطوّح دون ماريانو في الهواء أفْلَتَ آخر ضرطة في حياته .

ـ هذه على البروتستانت! يسقط لوثر!

الثواني الأخيرة لمن يُشفي على الموت ، ويعلم أنه مُشفٍ عليه ، تتمدّد كالمطّاط ، وتُشحن بذكريات ، هي أكثر مما يُظن .

ـ وإذا كان المُشفي على الموت لا يدري بذلك ؟

ـ لا فرق عنده ، حينئذ . فلن يضيع الوقت في اللعب .

ذات مرة اضطجعت نونثيا سبديلّه في بيت لابرَوتشا مع القتيل بيينبنيدو غونثالِث روسينوس ، أو ميثيفو ، ولمّا فرغا سألته سؤالاً لئيماً جداً .

ـ أأنزلت ؟

ـ ألم تلاحظي ذلك ؟

ـ معذرةً ، كنت شاردةَ الذهن!

كان ميثيفو شبه سوقي مغروراً ، ولم يكن يقع موقعاً حسناً من نساء بيت لابرَوتشا ، ولما وُجد ميتاً لم تبكِه أيّ منهن . أيها المواطن الغليشي ، لقد وُلد يوم الوحدة الجديد ، يوم عظمة إسبانيا!

ـ ماذا تقول ؟

ـ ذلك أني تذكرت الخال كليتو وهو يعزف الجاز باند .

لما انتهت إجازة ريموندو كسندولفِس ، أُرسل إلى جبهة كويسكا . كانت الآنسة رامونا أعدّت له ثيابه جيداً .

ـ ألن تُجري مقابلة للحصول على رتبة ملازم ثان ؟

ـ لا! ولأي شيء ؟ إنْ كان الأمر يعنيك ، فالموت لا يفرّق بين ضابط وجندي ؛ يقال في الجبهة إنّ الطلقات تحمل بطاقات ، فإذا كانت إحداها موجّهة إليك ، فسوف تدركك ولو اختبأتِ تحت الحجارة .

ـ نعم ، هذ حق أيضاً .

دون خيسوس منثنيدو مات وقد تفسّخ بدنه وتعفّنت أعضاؤه وأسوأ من كل ذلك ، أنه انتقل إلى الحياة الآخرة بخوف كبير منها .

ـ أنا كنت أعدّه حقيراً ومجرماً .

ـ حسن! هذا شيء آخر .

فاكوندو سيارا ريبا ، الرقيب في قسم التموين ، شخص طيب جداً ، إذا أردت تكريم فلاّح ، فلا مناص من أن تردّد القول عليه مرتين .

ـ وأنت كيف ترى المغاربة ؟

ـ في نظري ، هم تيوس . ماذا تبغي مني أن أقول! أتتخيل والي مونفورته عبد العزيز بن مروان وهو ينشر الجذام بين هؤلاء الجوعى والمقملين الذين يرميهم بالعملات الذهبية حتى شقّ رؤوسهم بها ؟ حسن! أنا أسكت ، خير ما نعمله السكوت .

أُصيب ريموندو كسندولفِس بطلقة يوم عيد سان آندرِس[١] ، لحسن الحظ ، أصيب في ساقه وليس في فخذه . جرى ، ذلك اليومَ ، تبادلٌ خفيف لإطلاق النار ، خفيف جداً ، لكن ، يكفي خروج رصاصة واحدة من فوهة

---

(١) ٣ تشرين الثاني (المترجم)

بندقية يطلقها تيسٌ من الجبهة المحاذية ، وإذا أصابتك في الرأس فقد كُفيت ، الخطر في الثقة . والأمان قتل صاحبه . أمّا وأن الهدوء كان يسود الجبهة ذلك اليوم ، فقد وَثِق ريموندو كسندولفِس ، وشعر بالأمان ، فأصيب . حسن! كلّ الجنود كانوا مطمئنّين آمنين ، لكنه وحده من بينهم أصيب .

ـ أو كان يمكن قتلُه ؟

ـ بالطبع! لو حادت الطلقة إلى فوق قليلاً .

الأعمى غودِنْثيو لا يعزف الماثوركا إلا في أحوال أخر . في الجبهة مرارة أقل ، وحسن الحظ كَفيلٌ بأن يوجد لك دائماً مهرباً . دون كليمِنتِهِ أبو ندانثيا ، أووفرة ، أو قل دون كليمِنْته باريث كربالو التاجر ، لم يحتمل القرنين اللذين زيّنته بهما زوجه دونيا ريتا التي كانت على صلة بمرشدها الروحي ، أو الكاهن دون روسيندو ، وأطلق النار على نفسه في فمه ، جرى ذلك كله ونحن في حالة سلم ، وأضاع كل شيء .

ـ أحقاً ما يقال إن دماغه التصق بالمصباح ؟

ـ أي ، نعم . يبدو ذلك صحيحاً .

طاف ريموندو كسندولفس بمشفيين أو بثلاثة مشافٍ ميدانية . كانت صغيرة وسيئة التجهيز ، ليس فيها غيرُ الضماد وصبغة اليود إلى أن نقل إلى مشفى ميراندا دِبْرو حيث نُزعت الرصاصة من ساقه ؛ كان المشفى غاصّاً بالطليان . ثم نُقل إلى مدرسة الصنائع والفنون في لوغرونيو ، حيث عولج معالجة جيدة وأقام بعض الصداقات ، كانت أغطية الأسرّة ملوثة ببقع الدم ، لكن ذلك لا أهمية له ، ولا ينبغي للمرء أن يكون موسوساً .

ـ ممن أنت ؟

ـ من إبلّوريغا ، في محيط بيتوريا ، أبي عامل برق .

مونتشو بريغيثاس قُطعت ساقه في أرض المغرب ، حقيقة أن هذا الأمر مألوف في كل مكان .

ـ وأنت ، كيف يبدو لك المغاربة ؟

ـ ماذا تبغي مني أن أقول لك ؟! لم يعاملوني بالحسنى ؛ ومع ذلك ، لا يبدون لي أسوأ من المسيحيين .

كان مونتشو بريغيثاس دائماً عادلاً جداً في أحكامه . فيه شيء من الفنتازيا ، لكنه إذا قال عدل .

ـ لكن ، أين قُطعت ساقُك الحيّة ، يا تعيس ؟

ـ في مليلة . وأنت تعرف ذلك كما أعرفه . سمعتني أردّده مائة مرة . أقول إن همّي كان العودة إلى الوطن . وهنا ، في بلدنا تُطلق النار بحقد كبير . ومن يزرع الموت هنا ، ليسوا مغاربة .

كان ريموندو كسندولفِس في القاعة الخامسة التي كانت تحوي أربعة وعشرين سريراً ومدفأة لا تُطفأ لحسن الحظ ، ليلاً ولا نهاراً ، لأن لوغرونيو باردة جداً في الشتاء . يُعنى بجرحى القاعة راهبتان وممرّضتان كلهن شابات يعملن بإمرة الأخت كتالينا من ريوخا . وكانت شديدة المراس صارمة .

ـ إذا قلتُ لك صَلِّ صلاة المسبحة الوردية ، يجب عليك أن تصلّيَها . أتفهمني ؟

ـ نعم ، يا أختاه!

آدريان إستِبثِ كورتوبهِ ، تُبيرون ، الغوّاص الذي أراد سرقة أجراس أنطاكية من بحيرة آنتيلا ، قُتل في جبهة مدريد ، وقد غُربل جسمه بالرصاص .

ـ أتحسب أنه كان ذا حظٍّ سيء ؟

ـ لا أدري ما أقول لك ، يا رجل! أنت كيف يبدو لك الأمر ؟

مامِرتو بِكسون لم يذهب إلى الحرب ، لكنه اخترع آلة طائرة ما لبثت أن تحطّمت كلياً .

ـ أرى أن خطأً حصل في جهاز النقل . أرغب في الشفاء كيما أحاول مرة أخرى .

بعد أيام قلائل ، التقى ريموندو على غير توقّع ، بابن عمه الجنديّ المدفعيّ كاميلو .

ـ وأنت هنا ؟

ـ كما ترى . لقد أصبت .

ـ أين كانت الإصابة ؟

ـ في الصدر .

ـ حفظك لله!

دونيا ماريا أوكسيلادورا ، أرملة بورّاس بدأت اكتتاباً بعشر بيزيتات لشراء أسلحة من الخارج .

ـ لو أن كل إسباني دفع «دوريين» لحصلنا على مبلغ ضخم .

باسيليسا المغفلة بنت توناليرا ، الراعي المُوَكّل أثناء الحرب بالمسكين بسكوالينو آنتيميل كتشيشو العريف في كتيبة مشاة ثامورا الثامنة ، كانت تكتب له كل أسبوع ، وترسل إليه شوكولا وتبغاً . قتل العريف آنتيميل ، لكن باسيليسا لم تدرِ بذلك وظلّت تُرسل إليه الشوكولا والتبغ ، وأحياناً بعض النقانق ، وقد انتفع بهذا الوضع أحد ما ، فلا شيء يذهب هنا سدى ، في القاعة الخامسة ، كان ريموندو كسندولفِس وابن عمه الوحيدين الذين يمتلكان فرشاتي أسنان .

ـ ومعجوناً للأسنان أيضاً ؟

ـ نعم ؛ كان لديهما نصفُ أنبوب من معجون بيريرول .

ذات صباح ، حضرت الأخت كتالينا ومعها فرشاة أسنان ، وتحدّثت إلى الجنود الجرحى .

ـ سأرى إن كنتم تفهمون ، لأنكم أجلاف جداً ، وأسأل الله أن يمنحني الصبر عليكم . المسألة الصحيّة هامة للغاية . عليكم أن تكونوا نظيفين جداً لكي تموت الجراثيم . أتفهمون ؟ هذان الغليشيّان وحدهما يستخدمان فرشاة أسنان ، وهذا مخجل لكم جميعاً . غليشيان فقط! طلبتُ من العقيد فرشاة أسنان من أجل هذه القاعة ، وحصلت عليها ، وها هي في يدي .

وعرضت الأخت كاتلينا عليهم الفرشاة التي كانت بلون الكاراميل .

ـ أترونها جيداً ؟

ـ نعم . يا أخت .

ـ إذاً . بدءاً من هذا المساء وبعد صلاة المسبحة الوردية ، سأغسل أسنانكم جميعاً . مبتدئة بهذه الزاوية حتى أنتهي في الزاوية الأخرى .

ماتت الكلبة بِسْبورا من ألم في أمعائها ، لأن الخال كليتو كان تقيّأ الليلة الفائتة طعاماً غير مهضوم وفيه كحول ، فلم تستطع الكلبة تحمّله . على العكس منها تسارفيتش كلب الآنسة رامونا الروسي السلوقي ، فكان يبدو نظيفاً أنيقاً تعجب المرءَ رؤيتُه .

ـ ألا ينبغي لنا تغيير اسمه ؟

ـ لا أدري ، يا امرأة... لا تسمّيه بأي اسم .

نجا آلفونسنيو مارتينيث بجلده باختبائه لدى الخوري سان ميغيل ديبوثينيوس ، وما كان يعلم أحد مكانه ما عدا دولورِس خادمَ دون مركسيلدو ، حتى موتشو ذاته ما كان ليتجرّأ على رجل دين .

ـ ألم يمرّ من هنا ؟

ـ لا! لم أره منذ قرون!

سرير ريموندو كسندولفِس وابن عمه المدفعي كاميلو كانا إلى جانب بعضهما البعض ، تفصل بينهما منضدة ليلية صغيرة ، وكانت المبولة مشتركة . مات المدعو آغيرّه من نزف فموي ، فانتهزا الفرصة وطلبا إذنا من الأخت كاتلينا في إجراء تبديل .

ـ من سرق قبّعة آغيرّه ؟

ـ لست أنا ، يا أخت ، وأقسم لك على ذلك .

قام بذلك إيسيدرو سواريث منديث الذي كان يسرق الموتى دائماً ، يسرق نقودهم ، وقبعاتهم ، وعلب دخانهم وساعاتهم وصورهم ، لكنني لم أر داعياً لاتهامه فربما طردته الأخت كانلينا .

ـ أصدقك ، ياغليتشي . إني وإن كانت ثقتي بك ضعيفة ، لكني أصدقك .

كان حظّ الأخت كاتلينا من الأنوثة أكبر من حظ المسكينة آنغوستياس ثونيان كوباتين التي تخلّى عنها زوجها بعد ساعة ونصف الساعة من عقد القران . صارت بالطبع راهبة .

ـ وما أخبارها ؟

ـ لست أدري . لم يُعرف عنها شيء ، على الأرجح ماتت بفقر الدم .

ـ نعم ، ذلك أرجح الظنون .

ـ أو ربما لسعتها ذبابة خيل وصارت عرجاء .

ـ ربما أيضاً!

كان يقصد المشفى الآنستان ديفرينيس وأوسبيتاليس لتقديم العون لنا ، كنّا نسميهما الأقحوانتين باسم زوج الملك دون كارلوس الثامن اللذين زارهما المركيز ديبرادومين في بلاطهما في إستيّا ، هذا ما حكاه بايّه إنكلان في روايته سوناتا الشتاء . كانت الأقحوانتان توزّعان تمائم وعلباً صغيرة على الجنود الجرحى . وكذلك جوارب صوفية ومعاطف وكنزات وثياباً أخرى ، وقناني صغيرة من كونياك «تريس ثيروس» صنع أوربورنه ، و«تريس كوباس» ، صنع غونثالِث بيّاس ، و«تريس ثِبّاس» من صنع دومِك ، كلها تخدش الفم مثل خلاصة الترمنتين . الحقيقة أنهما تعاملاننا كأننا فقراء أخوة سان بيثِنْتِه ديبول . تلبس الأقحوانتان قميصين بلون كاكي ، وقبّعتين بلون أحمر لأنهما من أنصار الملك كارلوس . نسميهما في العادة «العسكر التقليدي» ؛ رئيستهما دونيا ماريا روسا أوراكا باستور ،

على الأرجح اسمها روسا ماريا ، مربوعة القادمة قليلاً ، لكن المدفعي كاميلو كان معجباً بها .

ـ هي طيبة جداً ، وتذكرني بالجنرال سِلْبِسْترِه ، دون مانويل سلبستره صاحب كارثة أنوال .

ـ ليس الشبه بينهما في الشاربين .

ـ لا! وإنما في المظهر والسلوك .

كاسيانو آريال المشرف على معمل «البسكويت الهسباني» الذي كان يحمل اسم معمل «البسكويت الإنكليزي» ، كان وحدَه يستطيع السيطرة على دونيا ريتا إذا غضبت .

ـ أستغفر الله ، يا سيد ماريانو! لكن ، إذا أخفق زوجي معي مرة أخرى بعد كل ما كلّفني ، أقسم لك بأني سأقتله .

ـ تماسكي يا آنسة! اهدئي قليلاً ، وغذّي دون روسيندو جيداً ، هذا ضروري جداً لكي يُفلحَ معك ، حضّري له محَّ البيض مخفوقاً بخمر شيريش .

ثلاث أقحوانات زرْن القاعة وكنّ يحملن الهدايا في سلّة كبيرة .

ـ سأزيّن صدرك يا جندي بتميمة القلب الأقدس لتحميك من كل شرّ ، انظر ماذا تقول : ابعدي عني يا رصاصة ، قلب يسوع معي .

شحب لون المدفعي كاميلو وكأن الدم فرّ من وجهه .

ـ لا! لا! وشكراً جزيلاً . علّقيها على صدر آخر غيري ، أطلب إليك ذلك راجياً . كنت أعلّق تميمة منها بدبّوس على سترتي ، وقد أُخرجت من ظهري منذ شهر تقريباً . أقول لك ذلك بكل احترام ، يا آنسة . في رأيي ، تميمة القلب الأقدس شعوذة .

غِيْظت الأقحوانة غيظاً كبيراً حتى بدت كأنما أُشعلت فيها النيران .

ـ أنت وقح! أتحتقر قلب يسوع الأقدس ، يا أحمر!

تدخّلت الأخت كاتلينا في الأمر ، ودافعت عن المدفعي كاميلو . فهي لا تسمح بأن يُمسَّ جرحاها .

ـ اخرجي من هنا ، يا مسلولة ، يا وقحة! لا تتدخلي في شؤون أبنائي! أتفهمين ؟ اخرجي من هنا ، ولا تدخلي مرة أخرى حتى تستأذني .

كانت الأخت كاتلينا ثابتة الجنان شجاعة وشديدة المراس . الجنود الجرحى في نظرها ، شيئان : مقدّسون وملْك يمينها . هذا يسري على الإسبان فقط ، لأن الأخت كاتلينا ما كانت تقبل طلياناً ولا مغاربة .

ـ لا! لا! لهؤلاء . فلتُعْنَ بهم راهباتُهم إنْ وُجدْن . لا أريد هنا عروقاً مختلطة .

لم يكن القميص على مقاس جسم كاسيميرو بوكاماوس خادمِ كنيسة سنتياغو ديتورثيلا .

ـ أتؤمن ، يا سيد ، بأننا سننجو من هذه العاصفة ؟

ـ في الحقيقة ، لا أعلم . ولنعترفْ بأن الإنسان شديد التحمّل .

لما أخذت صحتا ريموندو كسندولفس وابن عمه ، بالتحسن واستطاعا التحرك ، كانا يخرجان في المساء إلى مقهى لوس دوس ليونيس في شارع الجنرال مولا المسمى من قبل ، بورتاليس . كانت الأخت كاتلينا تنفحهما «ببالٍ» واحد لكل منهما ثمناً للقهوة وقدحٍ من الخمر وسيجار خام . وكانا يصطحبان إلى المقهى أحياناً ، تشومين غلبرّا لارّوونا ، عضو منظمة شبه حربية في لاكار ، الذي فقد في ساعة نحس يديه وعينيه بانفجار قنبلة

«لاقيت» . وكان لا مناص من أن يُسقى بيد وتُمسك له اللفافة بيد أخرى ، كيما يدخّن . وكان يتردّد على المقهى أيضاً متطوّع كوبي شبه خلاسي ، هو الآخر أعمى . وكان يقضي ساعات فراغه مدندناً بأغنية لازمِتها كالتالي : زماني زمن الشقلبة ، صار الوجه فيه كالقفا ، تشومين كان شخصاً طيباً جداً ، ويثير الحزن ، وكان ريموندو كسندولفس يقرأ له جريدة «ريوخانوييا» . المشكلة بدأت لما أراد زيارة الماخور ، معلوم أن غريزته تثار بالتفكير . وكان الماخور على الجانب الآخر من النهر بين المسلخ ومعمل الكهرباء . بيت ليونور فيه بغيّان : أوربانا وموديستا ، وهما ابنتاها ذاتها . كانتا فتاتين نحيلتين حزينتين تتعاطيان الثرِيْكالتين ، أُعدم أبوهما لأنه كان عضواً في U.G.T اتحاد العمال العام . بيت ليونور يستقبل زبنه في المطبخ ، وليس فيه غيرُ مخدع واحد مملوء بصور تثير الخوف من الإثم : النجاة الأبدية ، سانتا ريتا ديكاثيا ، الحمل دون دنس ، قلب عيسى المقدّس ، عذارء البيلار ، سان خوسِه بعصاه من النرد ، يسوع براغ الطفل ؛ في الحجرة أيضاً سرير حديدي ومنضدتان صغيرتان ، وكرسيّ ودكّة ، وساعة منبّه ومبولة ، وإناء ماء ومطهرة محمولة ، أما أقراص البِرمُنْغنات ، فكانت تُحفظ في قصعة . شرعت أوربانا وموديستا تبكيان ، ولم تريدا الانشغال بتشومين .

ـ كلا! كلا! هو يبعث على ما لا أدري فليس للمسكين شيءٌ يمسك به .

قالت ليونور لريموندو كسندولفس .

ـ «هما شابّتان ولم تتعوّدا على وضع كهذا لكن ، لا تبالِ ، فلن يخرج هد المخلوق من بيتي محزوناً ؛ لا تبال ، أنا سأتولّى أمره ، وإذْ هو

أعمى ، فلن يلاحظ شيئاً . وسوف ترى . انتظرْ ريثما أغتسل قيلاً ، وأرشَ نفسي بماء الكولونيا » .

ثِلْسو مَسيِلدو ، تَشَبَون كان في لوغرونيو جندياً في كتيبة مشاة بيلين الرابعة والعشرين ، ثم انضمَ في وقت لاحق إلى حرب العصابات ، فكان أولاً في عصابة البيلارين ، ثم في عصابة بينيغنو غارثيا أندرادِه ، الملقب بفوثيّاس . كثيرون هم الذين يحسبون أنه قُتل في الجبل حوالي عام ١٩٥٠ أو ١٩٥١ ، في كمين نصبه له الحرس المدني ، لكن الحقيقة غير ذلك . فقد كنت معه في توكوبيتا عاصمة دلتا آماكورو في فنزويلا عام ١٩٥٣ . كان تَشَبَون تزوج بامرأة سمينة ثرية جداً ، اسمها فلور ديبيرلا آرْغَبيّثْشِه ، وكان يقضي وقته في تصنيف أسماك الأورينوكو . وَجَدَ ريموندو كسندولفس وابن عمه كاميلو نفسيهما متورِّطين في الإشكال الذي حدث في مستودع المشفى حيث فُقد أكثر من أربعين علبة جبن وكان العقيد غاضباً جداً .

ـ لا بدّ من تأديب هؤلاء السفلة . فَلْيُصْرف كل من يستطيع الحركة ، ويعالجوا في العيادة الخارجية . وليموتوا بغيظهم!

وهكذا وجد ريموندو وابن عمه نفسيهما في الشارع دون أن يكون لهما علاقة بما جرى .

ـ هذا ليس عدلاً ، ـ كانا يقولان للأخت كاتلينا ـ نحن لا علاقة لنا بسرقة الجبن السعيد ، ومع ذلك ، أُلقي بنا إلى الشارع على أننا لصّان دون أن نشفى ، وأسوأ من ذلك ، أن العقيد لا يريد أن يقابلنا .

ـ صبراً ، يا شابان ، في الحياة العسكرية ينبغي لكما الصبر ، وتعلم التحمّل .

خطيب كلاريتا بنت دون خيسوس منثنيدو كان يدعى إيغناثيو آروخوثيد ، وكان عاملاً في مصرف باستور ، قسم اعتمادات الأفراد ، لما بدأ دون خيسوس يسجلّ أسماء في دفتره ، اشمأز إيغناثيو ، فتطوّع في الجيش ، وقُتل بُعيد وصوله الجبهة . دخل ريموندو كسندولفس وابن عمه مقهى لوس دوس ليونيس .

ـ خير ما نعمل الآن البحث عن فندق ، ثم يفعل الله ما يشاء ، بقي معي بعض المال ، يمكننا أن نطلب إلى مونتشا أن ترسل إلينا حوالة وسنرى إن كان يصلنا المبلغ أم لا .

لم يكن ريموندو كسندولفس وابن عمه قد شفيا حقاً . لكن كان بمستطاعهما التحرك ولم تكن حالتهما تدعو إلى الذعر . وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات استقرا في فندق إستيا ، ملك دونيا بولا راميريث في شارع هيريرا قرب جمعية دفن الموتى بسترانا . كلفة إقامة كاملة مع غسل الثياب تساوي ٢,٧٥ بيزيتة .

ـ سيكون وضعنا حسناً هنا .

يقضي روبين لبوثان الأماسي في بيت الآنسة رامونا ، كلاهما يشعر بالذنب مما لا ذنب له فيه ، هذا يحدث أحياناً وعلاجُه الوحيد ترك الزمن يمضي .

ـ يبدو لي أني أخطأتُ خطأ كبيراً ، يا مونتشا ، لعلني أنفقت وقتاً في الحكم على الأمور والاحتقار ، وبذلك لا يمكن العيش أيضاً ، فالحياة تسير في دروب أخر . وأنا جد خائف ، أخاف أكثر مما تخافين ، وأفكر أن البشر سيظلّون يديرون هذا الجنون خلال خمسين عاماً ، لأن ما يجري جنون ، ويجب التصرف بحذر مع مهرجيه الأبطال والدينيين والسياسيين ، لأنهم لا

يفكرون... نعم ، أرغب اليوم في أن تضعي إحدى بولينزات شوبان في الغراموﻻ ، أو تعزفيها على البيانو ، وأفضل أن تعزفيها... منذ أيام ، ﻻ نعلم شيئاً عن ريموندو ، كيف سيكون حاله ؟ هو ﻻ يتصور كم نفتقده... نعم ، أرغب اليوم في قدح صغير... ، ما أغرب هذا كله ، يا مونتشا! أشعر بالفرح الجزيل فجأة ، وسنرى إلى متى يدوم... ، لم ﻻ ترفعين تنّورتك قليلاً ؟

الآنسة رامونا جالسة على كرسي هزاز ، وتبتسم في صمت بينا ترفع تنورتها شيئاً فشيئاً .

ـ قل رأيك!

زوج دونيا باوﻻ راميريث يدعى كوسمِه ، وهو كاتب في مكتب المفوضية المالية . دون كوسمه جمُّ التهذيب وقصير القامة ، لكنه بسيط جداً ، ويرشّ شعره بمثبت غومينا آرْخِنْتينا ، ويعزف على البومباردين أيام الآحاد في فرقة البلدية بدافع التسلية ، أو للحصول على بعض النقود بشرف ، يعزف أسطورة القبلة ، وزواج لويس آلونسو ، والعربة ، ورقصة دولورِس ، دونيا باوﻻ ثدياء وقوية وتستخدم دون كوسمه في تنفيذ مطالبها ، وتدعوه بيتهوفن باحتقار كبير .

ـ اذهب لشراء السبانخ ، يا بيتهوفن ، وﻻ تُبطئ! واجلب أيضاً فحم سنديان ، ومرّ على مكتب جمعية دفن الموتى لتعلم لمن كان هذ التابوت الفاخر الذي أخرج صباحاً .

ـ أنا ذاهب في الحال ، يا باوليتا ، دعيني أنهِ قراءة الصحيفة .

ـ ﻻ صحف وﻻ لبن! الواجب قبل القراءة .

ـ حسن ، يا امرأة!

نزلاء فندق دونيا باولا خمسة : رجل الدين دون سينين أوبيس تيخادا ، مصاب بالتهاب القصبات ، قائد لواء المشاة المتقاعد دون دومينغو برغاسا آرنديلو ، مصاب بالربو ، صاحب محل التعويضات السنّية مارتن بيثارس ليون ، مصاب بالتهاب الخصية ، ونحن الاثنان ، جريحا حرب .

ـ ربما كان أسوأ لنا لو كنا مغفّلَيْن وعجوزين . ألا ترى ذلك ؟

ـ حقاً ، يا رجل!

المادة الثانية من لائحة قوانين عام ١٨٥٢ حول الأعمال الخيرية ، تنصّ على أن من يحتاج رعاية أكبر ، هم المجانين والبكم والعميان والمعوقون والعجز ، ولعلها لم تجانب الصواب في ذلك .

باولينا بنت صاحبي الفندق الوحيدة ، منفّرة ، لأن المسكينة تشبه جرذ مجرور وفوق ذلك لها شاربان وسالفان وتضع نظارتين ، هي ما يسمى شمأزيزة حقيقية .

ـ لِمَ لا توضح لها الأمور ؟ أظن أنك لو اهتممت بها ، لربما حصلنا على طعام أفضل ، خاصة وأنك شرِه . لِمَ لا تحاول معها ؟

ـ اللعنة! لِمَ لا تحاول أنت ؟

يذهب ريموندو وابن عمه المدفعي لتلقّي العلاج وزرق الحقن في العيادة الخارجية في المشفى ، وقد ظلت الأخت كتالينا على عهدها بمنحهما بعض النقود . بعد أيام قلائل تحادثا وهما جالسان في المقهى .

ـ ماذا تقول لي عن مقتل آفوتو وثيدران سغاده ؟

ـ لا شيء . وماذا تبغي مني أن أقول ؟

جرع المدفعي كاميلو جرعة من الكونياك ، وتكلم وهو ينظر إلى الأرض .

ـ ماذا تفكر فيما يجب علينا عمله ؟

ـ لا أدري . في الوقت الحاضر ، علينا بالصبر الجميل ، ولا نحدّث أحداً بالأمر . ينبغي لنا الانتظار حتى ينقضي هذ الوضع كله ، ويمكننا بعدئذ جمع العائلة لاتخاذ قرار . نحن ـ آل موران ـ كثيرون ، وأكثر منا عدداً آل غوكسينده ، كل من ظل على قيد الحياة ، لا بد له من أن يبدي رأيه ، هذا الذي نعرفه أنا وأنت ، سيدفع ثمن جريمته ، ولن يفلت منها أبداً ، فلا تهتم ، هذا هو القانون الذي يحكمنا . ولنتحدث عن شيء آخر ، وكل ما هو آتٍ آت .

طلب المدفعي قدحين آخرين .

ـ ألديك نقود أخرى ؟

ـ لا! لكنِ اليومَ خمر وغداً أمر .

لما جُلب الكونياك ظل ريموندو كسندولفس متفكراً .

ـ انظر! لا أستطيع أن أشرب نخبك ، قائلاً : بصحتك!

البلد على بعد أربعة أيام بالقطار ، وهذي مصيبة .

ـ لو أستطيع الذهاب لذهبت فوراً إلى البلد .

ـ وأنا ، والله ، ولأهديت البندقية إلى أول عابر سبيل .

صِحتّا ريموندو وابن عمه المدفعي كاميلو أخذتا تتحسنان شيئاً فشيئاً . لكن الرجلين كانا يضجران كمحارتين . زد على ذلك ، صارا

مُفلسَيْن ، وما ربحاه في لعب البوكر في حانة إيبريا لا يفي إلا بنفقات الفندق ، ولا يستطيعان المجازفة في اللعب أيضاً ، وباوليتا ، فوق أنها غاية في القباحة ، تبيّن أنها فاضل ، واختلطت الأمور ، وقد بذل المدفعي كاميلو كل ما يستطيع حتى جعل من الحصاة جبلاً ، لكنه أخفق في محاولته إغواءها من أجل أن يترفّها قليلاً .

ـ أو لنقتات ؟

ـ نعم ، أو لنقتات ، ولمْ تبتعدْ عن الصواب في ذلك .

دون أتناثيو إيغيرويلا مارتن ، من تَبَنيرا لالوينغا في سيغوبية ، مشعوذ ومنجّم بورق اللعب ، ومنوم مغناطيسي ، وقارئ للأفكار والمستقبل ، ـ ألا يكون شبه ماسوني ؟ ـ هربت زوجه مع مغربي ، دون أتناثيو كان يطلق الزبد من فمه .

ـ أتكون بنت قحبة من تهرب مع محمدي ؟

ـ أتعلم أين هي ؟

ـ لا! لا أعلم ولا يهمني أن أعلم . لقد محوتها من حياتي .

ـ عجباً!

الأحاديث عن النساء تسرّي في العادة كثيراً عن نفوس الرجال .

حاول المدفعي كاميلو أن يعزف على هذا الوتر .

ـ انظر ، يا سيد إيغيرويلا ، النساء ، كما هو معلوم ، بعضهن عواهر ، وبعضهن عرج ، وبعضهن صم ، وبعضهن مصابات بالتهاب القرنية ، وبعضهن الآخر بهبوط المهبل وبعضهن ذوات نَفَس كريه الرائحة وبعضهن مصابات بألم الفِقار ، وبعضهن يهربن مع مغربي أو مسيحي على حدّ سواءٍ ، وهناك

قسم آخر منهن يحاول أن يهديك إلى الصراط المستقيم ، ويجعل منك رجلاً نافعاً ولو أرسلك إلى الجحيم ، حينئذ يقضين نهارهن بوعظك بما ينبغي لك أن تفعله ، مسديات لك النصح ، أو طالبات إليك كشف حساب ، وكأنك لا تعرف أن تتلاعب بهن . إنهن كالأمهات المثاليات ، ولا يوجد شخص يستطيع تحمّل هذ الوضع . لم لا يَرْكنَ إلى الهدوء ؟ أرجّح أنهن لا يستطعن . النساء طيبات ، أعلم ذلك ، لكن ، كلا! لسن كلهن سواء ، فباوليتا ، حتى لا نذهب بعيداً ، «خيبة» كريهة ، لكنهن إذا كن طيبات بعامة ، لا نستطيع الشكوى . السوء فيهن أنهن لجوجات ويقضين الحياة في تنظيم كل شيء... ، اسمع : أتعرف أحداً في مشفى نانكلاريس ديؤوكا ؟

ـ لا! ولِمَ ؟

قضى روبين لبوثان الليل وهو يكتب ، ويحسّ بتشوّش تفكيره ، ويعدّ القهوة على موقد كحولي ، وما عليه إلا أن يشعل الفتيل حتى تصبح القهوة ساخنة ، وبين رشفة وأخرى يقرأ ما كان كتبه ، ويطبق عينيه كيما يستطيع التفكير .

ـ نعم ، لقد كسبت ولا ريب ، فنجاناً من القهوة . هناك أشياء بعيدة جداً ، وأخرى أقرب منها ، والذاكرة تقلب زمن الأحداث وتخلط أسماء الأشخاص ؛ هذا هو طبع الذاكرة ، لكن الحقيقة أن كل شيء ظل بعيداً ، حينئذ كانت بينيثيا لا تزال طفلة ، وآدغا ترملت حديثاً ، وكانت ذات مظهر حسن ، مونتشا كانت دائماً أنيقة ، والقصص تتلاطم في الرأس ، عائلتنا لم تخلّف وصية واحدة معقولة ، هذا ليس فحصاً للضمير ، لكنه يوشك أن يكون ، أحب ريموندو دائماً صعود الجبل ، وأنا لم تسعفني صحتي قطّ ، أذكر أنه قال لي ذات يوم : أنا أذهب لصيد الذئاب والخنازير البرية ، وليس

لصيد الأرانب ، هذ شغل القشتاليين الذين يخرجون إلى الحقول في الصباح مع بنادقهم ويطلقون على كل ما يتحرك على افتراض أنه حي ، سواء كان حمامة أو أرنباً أو طفلاً لا يفرقون بينهم . كان ريموندو بين سكان دلتا المسيسيبي الذين يتحدثون الإسبانية... قال سيد لآخر دون مناسبة : لا تنخدع يا سيد ، العاقل طائر غبي يموت شاباً . كان روبين لبوثان يهوّم ، وما لبث أن أغفى لما بدأ بتقليب الأفكار في رأسه علامة على أن سلطان النوم غزاه ، وهذا يحدث لكل الناس .

ـ لِمَ لمْ تضطجع على السرير ؟

ـ كما ترين ، قضيت الليل و أنا أكتب . سوف أستلقي الآن حتى لا أشعر بالإرهاق كل النهار .

تانيس غاموثو يقلع القُرّاص بيده اليسرى دون أن يأخذ نفساً ، القراص لا يلسع إلا من يمكّنه من نفسه ، سهلٌ معرفة الإمساك به دون أن يلسع ، الكلاب تعوي من الضجر ، كذلك حين يكون القمر بدر تمام ، أو يُعلَن عن موت أحد ما ، طائرا التم رومولو وريمو في حديقة الآنسة رموانا بلغا من العمر عتيّاً ًقياساً إلى العمر الأقصى لهذا النوع بالطبع ، وما يزالان يسبحان في البركة بنشوة . تلك عادتهما . تانيس غاموثو يضحك في السرّ حين يسمع أطيط العشبة الخبيثة .

ـ أنا قد أكون قحبة ، لكنك ديّوث ، وهذ أسوأ لك! وإذ شئتَ أجْهر بذلك أمام الناس جميعاً ، وأمام كل حي ، وإذا لم تخرج الآن فوراً ورأسُك مطرق في الأرض . فسوف أفضحك وسط القاعة ، أتسمعني ؟

مارتا البرتغالية تبغض أوتيلو أو تيرولاس ، ولا تُطيق رؤيته مذ بصق على وجه غودنتيو الأعمى .

ـ لِمَ لا تبصق عليَّ ؟ أنا امرأة وأنت رجل ، لكنك لا تتجاسر عليَّ ، لأنك تعيس ووسخ ، ولو حاولت لقتلتك ، والله .

طردتْ بروتشا ثيرولاس إلى الشارع ، وأرسلتْ مارتا البرتغالية إلى المطبخ .

ـ لا تعدْ ، أنت إلى هنا ، ولا تفكّرْ في العودة ، وأنتِ ، تناولي فنجاناً من القهوة ، والزمي الهدوء . اليوم ، سيكون لدينا شغل كثير لأن كتيبة إيطالية وصلت البلد .

دون بينانثيو ليون مرتينيث الخبير التجاري والنسّابة والعالم بالمسكوكات شبه مريض ، وشبه فاسق ، يقضي حياته بمصّ أقراص البونبون بطعم القهوة بالحليب عند الأرمل سولاتو ، وأفكاره مثله ، رديئة ، انتحر دون بينانثيو في مقبرة سيدتنا ديل كارمن التابعة للبلدية ، هكذا تسمى المقابر في لوغرونيو ، ولا يعرف أحد ذلك تقريباً ، تقع المقبرة على طريق مندابيا ، ولا ضرورة لبلوغها ، لعبور «الإيبروتشيكيتو» ، إذا سرت فوق الجسر إلى ما بعد المسلخ ومعمل الكهرباء ، وبيت ليونور . مرّ دون بينانتيو ببيت ليونور أوّلاً ، وهناك غشي لاموديستا كما يغشى الديك الدجاجة بسرعة وعلى عجل ودون رواء ، وعلى قول لاموديستا كان شارد الذهن .

ـ دون بينانثيو كان فيه شيء من الغرابة ، ولم يرد أن أبلّل أعضاءه بالبرمنغنات ، وشرع يصلي صلاة : سيدي عيسى المسيح . كما كان خاثر النفس وينظر تشزراً ، على الأرجح كان يعاني من ألم في رأسه وفي سنّه . من يدري!

كان دون بينانثيو مولعاً بالموسيقى ويجيد العزف على «الآربا» ، هو كان يكتبه «الهاربا» بالهاء .

ـ ألا يذكّرُكَ بالملك داؤواد ؟

ـ لا ، أبداً . بل يذكرني بماري بيكفورد .

دون بينانثيو لم يقتلْ بشراً ، وإنما خطف نساء ، خطف كومة من النساء ، كلهن من الحمر ، ذلك يثير الضحك ، كان يخطف النساء ثم يستمني بعد ذلك .

ـ وهذه إحدى الهوايات أيضاً . وماذا كان يجني من ذلك ؟

ـ في الحقيقة لا أعلم .

دون بينانثيو بدأ يضرب أخماساً لأسداس ، ويقوم بغرائب الأفعال ، لما رحل المونسنيور موريغا أسقفُ بيتوريا عن المنطقة الوطنية ، كان ذلك حوالي منتصف تشرين الأول ، دون بينانثيو كان شديد الحساسية ، ومتديناً للغاية ، وظل واجماً مكتئباً منذ تلك اللحظة .

ـ انظري ، يا موديستا : أعطي أمك هذا الجنيةَ الإسترليني عند مغيب الشمس وليس قبله ، هو هدية مني إليها ، وقولي لها أن تحفظه في مكان أمينْ ولا تريه أحداً .

وصل دون بنانثيو المقبرة حوالي الساعة السادسة مساءً ، ركع أمام قبري والديه دون ميغيل ودونيا آدوراثيون ، وصلّى عليهما صلاة المسبحة الوردية بهدوء كبير ، وردّد بعض أسرار الإيمان ، أسرار مؤلمة كلها ، ولا شيء من الأسرار البهيجة أو المجيدة ؛ لما أخذ الظلام ينتشر ، لجأ إلى حفرة وخلع بناطيله الخارجية والداخلية ، وداعب أعضاءه التناسلية الدبقة الرطبة ، وشرب السم مع زجاجة خمر أحمر من نوع فرانكو إسبنيولا ، فالحانة لم تكن بعيدة ، ولم يفتح دون بينانثيو عينيه مرة أخرى ، لكنْ وقع له

حادث غريب ، ذلك بأن طاقم أسنانه الصناعية لُفِظ خارج فمه .

ـ ما أغرب هذا الحادث!

ـ أي ، نعم . دون بينانثيو كان ينطوي دائماً على شيء من الغرابة ، هذي هي الحقيقة .

استيقظ روبين لبوثان شبهَ طائش ، وكانت تؤلمه عظامه .

ـ أتريد أن أعطيك قرصاً من الإسبيرين مع صحن حساء ؟

ـ لا! أفضله مع قهوة بالحليب . أعطني قهوة بالحليب .

أحس روبين لبوثان بقشعريرة تجتاح جسمه كله ، فدثّرته الآنسة رامونا بغطائين إضافيين ، وأعدّت له مغطس ماء ساخن ليضع فيه قدميه .

ـ بذلك تزول عنك الحمى ، فكن هادئاً . ومتى تتفجر بالعرق ، تشعر بالتحسن... ، ذلك ما كان ينقصنا حتى يسلقنا الناس بألسنتهم!

مكث روبين لبوثان ثلاثة أيام حتى تماثل للشفاء . انتابته خلالها حمّى مرتفعة حتى صار يهذي .

ـ أتفوّهتُ بحماقات كبيرة ؟

ـ لا! وإنما بحماقاتك المألوفة ، أشهدتّني مشهداً من الغِيرة ، سمّيتني فيه الزوج الخائنة .

ابتسمت الآنسة رامونا بوجه غاية في الرصانة والحكمة .

ـ أنا لم أفكرْ بتاتاً في الزواج بك ، يا روبين ، أنا لا أحلم أبداً أحلاماً باطلة لا جدوى منها .

وأجابها روبين بابتسامة مدلّهة .

ـ معذرة ، يا مونتشا ، أنا فكّرت في ذلك . ماذا بوسعك! إني أقضي حياتي وأنا أحلم أحلاماً باطلة .

أُعطي المدفعي كاميلو التقرير الطبي الذي يعفيه من الخدمة ، وربَّ ضارّة نافعة . وهنا ، من يثبتْ يربح ، وقد ربح كاميلو نتيجة الطلقة التي أصابته في صدره . ويا لله كم عانى من العذاب لما نُزعت تميمةُ القلب الأقدس من ظهره! فلم يكن الأطباء على مستوى عالٍ من المهارة في التخدير ولا كانوا سريعين في الخياط ، ولا في الضماد ، فأمور القصر ، تسير بالطبع ، ببطءٍ وعُسْر ، لأن فيه كثيراً من التعقيد . أُعطي في مقر الحاكم العسكري ورقة عليها خاتمان أو ثلاثة أختام بلون بنفسجي : أُصْدِر إذنَ مرور ، باسم سيادة الجنرال قائد الفيلق السادس ، للجندي المدفعي من الكتيبة الخفيفة ١٦ ، كاميلو . ن ، ن . ، ليستطيع الانتقال من هذا الموقع إلى نيغريرا في لاكورونيا ، بهدف الإقامة الدائمة فيها ، لأنه أُعفي من الخدمة في القوات المسلّحة بناء على تقرير اللجنة الطبية العسكرية لهذا الموقع . على أن يقوم بالسفر بالقطار على نفقة الدولة . يُرجى من سلطات النقل ألا تضع أية عراقيل أمامه في سفره ، بل عليها أن تقدِم له المعونة والطعام اللازم والواجب له .

لوغرونيو في ٢١ حزيران عام ١٩٣٧ ، عام النصر الأول . الحاكم العسكري . إمضاء غير مقروء .

ـ ولِمَ لم يُؤذنْ له في السفر إلى بَدْرون ؟

ـ لا أدري . لعلّه هارب من خطيبة لا يريد الاقتران بها .

ابتسم له قائد الكتيبة بخبث لمّا سلّمه الوثيقة قائلاً :

ـ يا ويلنا نحن! أمّا أنت ، فقد ألقيت بكل شيء وراءك ، وعدت كالوردة . أخيراً ، أرجو أن تفيد من الوثيقة . كل الصعاليك حظهم سعيد .

ـ نعم ، يا سيدي!

وبدا فجأة كأنما كنا نتحدّث عن غزو بلاد ما بين النهرين . دون أبْريخيمو والد الآنسة رامونا ، لم يشأ أن يُدفن وسط الألم والسأم ، فلطالما احترم دون أبْريخيمو الحياة احتراماً كبيراً ، وكان يعزف على البانخو فوكسفورت وشارلستون ، وأمر بإطلاق أسهم نارية أثناء دفنه . قال روبين لبوثان للآنسة رامونا .

ـ لقد أنقذك والدك من الضجر : أما أنا ، فلم يقدر أحد على إنقاذي . وهذا مؤلم للغاية يا مونتشا ، مؤلم جداً ، والله .

العم كلوديو طاعن في السن حقاً ، لكنه يرى الأمورَ بصفاء ، وهو لا يعنيه شيء مما قد يجري في هذا العالم السفلي .

ـ كلهم مغامرون ، يا بُني ، والمغامرة قد تسوّغ حياة المرء أيضاً ، هذه حقيقة . انظر سيسيل رودوس ، مثلاً ، أو آموندسون مكتشف القطب الجنوبي والذي مات في القطب الشمالي ، لكن هذا شيء آخر . السوء هو أن تزرعَ الموت . إسبانيا ليست مسلخاً ، هؤلاء الأبطال المزيّفون القذرون لا يريدون أن يعملوا ، بل يفضّلون السعي وراء المغامرة ، مستبقين المعجزةَ ، متحدّين الله تعالى وقدره . أقصى ما يمكن أن يحدث لك أن تموت ، ولا مفر لنا جميعاً من الموت آجلاً أم عاجلاً ، لكنهم ، هم ، سيفقدون الشرف قبل فقدانهم الكرامة ، وأنت تفهمني جيداً ، لأن الجوع سيُعقب المغامرة .

هذا طبيعي ثم يأتي بؤس النفوس ، وبيع الضمائر في المزاد العلني .

ساء حال ريموندو كسندولفِس ، فقد انتفخت ساقه وارتفعت درجة حرارته إلى ٣٨,٥ ، وكان لا مندوحة من إدخاله المشفى من جديد ، لكن هذه المرة في نونكلاريس ديؤوكا .

ـ أتعرف أحداً في مشفى نونكلاريس ديؤوكا ؟

ـ نعم ، ولِمَ ؟ أنا أعرف أحداً ما ، في كل ناحية من الأنحاء .

ـ لله درُّك ، يا عم! من حسن الحظ أنك تعرفهم!

في مشفى نونكلاريس ديؤوكا ، عقد ريموندو كسندولفس صداقة مع العريف في ميليشيا المحافظين إيغناثيو أَرَنَارَاتْشِه ، أو بيتشيشي الذي حمل إليه رسالة توصية من دون كوسمه صاحب الفندق والعازف على البومباردين .

ـ كيف حال دونيا باولا ؟

ـ جيد جداً . تدير فندقها كالعادة .

ـ وباوليتا ؟ ما أبشع العويهرة!

ـ وهي أيضاً في حال حسن . عانت الشهر الماضي من قولنج معوي .

ـ رعاها الله!

على بعد فراسخ كثيرة من هنا ، هبّت العاصفة على أورينسه ، فتلفّعت بروتشا بطرحتها الحريرية الغاصّة بصور الصينيين ذوي الوجوه العاجية ، ثلاثمائة صيني على الأقل ، وربما تزيد عنها ، وتصلّي صلاة سيدتنا العذراء ، يا برج داوود : صلي من أجلنا ، يا برج العاج : صلي من أجلنا ،

يا بيت الذهب : صلي من أجلنا ، طرحة لابروتشا قد تكون خيرَ طرحة في المنطقة كلها ، وربما في إسبانيا الوطنية أيضاً ، فلا بيبيتا السرقسطية ، ولا لولا البرغسية ، ولا آباتشا الكورونية ، ولا بترا السلمنقية ، ولا تشيكلانيرا الإشبيلية ، ولا توركا البمبلونية ، ولا مدريلينيا البدخوسية ، ولا بيثكوتشا الغرناطية ، لديهن طرحةٌ مثلها أو نظيرها ، طرحةُ لابرّوتشا جدّ طرحة .

ـ كم تريدين فيها ، يا دونيا بورا ؟

ـ ليست للبيع ، يا سيد . فمهما دفعت في هذه الطرحة فلن تخرج من بيتي .

سان كاميلو ذو العكّاز الذي صنعه ماركوس آلبيته ، خيرُ سان كاميلو في الدنيا ،.له وجه مغفّل ، لكنه حسن جداً ، وتسرّ المرءَ رؤيتُه .

ـ لا تذهب به إلى الحرب ، فإمّا أن تفقده أو يتهشّم .

ـ لن أذهب به ، سأعطيه للآنسة رامونا كيما تحفظه .

ـ ألن تسخرَ منّا ؟

ـ لا أظن! الآنسة رامونا بارّة جداً ، وهي مثقّفة ثقافة جيدة .

ـ نعم ، هذا مؤكد .

دون أتناسيو إيغيرويلا شبه الساحر الذي هربت منه زوجه مع مغربي ، كان من فرسان وردة الصليب ، لكنّ السلطاتِ ما كانت تعلم به ، فقد كان يحمل على ذراعه وشمَ شعار الوردات الأربع ، لكنه لم يكن يتمَرّ كمّيه أبداً ، كان دون أتناسيو يؤمن بتناسخ الأرواح والأخوّة بين الشعوب ، والجاذبية الكونية .

ـ انظر ، يا سيد إيغيرويلا ، إياك! إياك أن تجاهر بآرائك . الفكرة الإخيرة مقبولة ولو بتحفّظ ، أما الفكرتان الأخريان ، فاسكتْ عنهما ، لأن الناس سيئو الظن ، وربما سبّبوا لك متاعب .

ـ أتعتقد بذلك ؟

ـ نعم ، يا رجل ، لو لم أعتقد به لما قلته لك .

الأعمى غودنثيو لا يسمح بأن يُقاد .

ـ غودنثيو ، إليك بيزيتة من أجل لحن الماثوركا .

ـ ذلك حسب من يسمعها .

روساليا تراسولفِه ، أو كابوكساتولا ، لا تشكو شيئاً أبداً .

ـ كنت صبورة وكافأني الله بأن رأيته ميتاً كقطّ سحقته شاحنة . علينا التزام الصبر دائماً ، التزام الصبر دائماً ، وأخيراً ، نزع الله حمائل أكثر الناس حذراً ، وهذا الديوث الذي صار اليوم ميتاً ، لم يكن أشجع الناس ، ولا حاجة بي إلى أن أقسم ، فأنت تعرفينه .

إيغناثيو آرناراتشه أولاته ، بيتشيشي كان يدرس في مدرسة دينية في توديل ليصبح خورياً لكنه لم يصلْ إلى إنشاد القداس حتى ترك المدرسة باكراً . هو يدرس الآن الحقوق في بلد الوليد وصار في السنة الثالثة . بيتشيشي طيب جداً وإن كان قصير القامة قليلاً ، اخترقت ساقيه رصاصة لكنه صار الآن في وضع حسن .

ـ والعاهر دون كوسمه ، ألا يزال ينفح في البوق ؟

ـ أي ، نعم ، وأظنه يعزف جيداً

ـ وكيف أموره في مصلحة المالية ؟

ـ لا أدري ، يُخيل إلي أنها تسير بشكل عادي .

يتحدث بيتشيشي بإعجاب كبير عن أحد أقاربه ، عن عمّ بعيد له يُدعى دون خوسيه ماريا ايريبارّين مؤلف كتاب : «مع الجنرال مولا . مشاهد ومظاهر غير مألوفة في الحرب الأهلية» .

ـ هذه الصفحات جلبت متاعب جمّة على عمي ، لأن المتربّصين به في سَلَمَنْقة أرادوا أن يسبّبوا له إزعاجات ولم يلبثوا أن وجدوها .

نونثينيا سبديلّه لا تزال تمدّ يد الإحسان للأعمى غودنِثيو .

ـ وما السوء في أن يضطجع رجل وامرأة معاً ويمارسا الخبائث ؟ أتظن ، يا سيدي أن العميان ليس لهم مشاعر ؟

غودنثيو يُقرّ بالشكر الجزيل لنونثينيا سبديله .

ـ أترغبين في أن أعزف الدانوب الأزرق ؟

ـ نعم .

ـ والتانغو إيبيرا ، إيبيرا ؟

ـ وهذا أيضاً .

غودنثيو يعجبه أن يسمع صوت نونثينيا ، لأنه صوت عذب ورخيم ، وأن يلمسَ عجيزتها بلطف كبير .

قريب بيتشيشي كان سكرتير الجنرال مولا الذي استطاع التدخّل بشكل حاسم ، ولو تراخى ووصل متأخراً ، لصار كاتب سيرته جثّة ، ولنبت العشب على دمنته ، المسعور الذي يطارد عمي ـ كما يقول بيتشيشي ـ كان

أحد الذين يكتبون مقالات في صحيفة الـ «يا» شارحاً ما ينبغي لك عمله كيلا تُخدع حين تشتري سيارة مستعملة .

ـ وكيف له هذا النفوذ ؟

ـ وما أدراني!

ريموندو كسندولفس كان يخشى المتربِّصين خشية كبرى ، فأصحاب الأقبية في بورغوس وفي سلمنقة وفي أماكن أخر أيضاً ، هم أخطر من جبهة الحرب ، لأن المتربّصين لئام وجبناء غاية الجبن ، بل هم شر الجبناء قاطبة ، ما يريدونه أن يخرؤوا في الخفاء ، وإن كان رئيسهم يخرأ على أبائهم في كل لحظة ، ما كانوا يأبهون بأن يزرعوا . الطريق بالوشاية والألم والموت ـ والموتى يمكن لهم أن يعترفوا ويتناولوا ـ بأن يزرعوها بالحماسة المفرطة ، أتدرك ما أعنيه ؟ الحماسة المفرطة تعني أن من اللازم أن يتحقّق الرئيس من وطنيتك . عاشت إسبانيا! لا ضرورة لأن تكون الأشياء كاملة نقية ، يكفي أن تسير سيرها المعتاد ، تسير على طبيعتها ودن إزعاج . فالحقيقة المقسورة أقلُّ ملاءمة وتوافقاً من التفاهة المؤكدة ، هذا المعنى غير مفهوم جداً ، لكنني أعي جيداً ما أريد قوله . هنا في الأقبية كل شيء صالح : الوشاية والخسة والتآمر ، المتربصون يخرؤون في بناطيلهم من الخوف . كان ريموندو كسندولفس قال ما سبق إلى المدفعي كاميلو منذ أيام خلت لما كانا لا يزالان في لوغرونيو .

ـ حين تنتهي الحرب ، سيكون الكتبة أسياد الموقف ، وسوف ترى ، القانونيون ورجال الصحافة والدعاية والمتربصون ينظّمون أنفسهم جيداً جداً ، وعوضاً عن أن يقصدوا المواخير يقضون نهارهم وهم يفكّرون في ما يلائمهم ، كما أنهم يصلّون كثيراً لكي تدعمهم أزواج العسكريين من رتبة

عقيد وما يعلوها ، أما ما لا يريدون سماعَه فهو إطلاق النار ، هم يكسبون مالاً وينجون بأرواحهم ، أما نحن فنخرج صفرَ الأيدي ، ونقامر بحياتنا ، ونفقدها أحياناً ، لكنّ ذلك لا أهمية له .

كذلك بيتشيشي يرى المستقبل معلّقاً في الهواء وفي خطر .

ـ الثور الوحشي يسيطر عليه بالمخزم ، وهذا واضح وضوح الشمس ، وأنا نفسي لا أرى وسيلة أخرى ، وهذا ليس عدلاً ، ألا تشاركني الرأي ؟ هذا ما لا ينبغي لله أن يسمح به ، ما يجري هو أن الله لا يأبه بهذه المناورات ولا تعنيه في شيء ، لما أصبتُ كفرت بالله ، وتقلصت رجلي ، لم يعاقبني الله ، مذ ذاك لم أبسط ساقي ، وهذه علامة على أن الله لا يهمه أمرنا في شيء ، لا يمكن البوح بذلك لكل الناس . أفكرت ذات مرة في الانتحار ؟ أنا لم أفكر فيه . أرى أننا لا ينبغي لنا أن ننتحر أبداً مهما كانت الأسباب .

تدور عجلة الزمن على الناس جميعاً ، وروسيكلير نمت كما تنمو النساء ، أي ، بإثارة التحدي .

ـ سأخونك اليوم مع من أعرف ، وأنت يا مونتشينيا تعرفينه أيضاً .

ـ يا لك من عاهرة ، يا روسيكلير!

تدور عجلة الزمن على الناس جميعاً ، وعلى الأموت منهم أيضاً .

ـ وكيف يتمكّنون من حساب الوقت إن كانوا لا يستطيعون النظر إلى الساعات ؟

ـ هذا ما لا أعرفه ، أكاد لا أعرف شيئاً مما يجري ، لكنني سأحتال بحسن نية ، لمعرفة كل ما يجري .

روبين لبوثان يخمّن أن حسن الحظ لم يحالفه في حياته .

ـ ربما كان وضعي أفضل لو استطعت التأقلم مع العائلة ، يا مونتشا ، أعني مع أفراد عائلتي ، هم جميعاً مائعون ، أنا لم أتعلّم العيش في المدينة ، وهذا له ثمنُه ، عائلتي مبتذلة ، مضجرة ، فرحُها قليل وشفقتها ضعيفة ، عائلة متّحدة من الخارج فقط ، وتقتل وقتها مُخدَّرة بخرافات الخوارنة والراهبات ، وترعى سوء الطبع ، ورداءة الذوق ، عائلتي كمدينة البندقية ، يا مونتشا كالبندقية التي تعيش على الذكريات وهي تغرق شيئاً فشيئاً دون أمل بالنجاة ، ودون أن تدرك وضعها أيضاً ، بل هي غافلة عنه منذ أمد بعيد ، وكذلك عائلتي لا تدرك أبداً شيئاً مما يجري حولها ، وربما كان ذلك خيراً لها .

أغفى روبين لبوثان لما ختم حديثه ، وخرجت الآنسة رامونا على رؤوس أصابع قدميها كيلا تقطع عليه سكونه .

ـ الحقيقة أن أياً منا لم يكن ذا حظ عظيم في هذه الحياة .

آديل وخيورخينا بنتا خالة مونتشو بريغيثاس يرقصان رقصاً مشتركاً مع الآنسة رامونا وروسيكلير .

ـ أتريدين أن أخرج ثديي من الياقة ؟

ـ لا! أفضل أن تخلعي البلوزة .

أرسل الصليب الأحمر بلاغاً يعلن فيه أن الخالة سلبدورا ، أم ريموندو كسندولفس توفِّيت في مدريد وفاة طبيعية ، أحس الخال كليتو بجسامة الأمر فترع يعزف الجاز باند عزفاً متواصلاً لذيذاً حتى لا يقدر زنجيّ من أورليانز أن يعزف خيراً منه .

يُخيّل إلى ريموندو كسندولفس لو أن محدِّثة تشخصاً آخر أحدث سناً

من السيغوبي أتناسيو إيغيرويلا ، أو ربما أكثر ثقافة منه بقليل ، لاستطاع أن يقول له إلى هذا الحد أو ذاك ، المقطع التالي :

ـ الجريدة الرسمية أسوأ من الحرب ذاتها ، قد لا يُصدّق ذلك ، لكنه حقيقة قائمة كهيكل معبد ، ولا تشك فيه . الجريدة الرسمية سلاح الجبناء الخرَعين الذين سيصبحون المنتصرين الكبار والغالبين حتى خمسين عاماً قادمة أو تزيد ، زمن يضاف إلى الزمن ، المجامع تعرف كيف تكسب الأموال وتتقاسم الأرباح والملذات ، لكنها تعرف على وجه خاص إدارة أدواتها جيداً : أمر بمصادرة الكتب البورنوغرافية والماركسية والملحدة والمنحلة بعامة ، وتدميرها (أمراض الروح تنشأ من القراءة) ، يُلغى التعليم المدرسي المُختلط (لأنه يثير الاضطراب) ، المجالس البلدية يعينها الحكام المدنيون (لصيانة الوحدة) ، تطهير الجهاز الوظيفي (لا ينبغي للملك العام أن يديره الخونة) ، عبادة العذراء مريم إجبارية في المدارس (يجب أن ترفق التحية الرومانية بالقول : تحية إلى مريم الطهور...) ، تُفرض الرقابة المسبقة على الصحافة والكتب والمسرح والسينما والإذاعة (لا يستحسن الخلط بين الحرية والخلاعة) ، تُلغى حرية الاجتماع والتجمع (بذرة الاضطراب) ، يُلغي الزواج المدني (دعارة) ، والطلاق (منطق فاسد ومقدّمة للدعارة) ، يُحظر إطلاق أسماء غير واردة في كتاب القديسين (حرب صليبية على الوثنية) ، الخطر سيكون الرغبة في إيقاف تاريخ الإسبان .

لم يخطر على بال المسكين إيغيرويلا شيء مما سبق ، ولا شيء يشبهه ، كان إيغيرويلا يحاول ألا يفكر كثيراً حتى ولا بصوت عالٍ ، لكن ريموندو كسندولفس كان بحاجة إلى أن يُفضي بذات نفسه إلى أحد ما .

ـ ألست معنياً بذلك ؟

ـ لا! لست معنياً به .

كلاب تانيس غاموثو شجاعة وذكية لا تنطلق في رحلة أبداً عبثاً ، قيصر جرحه الذئب جرحاً مميتاً ، وكان لا مناص من مساعدته بقتله بالسكين ، أمر مؤلم ، لكن لا يوجد علاج آخر ، عند تانيس غاموثو أيضاً أربعة جراء من الإناث : بولبريتا ، بيرلا ، ميغا ، فلور ، ما كان يخرجها إلى الجبل لأنها تساوي مبلغاً ضخماً ، وقد يَلْحَق بها أذى ، وربما نقلتها أمُّها إلى مكان آخر ، تانيس غاموثو يُدعى الشيطان ، لأنه الشيطان بعينه : بنكاته التي يُطلقها خيراً وأسرع من أي شخص آخر في البلد ، زوج تانيس تدعى روسا ، هي بنت أوتيلو روكون ، ثيرولاس الجمركي الذي طُرد من بيت بروتشا لأنه بصق في وجه الأعمى غودنثيو ، ثيرولاس كان يخشى صهره خشية كبرى لأنه يعلم بأنه سيفسخ فمه ذات يوم .

ـ لِمَ لا تشتبك مع تانيس ، يا جمركيَ الوسخ ؟ لِمَ لا تجرؤ على مواجهة رجل يستطيع أن ينظر إليك متحدِّياً ، يا تعيس ؟

بيريلّو يعجبه جداً أن يستحمَ عارياً في بركة طاحونة لوثيو مورو ، ويغوص أحياناً مع المغفلة بنت مرتينيا .

ـ امتنعي عن السباحة يا فتاة ، فسوف تغرقين!

عُثِر على لوثيو مورو ذات صباح مشؤوم ، مقتولاً في طريق كسمونينيو ، فالألم يُوزَّع دون بخل ، ذلك بأن العالم يفيض بالألم ، دَفَنَتِ الطحانَ كاتوكسا بنته المغفَلةُ بنت مرتينيا بدموع غزيرة .

ـ كان رجلاً صالحاً جداً ، وما كان يضرب أحداً بالحجارة ، وكان صاحبَ الماء وله زهورُ الأرض كلُها ، والقصب على ضفاف النهر أيضاً ، وكانت السلال تخرج من بين يديه جيدة الصنع ، ومتينة وجميلة ، أنا أعرف من قتله ، ولا بدّ لي من أن أراه ذات يوم مقتولاً .

روسا مُهملة جداً وتترك أبناءَها متّسخين يسيل مخاطهم ، وكان تانيس يعامل أبناءه بذات الإهمال . والوسخ عادة من العادات .

ـ بكلابي تستطيع مواجهة ما تشاء ، أن تواجه أسداً أو دبّاً أو فهداً ، أو أي كائن ، كلابي لا تخشى شيئاً ، لأنها قادرة دائماً ، فالقوة تسري في عروقها .

تانيس غاموثو أقوى رجل في المنطقة كلها ، يستطيع أن يشلّ حركة حصان بيده ، أو يصرعَه بلكمة يوجهها إلى عنقه أو لَبّانه فيقطع مجرى الدم ، وكانت قوتّه تثير فيه الضحك .

لا تريد مارتا البرتغالية ، ولا أنونثياثيون سبديلّه ، ولا أية امرأة أخرى في بيت بروتشا لقاء أوتيلو ، أو ثيرولاس .

ـ أفضل الموت جوعاً ومن الجذام ، ولا أسعفه أو أنظر إلى وجهه .

لدى تانيس كلاب ماشية أيضاً . وهي ذكيّة كالفئران ، نشيطة كالحريش ، لكنها كلاب لا يُعتَدُّ بها ، ولا يُطلق عليها أي اسم ، وليست جديرةً بأن يُتعب المرء نفسه بها ، لأنها لا تساوي شيئاً ، فهي تولد وتنمو وتموت دون إزعاج . مهارتها تتجلّى في توجيه الماشية التي أثار كلبُ الراعي الاضطرابَ في صفوفها . روسا مكبّة على اليانسون ، وكل امرئ له نقائصه ، وكل امرئ يرعى نقائصَه ويكلؤها كيلا تموت ، تانيس غاموثو لا يلسعه القُرّاص ولا الأفاعي ولا العقارب .

ـ ألأنَ جلده قاسٍ جداً ؟

ـ لا! وإنما لا يمكّنها من نفسه ، عمك دون كلوديو مونتنيغرو لا يسمح لها بأن تلسعه ، ولا يشعر بالألم ، هذه عادة تُمتلك أو لا تمتلك ،

لما علم أن هناك من يسعى للنيل منه ، أحاط البيتَ بفخاخ تُنصب للذئاب ، نصب منها سبعة على الأقل وانتظر ، وما لبث أن وقع في أحدها القذرُ وينثلاسو كَلْدْرَاغا وأبطأ عمك ثلاثة أيام حتى فكّ أسره ، وقد تكشف اللحمُ الحيّ عن عقبه وبان العظم ، فهرب الآخرون كالأرانب ، وكفّوا يدهم عنه وسكتوا .

ـ كالأموات ؟

ـ نعم ، يا سيدي ، كالأموات .

سُرِّح ريموندو كسندولفس من مشفى نانكلاريس ديؤوكا ، فلا ينبغي له أن يمكث فيه مدى الحياة ، وكذلك سرح إيغناثيو أرناراتشه أولاتِه ، بيتشيشي الذي صار أعرج ، لكنه حي ومسرور ، ولا يمكن القول ذاته عن تشومين غَلْبرَا لارَوّونا ، نعم ، ظل هذا الأخير على قيد الحياة ، لكنه مقطوع اليدين وأعمى .

الزمن يمضي ، والاحتفالات التذكارية والنفاق والرياء أيضاً ، كلما احتللنا ــ نحن معشر الوطنيين ــ مدينةً ، اندفع ناس المؤخّرة إلى الشوارع للاحتفال بذلك ، وقد بقيت مدن قليلة لم تُحتلّ ، والأرجح أن هذه الحربَ شارفت على نهايتها ، في معركة ألفامْبْرَا يسقط الجنود صرعى كالذباب ، أدريان إستبِث كورتوبِه ، أو تبيرون مات في جبهة مدريد ، فقد جعله الرشّاش كالغربال ، نحن ـ أعني الأحياء الباقين بعد الحروب كالحرب البُوْنية وحرب البوير ، والحروب الأوربية ، وحرب مليلة والحرب الأهلية لأن هذه الحرب حرب أهلية ـ نحمل في قلوبنا سجّلاً بالوفيات ونتذكره كل صباح بقشعريرة ووخزة ضمير ، ثم ننظر ــ نحن الإسبان ـ إلى أنفسنا في مرآة إيسابيلا وفرناندو ، المصقولة ، دولورينياس مونتثيلو ترسميل ، صُغرى القبّرات السبع

شُفيت من جراحة الزائدة الدودية شفاء كاملاً ، والآن ، تروق للمرء رؤيتها سليمة كتفاحة ، شُتّت شملُ الشبيبة ، وصار ضابط الاحتياط جثّة هامدة ، والأحياء الباقون يعزّون أنفسهم بأن نساء كثيرة سيكنّ من نصيب الفرد الواحد ، استرداد ترويل ، آغيرّه ، ولا أعرف كنيتّه ، مات في المشفى في لوغرونيو على السرير المجاور ، من إصابة أثناء الانسحاب من ترويل ، فاطمة المغربية في بيت فريرينيا تتذكر صديقها سالمَ بن فراج ، وهو مغربيّ خلاسيّ ذو شاربين ، رفض أن تُقطع ساقُه لأنه كان يفضّل الموتَ على البتر ، وحسناً فعل ، على الأرجح ، إيغناثيو آروخوثيد خطيب كلاريتا منثنيدو قُتل في بَلْتشيته ساعة وصوله ، قُتل دون رغبة في الفرار من الموت ، أبناؤنا الفارّون من المنطقة الحمراء ، ولم يجدوا مأوى لهم في المدن ، يستطيعون العثور على شقق بأسعار معقولة في غليشية ، أُغرق الطرّاد بلياريس ، كارميلو مِنْدِث زوجُ خيورخينا الثاني قُتل في جبهة أوبييدو من طلقة أصابته في صدغه ، شيء يشبه طعن الثور في نقرته ، ذات ليلة قارسة ، قالت بسيليسيا المغفلة وعاهرة العواهر في غليشية ، لخبييريتو بِرْتيغا الذي كان شبه مخنّث ، نحن ـ معشر النساء ـ أحسن خَلْقا منكم أنتم الرجال ، ألا تخجل من حملك خصيتين متدلّيتين ؟ فأجابها خبييريتو بِرْتيغا : ليس الذنب ذنبي ، وفوق ذلك ، أنت امرأة وقحة ، ولو كنت وطنية لاتّبعْتِ العاداتِ السليمةَ ، ولبست كما يقضي الدين ، فتأدّبي يا امرأة! استرداد بلتشيته ، بربيتو ، أوكرنيرو تسكون ، ابن دون بربيتو كرنيرو إيِاماريث ، التاجر الليوني الثري الذي أوصى بأن تؤول مجموعاتُ مرواحه وطوابعه وعملاته الذهبية إلى بروتشا ، قُتل في جبال آلكوبييره ، أصيب في ساقه ولم تكن الإصابة خطرة ، وإنما أُبطئ جداً في نقله إلى المشفى ، فنزف دمه كله ، بيلار لامانيا وجهها منقوش بآثارالجدري حتى يسبّبَ لها خجلاً ، كلا! بل على العكس من ذلك ، إنْ خجل أحد ، يصبح

الناس كلهم خجلى ، يجب على الصغار ذكوراً وإناثاً ، أن يرتدوا عند السباحة بزّة استحمام كاملة منذ العام الثاني من أعمارهم ، فالأخلاق يجب أن تولد مع الفرد ، عبرنا الإيبرو ، فابيان سوتولو دوريكساس جندي الحرس المدني الذي يعزف على مزمار القربة ، قُتل أثناء استرداد ترويل ، أصيب برصاصة بين الحاجب والحاجب ، ماروخيتا مِنْدث ثامورية ضخمة الجسم وشقراء الشعر وغزيرة التعرق ، ويعجبها أن تلعب الورق منفردة وتشرب مياهاً غازية ، فتهرب من حين لآخر إلى حانة بيتانثوس وتشرب زجاجة مياه غازية ، سئم المونسنيور أوليِّتشيا من مطالبته بإيقاف نزيف الدم ، الاستيلاء على ليريدا ، بلاغير ، تريمب ، تورتوسا ، ووادي آران ، إيسيدرو سواريث منديث الذي كان يسلب الموتى في مشفى لوغرونيو ، قُتل في جبهة بوريانا ، لما كان يستحمّ في البحر وكان يُطلق عليه الرصاص كلّما رفع رأسه فمات غريقاً ، أترى يا سيدي ، إلى ذلك السيد الذي يضع ربطة عنق حريرية ونظارة ؟ أتراه جيداً ؟ إذاً ، هو عمي لورِنْثو ، وهو قادر على الضراط مرة أو مرتين أو ثلاث مرات أو خمساً ، أو حسبما يشاء ، أيتها المرأة الإسبانية ، لا ينبغي لزينتك ولا للبسك أن يكونا على الطريقة القذرة لفرنسا اليهودية الخائنة ، فُرضت قواعدُ مضادة للإسراف في المآدب ، والعواهر المغفلات لا يخرجن أبداً إلا بثيابٍ رثّة ، وقد طُبِّق ذلك عليهن بإحكام ، خواكينا عاهرة مغفلة ، لا عليك إلا أن تراها لابسةً ثياباً مرقّعة ، ولا يفيدها في شيء أن يكون ثدياها كالبطيخ الحلو ، ولا وسيلة أخرى للعواهر المغفلات ، فليمتْن من الغيظ! أيها الإسباني ، تذكّرْ دائماً ، أن طبق الطعام الوحيد ليس اختراعاً ألمانياً ، وإنما هو إرْث إسباني قديم ، الاستيلاء على كستيّون وبوريانا ، عريف المشاة بسكوالينو آنتميل كتشيتسو قُتل في بغرينوس ، أما الشوكولا والتبغ التي ظلّت ترسلها إليه بسيليسا راعيتُه المغفلة ، فسوف يأكلها ويدخنه أحد ما ، ولا تبال ، أما

الضياع فلا يضيع شيء هنا ، إينيَسينيا آلونترا أصابها مغربي بمرض السيلان ، بهذا المرض لا يموت أحد ، لكنه يسبّب لها ضيقاً كبيراً ، السيدات المؤمنات بالقضايا الوطنية يلبسْن طرحاتٍ إسبانية ، الهجوم على إستراما دورا والاستيلاء على بينيتو وبيانويبا ديلاسيرينا ، وعلى كستويرا ، أوربا نو رندين فرناندس الشقيَ الأحول والجندي الآن في قسم الإمداد والتموين ، قُتل في خَرَاما ، كان ينصب فِخاخاً للأرانب ، تلك كانت عادته ، لكنّ أحدها أطبق عليه وصيّد ، لِمَ لا ندخّن «غليون كيف»[1] ؟ لقد سئمت هذه الحياة البائسة وتلقّي التعليمات ، يحظر تجوّل النساء الرقيقات في الطرقات العامة وعرض أنفسهن للتجارة الجسدية ، الحمر يعبرون نهر الإيبرو ، وهنا ستجري معركة دامية ، ريكاردو باثكيث بيلارينيو ، خطيب الخالة خيسوسا ، وهو زعم ، قُتل أثناء الاستيلاء على سنتندير ، لا ، لم يُقتل أثناء معركة سنتندير ، وإنما في ترويل في الأول من كانون الثاني ١٩٣٨ ، وفي هذ اليوم نفسِه قُتل أيضاً المقدم خوان بارخا كيروغا ، قائد فرقة الرايات الغليشية ، أُصيب ريكاردو باثكيث بطلقة في قلبه ـ حسن! هذا ما يقال ، مارتا البرتغالية تخبّئ ثلاث ماسات وثلاث ياقوتات في علبة صغيرة من تنك لا تفترق عنها أبداً ، وهذا لا يعلمه أحد أيضاً ، حاكم بلد الوليد المدني ، لا ينصح بحضور عمليات الإعدام : في هذه الإيام التي تقوم خلالها العدالةُ العسكرية بالمَهمّة الحزينة في تنفيذ الأحكام الصادرة ، لاحظنا حضوراً غير معتاد إلى هذا المكان الذي تنفّذ فيه هذه الأحكام ، ورأينا بين الحضور أطفالاً في عمر الورود ، وفتياتٍ شابّات وحتى بعض السيدات... ، حضور هؤلاء الأشخاص ، غير مفيد لهم ، الخ... ، الاستيلاء على ترّغونة ، وبرشلونة وخيرونة ، فيلمون توثيدو

---

(١) إشارة إلى ديوان الشاعر والكاتب والقاص والمسرحي والروائي رامون ديل ناتيه إبكلان (١٨٦٦- ١٩٣٦) ـ المترجم ـ

روثبالِث ، الكاتب بالعدل المزيّف الذي جعل جد سعيدة ، تريستيا ديل نينيو خيسوس مِنْغيث غَنْدريلا ، الزوجَ الهارب من البيطري ميداردو كونغوس ، قُتل في جبهة بَلْسِكْيو ، كان يتغوّط لما أطلق عليه أحدُهم لجهله به ، أو لِنَقُلْ دون سوء نيّة ، فأصابه في رأسه ، سبستيانا! مُرْني ، دون روملو! قفي بثيابك الداخلية على الشرفة إلى أن تصابي بالرشح ، أيتها المرأة الإسبانية ، كلُّ غرزة من صنّارتك الصّناع نصر مؤكّد على البرد الذي يجلد الجنود الذين يبنون الوطن بتضحياتهم . الاستيلاء على مدريد في الأول من نيسان ١٩٣٩ ، في هذا اليوم ، أصبح الجيش الأحمر مأسوراً ومجرّداً من السلاح ، الخ... ، لقد انتهت الحرب .

تمطر كما أمطرت كل الحياة ، أنا لا أتذكّر مطراً آخر ، ولا لوناً آخر ، ولا صمتاً آخر ، تمطر ببطء ورِفق ورتابة ، تمطر دون بداية ولا نهاية ، يقال إن الأمواه تعود دائماً إلى مجاريها ، وهذا ليس صحيحاً ، أسمع الشحرور يغني من جديد ، لكنّ غناءه مختلف ، فهو ليس رقيقاً ولا متناغماً تمام الرِقّة والتناغم ، بل فيه شيء من الحزن والبُحّة ، يبدو أنه خارجٌ من حلق عصفور شبحي ، عصفور مريض في الروح وفي الذاكرة ، ربما كان الشحرور هَرِماً وخائب الأمل ، هناك شيء مختلف في الهواء ، ذلك بأن بعض الرجال كفّوا الآن عن التنفس ، في هذه الجبال تدحرجت رؤوس ، وحدثت أشكال من الخسة ، لكن ، جرت دموع أيضاً ، دموع غزار ، الأرض لها لونُ السماء نفسُه ، ولها ذات المادة النبيلة الشائقة ، حرف الجبل يمّحي خلف المطر الصامت ، واللونان الأخضر الناعم والأشهب الرمادي الرخو يصلحان أن يكونا غطاء للثعالة وللذئب ، لم تخنق الحربُ الذئبَ ، لم تقضِ على الذئب ، لم تقتل الذئب ، بل كانت حرب الإنسان للإنسان ، وصورته البهيجة ، والآن ، وجه الإنسان حزين ويعلوه بعض الخجل ، لا أرى كل شيء بوضوح ، لكنني

أرى أن الحرب خَسِرَها الإنسان ، هذا الحيوان المتألِّم من تعاسته ، هذا الحيوان الحزين لا يتّعظ ، فإن طلب أحد ما السلامَ والرأفة والعفو ، فلا يلتفت إليه أحد ، لأن النصر يُسكر صاحبَه ويسمِّمُه أيضاً ، النصر ينتهي بتشويش فكر المنتصر ، ويخدّره ، ريموندو كسندولفس ساء حاله بعض السوء حتى قالت له الآنسة رامونا :

ـ ستستعيد قواك سريعاً ، لا شك في ذلك ، المهم أنك رجعت حياً في النهاية .

إذا ساد صمت ، يقول الإسبان : مرّ ملاك ، والإنكليز : وُلد فقير .

أبطأ ريموندو كسندولفس لحظات معدودات حتى أجاب :

ـ أنت طيبة جداً معي ، يا مونتشا ، أتؤمنين بأني حيّ كما كنت في السابق ، حي تمام الحياة ؟

ـ نعم ، يا ريموندو ، حي حقَّ الحياة ، حق الحياة ، وسوف تتحقق من ذلك خلال أيام قلائل .

أهدى روبين لبوثان إلى ريموندو كسندولفس زجاجة ويسكي .

ـ على الأرجح ، هي الزجاجة الوحيدة المتوفِّرة في غليشية كلها ، أهداها إليّ منذ قليل ، الميجور بنثياس ديبورتوغال ، احفظها جيداً .

كان من الخطأ تكليف الجهاز القضائي بتصفية الحسابات ، فلربما قام بذلك خيراً منه سلاح المشاة الأسرع والأرحم ، حتى لو جرى بعض الخطأ فلا خطر فيه . نقرأ في الإنيادة أن الآلهة تخطئ الهدف أيضاً ، ولو لحق بعض الأذى ببعض الناس فليس مهماً ، ليس الخطر في العنف الغامض الذي يقوم به المتهوّر العاهر ، أو السكّير الذي يعيش الحياة بأناقة وازدراء ، وإنما الخطر في الإداريّ الجبان ، في الموظّف الرعديد الذي يستطيع كسب هذه الحياة بحرص شديد فقط ، هو نموذج منفّر ومقزّز ، السوء في العنف البارد

المستمر والتفاهة التي تحجب تدفّقَ الحياة الأَلِق ، هذا ليس العدل ، وإنما هو قناع كرنفال الخرس ، عثّ الأقبية أسوأ من بهيمة الجبل وأنتن منها وأشد تطلّعاً للثأر ، حينئذ ، يضلّ الإنسان وينحرف ويسقط ، فلا يضجر ولا يقتل نفسه ، وإنما يُملأ خوفاً وينقبض ويضمحلّ ، ويقوم بأكثر الأمور مرارة وغباء ويغذي الحماقة وجمود القوانين ، وما عليكم إلا أن تطالعوا الصحف لتعلموا ، هذا ليس عدلاً ولا مفرحاً ، فالعدالة ما تزال حلماً قليل النضج جداً ، والبهجة حوّلها الابتذال إلى زهرة ذاوية حزينة : في الساعة السادسة من صباح أمس ، تمّ تنفيذ ثلاثة وسبعين حكماً بالإعدام صادرة عن المجلس الحربي المنعقد يوم الخميس ، الخ ، الخ...

ـ كان ذلك مثل زلزال أرضي ، يا مونتشا ، وأنا ما زلت أرى الأمور غائمة ، على الأرجح سأُبطئ طويلاً حتى أراها بوضوح .

ـ لا تفكر في ذلك ، ولا تفتح زجاجة الويسكي ، احتفظ بها واشربها وحيداً ، سأعدّ لك مزيجاً نصفياً ، ولك ، يا روبين بالطبع .

ريموندو كسندولفس يحبّ المزيج النصفي المكوّن من البرموث الأحمر والجِنّ بمقدارين متساويين ، يُضاف إليهما بضع قطرات من الجعّة المرّة ، ووريقة من ستّ الحسن ، وثمرة كرز أسود .

ـ لكنني أحتاج إلى الجليد .

ـ لا تهتمّي ، سنبرّده بالإرادة الطيبة .

نسي ريموندو كسندولفس بالمزيج النصفي همومه السود .

ـ كنت معتاداً جداً على تناول مزيج نصفي في مقهى أميركا دنوتيكو في لاكورونيا . مقهى أمريكا كان في شارع ريال حسب دخولك إليه من

الجهة اليسرى ، وكان لا بد من الاهتمام بدون أوسكار ، كان من عادتي أن أرتاده مع أبناء عمي ، وأحياناً مع أُمْبَرِيتو ، ما أعظم أمبريتو لما كانت صبيّة! لا مندوحة لي من العودة إلى لاكورونيا لرؤيتها ، يُحتمل أنها صارت مخطوبة ، على الأرجح صار لها خطيب .

بينيثيا لا تعرف القراءة ولا الكتابة ، وما كانت تحتاج إليهما ، وأنا لست واثقاً بأن القراءة والكتابة يمكن أن تصلحا لشيء ، بينثيا له حلمتان كحبتي كستناء ، بمرور الوقت ، وقت غير طويل ، عادت البسمة إلى وجهها .

- بينيثيا!

- مرني ، دون ريموندينيو!

- اذهبي إلى الدكّان واجلبي لي كبريتاً وورقاً للكتابة .

- وطوابع ؟

- وطوابع أيضاً . اجلبي لي منها ثلاثة أو أربعة .

- أتريدها بصورة إيسابيل الكاثوليكية ، أم بصورة القائد فرانكو ؟

ابتسم ريموندو كسندولفس .

- اجلبي ما يتوفّر منها ، ما يتوفر منها!

هذا العام لم يذهب خلق كبير إلى مهرجان سيدتنا دوكوربيينيو في سانتا بائيّا الواقعة فيما وراء لالين ، هذا عام أموات جَهَلة ، وأسرى مخبَلين ، ومرتحلين وبوصلةُ قلوبهم ممزّقة ، هذا العام ، قلّ عدد الذين ركب رؤوسَهم الشيطانُ وزاد عدد الحرس المدني ، ذلك بأن العادات تغيّرت ، كذلك قل عدد المحتفلين وعازفي مزمار القربة .

ـ أيمكن عزف مزمار القربة ؟

ـ في النهار ، نعم .

تحت بلّوطة وارفة الظلال ، تضرب بائعة مسابح فتىً بريئاً بالمسبحة السحرية كيما يتقيّأ الشيطان من جوفه .

ـ يا خنزير ، ما تريد بدخولك ياشيطان جوف الصبي! اخرج منه! إبليسُ ، يا شيطان ، يا تيس ، اخرج خارج جسم هذا الصغير!

ريموندو كسندولفس يشعر بالضجر ويرى بعض الغرابة والاصطناع في كل شيء ، بالطبع ، هو يضجر .

ـ أنرحل ، يا مونتشا ؟ في غليشية ، كلُّ شيء فقد دوره حتى السحر ، لِمَ لمْ نولد منذ مائة عام قبل اليوم ، أو مائة عام بعده ؟

في طريق العودة ، كان ريموندو كسندولفس صامتاً وحزيناً كل الوقت تقريباً ، كانا يركبان سيارة إيسَيكس قديمة ابتاعتها رامونا من أحد البرتغاليين ، أما البكارد السوداء الرسمية ، والإيسوتا فرتشيني البيضاء الأنيقة ، فقد صُودرتا عند بدء الحرب ولم ترهما مرة أخرى أبداً ، لا شك في أن أحداً ما انتفع بهما .

ـ فيما تفكر ؟

ـ لا أفكر في أي شيء . كما تَرَيْن ، تدور في ذهني فكرة لا تعجبني .

تمطر بأدب ، وحب وصفاء على الحقل الأخضر المقفر ، تمطر فوق الجاودار والذرة ، على الأرجح تمطر دون أدب رفيع ، ودون حبّ مخلص ، ودون صفاء هادئ ورزين ، يحتمل أنها تمطر صَبّاً وباندفاع عاصف ، فقد سُرِق وجهُ المطر أيضاً ، استأنف ريموندو كسندولفس الجالس إلى جانب الآنسة رامونا الكلام ، ربما دون رغبة منه

ـ إسبانيا صارت جثةً ، يا مونتشا ، لا أريد التفكير في ذلك ، لكن ، يُخيفني أن تكون جثة ، ما أجهله هو كم سنستغرق من الوقت كيما ندفنَها ، أسأل الله أن أكون مخطئاً ، أسأل الله ألا تكون ميتة ، وإنما مغشيٌّ عليها ، ويمكنها أن تستيقظ! إسبانيا بلد جميل ، يا مونتشا ، لكنه مخفق ، وأعلم أن هذ الكلام لا يمكن قوله ، لكن ما الحيلة! لم يبقَ لدينا ـ معشر الإسبان ـ قوى كيما نعيش ، علينا أن نبذلَ جهوداً جبّارة ونُنفقَ طاقاتٍ هائلة ، كيما نتحاشى أن يقتلنا الإسبان الآخرون .

ـ دعيني في البيت ، يا مونتشا ، أنا مرهق ، وسأبيت دون عشاء .

ـ كما تشاء!

ما تزال الحياة والموت يسيران جنباً إلى جنب ، معلوم أن ذلك قانون الرب ، بعضهم يسميه عطالة ، والبعض الآخر لا يرى شيئاً يسير ، لا الحياة ولا الموت .

ـ أنت شاحبة قليلاً ، يا نونثينيا ، لقد تغيّر لون وجهك .

ـ نعم ، منذ ثلاثة أيام أو أربعة وأنا أنام نوماً مضطرباً ، لا أدري ما يجري لي ، أرجح أن عادتي الشهرية انقلبت .

يعزف غودنثيو على الأكورديون دون حماس ، فأصوات الغرباء لا يمكن أن تنقل الدفءَ إلى القلوب ، مارتا البرتغالية امرأة محترمة ومسلّية ، وتعرف عملها حق المعرفة .

ـ أنا أعرف ما أصنع ، وأبذل إرادتي الطيبة ، أنا يُدفع لي كيما أمنح اللذة ، حتى لا أسأل شيئاً .

غودنثيو يعزف فالس أسطورة غابات فيينا لشتروواس ، لحن جد

رومانتيكي ورقيق ، وأنيق للغاية ، الرقيب كليمِنْتِه بالومارس العامل في تموين الجيش ، يعجبه الرفَثُ إلى النساء ومداعستُهن . الحقيقة أن ذلك يعجبنا جميعاً ، المسألة هي أن تدفع جيداً ، أو تجدَ من تمكّنُك من نفسها .

ـ أنا يُدفع لي كيما أجلب اللذة ، ما دمت تدفع ، فأنت تساوي كثيراً ، أتفهم ؟ لكن ، إذا كنت تثير أعصابي ، فإني أَخْرَأ على أمك التي ولدتك ، وإذا جعلتني أبكي ، أقتلك ، كما الله موجود ، أقتلك!

ـ سأهدي إليكِ ياقوتةً ولؤلؤة ، يا مارتا ، الياقوتة ، مثل قطرة دم ، واللؤلؤة دمعة ، أو هي كالدمعة .

ـ لا بأس ، إذاً!

بورا لابرَوتشا تفوح منها رائحة الثوم ، ليس ذلك حبّاً بالثوم وإنما بسبب الضرورة والحاجة ، بورا لابروتشا تعاني من ارتفاع ضغط الدم وتفطر على أسنان من الثوم بالزيت كيما تخفّض منه ، الثوم علاج جيد للآفات ، وهو صالح أيضاً للوقاية من الوطاويط الماصّة للدماء ، وهو يطرد ديدان الأرض خارج البيت ، لكنّ العيب في الثوم الرائحةُ التي يخلّفها في الفم . دون آنخيل آليغريّا المختصّ بتقويم المفاصل وجراحة ترقيع التشوهات ، يجمع شعارات المعونة الاجتماعية : ميغيل ديثربانتس سآبيدرا ، أمير العباقرة الإسبان ، سلاح المشاة الإسباني جندي يحمل بندقية من القرن ١٨ ، مايوركا اللؤلؤة المضيئة في الأرخبيل الضاحك ، دون آنخيل يعاني من التهاب الخصية وقد صار كيس الصّفَن بحجم رأس من الكرنب ، نساء برّوتشا يهربن منه وكأنه الكوليرا القاتلة .

ـ كلا! كلا! ليضطجعْ مع زوجه إن شاء ، وإذا كان لا يعجبه ذلك ، فليجلس على الخازوق وليصطبر ، لا بد لنا جميعاً من الخوزقة والاصطبار

مدى الحياة ، دون آنخيل ذو أعضاء عفنة ولا أريد أن ينكبني إلى الأبد ، فأنا أعيش من حسن صحتي .

ماميِده بدريرا حُكم عليه بالإعدام ، لأنه قُبض عليه حاملاً السلاحَ في الجبل ، وهذه جريمة خطيرة جداً ، وقفت أمه عند منعطف طريق كان سيمر فيه فرانكو وألقت إليه بورقة تطلب منه فيها العفو عن ابنها ، ظنّها عناصر المرافقة قنبلةً ، فقتلوا المرأة ، ولما قرأ فرانكو الورقة عفا عنه ، وأبدل حكم الإعدام بالسجن لمدة ثلاثين عاماً ، ماميده بدريرا هرب أثناء سوقه إلى السجن ، وهو اليوم مختبئ في بيت أُكسوركسو لاميرو ، لا يعرف أحد هذا السرّ ، لكن ، نعم ، امرأته تعرف وهي امرأة تامة الخلق وموضع ثقة ، ماميده بدريرا يعيش في قعر بئر جافّة ، لديه فيها حشيّة صغيرة وغطاء ، أما الطعام فيصله بحبل ينزلق على بَكَرَة ويصعد كل ثلاثة أيام أو أربعة ويخرج ليروض ساقيه ويغتسل قليلاً .

ـ من جهتي ، تستطيع البقاء المدة التي تشاؤها ، وكذلك من جهة كارمن أيضاً . هذا الوضع لن يدوم مدى الحياة .

ـ لا أدري ما أقول لك ، الأرجح أن يدوم أكثر مما حسبناه جميعاً .

طاف في هذه الجبال منذ سنين بعيدة ، الفتى لاثرو كودسال الذي كان شعره كالفلفل ونظراته صِنْوُ مياه الينابيع ، لاثرو كودسال قتله مغاربة الريف ، ولا يتذكّره اليومَ أحد .

ـ حتى ولا واحدة من الفتيات اللاتي حبلن منه ؟

ـ ولا واحدة .

سكت الناس عن الأمور ، ولا شيء هو ذاته أبداً ، والآن أقل من أي وقت

آخر ، ولا شيء يجري أيضاً في مجارٍ متماثلة ، بعضُ التيوس الذين كانوا يرتادون بيت لابروتشا ، أصبحوا لا يلهثون ولا يتمتّعون ، أصبحوا لا يتنفسّون ولا يمشون لأنهم أموات وتحت طبقات الثرى ، دون تيودوسيو زوج دونيا خيما مات بالقلب ، أعجب ما يعجبه بين العواهر ، كانت بيسي الحانية واللذيذة دائماً ، الضُّبُع دون خيسوس منثنيدو مات موبوءاً ومتعفّناً ، نساء بروتشا كنّ يهربن منه ، الأمر الذي كان يكسبهنّ ثمانية ريالات أو عشرة بقشيشاً ، بيينبينيدو غونثالث أوميثيفو ، كان قذارة خالصة ، وقد طُعن طعنتين عند البوابة ، طعنة في حلقه والأخرى في صدره ، رِسورّيكثيون بينيدو تُسمّى القبّرة لودولا لأنها تبدو كمن يوشك أن يطير ، لودولا انتابها ذعرٌ كبير لما رأته جثةً هامدة ، لودولا كانت أول من رأى جثة ميثيفو ، ولم يبكِه أحد في بيت لابروتشا ، هذا الرجل كان يحمل البَغْضاء مطبوعة على وجهه ، مارتا البرتغالية تعرف أن تقرأ ما في داخل الموتى ، وكان لمارتا البرتغالية شهرةٌ حقة بأنها طيبة جداً وشبقة بحكمة ، وحسب الأقاويل ، تصرّ عجيزتها كالبطيخ الأحمر ، ألاحِظ أنها ليست متفرّدة في ذلك وإنما يُحكى الشيء ذاته عن أخريات ، غودنثيو يعزف «باسودوبله» مرحاً خاصاً بمصارعة الثيران : مارثيال ، أنت الأعظم ، ريكاردو باسكيث بيلارينيو خطيب الخالة خيسوسا ، أو هذا ما نقوله جميعاً ، لكنه غير صحيح ، كان يقصد بيت بروتشا ، ليس كثيراً ، وإنما إطفاءً لنار الشبق ، أحياناً لا يستطيع المرء حتى أن يسير ، ريكاردو باسكيث بيلارينيو كان يرضى بأية امرأة ، كان نَهِمَاً ، وكل ما يطلبه أن يسمحْن له ، لوثيو مورو كان يمرّ ببيت لا بروتشا في المرات القليلة التي زار فيها أورينسه ، لوثيو مورو كان مُعجَبَاً بالنساء التدياوات واليانسون الحلو والتانغو .

ـ هذا العاهر غودنثيو يعزف على الأكورديون بشكل حسن جداً ، لطالما آمنت بذلك ، هو يعزف عليه خيراً من أي شخص آخر .

ظلت كلاريتا دون أب ، دُونَ «دونْ» خيسوس ، ودونَ خطيبٍ أيضاً ، دونَ المنكوب إيغناثيو آروخوثِيْد الذي لم يستطع تحمّل التقزّز وانقاد إلى الموت في الحرب ، الأرجح أنه جعل من نفسه غرضاً للقتل ، فالسفّاحون يهيمنون على حياة الآخرين ويقتلونهم بفرح سامّ للغاية ، وهؤلاء التعساء يُقْتَلون ، ويسمحون بأن يُقتلوا بحزن ، بحزن خفيّ مخجل ، دون خيسوس وصهره المُخبِط كانا يقصدان في بعض الأحيان ، بيت بروتشا أيضاً ، لأن الناس تنشد الترفيه عن النفس وتبحث عنه ، هذا واضح ، لكن يبدو لي أن الشخص الوحيد الذي لم يزر بيت لابروتشا هو المدفعي كاميلو ، ولا أدري ما السبب ، وأقول قولي هذا لأنه لمّا يمتْ ، وإنما هو يقطن على مسافة بعيدة من هذه الديار ، ويكاد لا يأتي أورينسه أبداً .

ـ أهو أكثر تردّداً على بونتبيدره ؟

ـ نعم ، وعلى سنتياغو ، خاصة سنتياغو ، سكان بَدْرون نصف سنتياغيّين .

الآخرون الذين سبق أنْ ذُكروا ، صاروا أمواتاً وتحت الثرى ، نسأل الله لهم المغفرة ، وأغلبهم لم يُذكر لأن الأشياء تريد أن تُختتم ، وليس كل الموتى كانوا من زُبُن لابروتشا ، بعضهم لم يكن كذلك ، ففي أورينسه بيوتُ دعارة أخر ، يسميها الأب سنتستبان في مواعظه الملتهبة : بيوت الفسق ، والعهر والمواخير .

ـ لها مائة اسم على الأقل ، لكنّ هذا الشبح لا يعرفها .

معظم الناس ينطوون في داخلهم على الغدر ، وليس لذلك أهمية قصوى ، لأن الغدر خاصيّة من خصائص البشر ، خاصية معروفة معرفة كافية ، لما هبط مستوى حمض البول لدى دون كاستو بورغو سانشيت ـ بوينته ،

هبطت عدوانيّتُه أيضاً ، من قبل ما كان يطيق وجودَه أحد ، وكانت نساء بيت بروتشا يخشينه خشية حقيقية ، وبروتشا نفسها ، على جرأتها ، ما كانت تتجاسر عليه ، وكان من الخير لهن أن يدعْنَه ينصرف دون أن يدفع أجراً ، دون كاستو دهسته ذات ليلة سيارة ، لم تقتله وإنما قصمت ساقيه ، وفوق ذلك ، لم يُسعفه السائق الذي يقول عنه دون كاستو إنه كان إيطالياً ، ذلك أن كل سائقي السيارات كانوا طلياناً ، وربك أعلم! التقطه الحارس الليلي واستطاع أن ينقله جراً تقريباً حتى مركز الإسعاف ؛ عُلم أن دون كاستو لفرط تأثّره ، خرِئ في بنطاله .

ـ اسمعي ، يا دونيا بورا ، أتتذكرين ذلك الملازم الصغير ذا الشاربين المسمى فيرمين بِندون باث من مَلَقَة ؟ نعم ، يا امرأة ، كان يقضي وقته بالثرثرة في الصالون بدلاً من أن يُشغل نفسه بواحدة توفيراً للمال .

ـ آه! نعم ، أتذكره ، ماذا جرى له ؟

ـ لا شيء ، وإنما قُتل ليلاً بضربه بزجاجة ، ضُرب بزجاجة مياه غازية من الحجم الكبير ، وتُرِك مسطوحاً ، بالمعنى الكامل للمسطوح .

ـ يا للمسكين! وأين جرى له ذلك ؟

ـ في وسط الشارع ، وهو خارج من بيت كابالّا تويرتا ، حَدَثَ هرج ومرج كبيران وتدخلت الشرطة العسكرية .

ـ رحمه الله!

قال ريموندو كسندولفس لروبين لبوثان كاسترو ديتيلا .

ـ من واجبك أن تدعوَ الأقارب باسم العم كاميلو ، أعتقد أن من الواجب دعوة آل موران بالطبع ، وآل غوكسينده أيضاً ، فلا بأس علينا لو كنا كثيرين

لأن الأمر خطير وينبغي لنا جميعاً أن نتكلّم ، وإلى أن نجتمع ، علينا التزام الصمت جميعاً ، مونتشا ستُخلي لنا بيتها الذي تتوفّر فيه خير الشروط للاجتماع .

دون أبريخيمو ، والد الآنسة رامونا ، كان صديقاً للطيارين الأكروباتيين المشهورين ، بِدْرِيْنس وغرنييه ، ولِفورستييه ولاكومب ، الذين كانوا يقومون بدورات في الفضاء ويعرضون طائراتهم ذات المصابيح الملوّنة في الليل ، كان ثمن التذاكر يتراوح بين ٢٥ إلى ٥٠ سنتيماً حسب المقعد ، وكانت السيدات يُقبلن على الفرجة أنيقاتٍ غاية الأناقة ، مرتديات قبّعاتٍ كبيرات من القش والتول ، كان ذلك منذ سنين وقبل أن تولد الآنسة رامونا .

ـ كلنا ـ آل موران ـ لنا وجه حصان ، ونحن ذوو أسنان مفلّجة ، أحياناً يكون الفَلَجُ بينها واضحاً ، هذا ما حكاه ذات مرة المدفعي كاميلو ، لنا أيضاً رائحةُ أعقاب السجائر ، ويعجبنا أن نحمل العصيّ في المهرجان والأعراس ، لكن هذا زعم غير صحيح ، هذه العلامات تُلاحظ بدرجة أقل عند آل غوكسينده ، بسبب كثرة الزواج المختلط فيهم ، وربّما كان الأمر كذلك ولا أنفيه ، فالعِرْق لا يخسر بالتصالب بل يربح ، لكنه يفقد السماتِ المميزةَ ، يجري للسلالة شيء مشابه ، إذ يذهب نقاؤها بين جَبْذ ونبذ ، وتقريب وتغريب ، ولعلك تفهمني . ليس كل آل موران ينحدرون من المارشال باردو ديثيلا ، وإن كان معظمهم ينحدر منه فعلاً ؛ مارشال لم تكن تعني حينئذ ، قائدَ جيوش ، وإنما المسؤولُ عن جياد الملك وإسطبلاتها . العم إيبليو موراني ذو مظهر حسن ، يلقب العم إيبليو بِكْسَابَرين لأنه جسيم ووحشي الطباع ، أكَسَابَرِيْن قلّما يغادر الجبل ، وعلى الغرباء لا يُلقي السلام ، عانى أكْسَابَرين خلال الحرب بعضَ الصعاب ، لكنه استطاع أن يتجاوزها بشكل جيد وبأمان .

ـ هذه الحرب خِصام بين موتى من الجوع ، لأن الرجال الجادّين لا يقتتلون لنزوة ، ولا لسبب غيرِ معقول ، هؤلاء المتخاصمون يشبهون الفرنسيين ، وما يصنعونه شبيه بتدريب الماعز ، ولا يخطر ببال أحد أن يدرِّب عنزاً إن لم يكن غجرياً .

أكْسابرين يحب الأكل والشرب والتدخين والنكاح والنزهة ، أكسابرين سيد ذو عادات تقليدية كريمة ، وهو في ذلك صنوُ العم كلاوديو مونتنيغرو .

ـ «أتريد أن تدافع عن الجنون بإطلاق النار ؟ حسن جداً! دافعْ عنه ، لكن ، أطلقِ الرصاص بنفسك ، ولا تأمرْ أحداً بإطلاقه عنك ، اصعدِ الجبل حاملاً بندقيّتك ومصطحباً زوجاً من البيض ، حينئذ تَرَ ، عند القتال يجبن هؤلاء الناس ، وسرعان ما تنقبض سررُهم ويأخذون بإبداء الأعذار والسؤال : كم الساعة الآن ؟»

مضت سبعون عاماً طويلة من عمر اكْسابرين ، وصار بحاجة إلى نظارة .

ـ هي مسألة عمر ، لما كنت شاباً ، كنت أرى خيراً من أي شخص آخر ، وإلى مدى أبعد منه ، لكنّ هذا الوضعَ لا يدوم مدى الحياة ، وإني على علم به ، ليس العيب في الاستعانة بالنظارة حين تصبح عجوزاً ، وإنما حين تكون لا تزال شاباً ، شبّان يضعون نظارات ، إمّا هم طلاب أو مخنّثون .

ـ لكن ، ما لك يا عمي ، إيبليتو ، أكلُّهم ؟

ـ حسن! تقريباً كلهم ، يمكن أن توجد استثناءات بينهم ، لا أنفي ذلك .

ماتت زوج أكْسابرين منذ أمد طويل ، منذ ما يزيد على نصف قرن ، زوج أكْسابرين كانت حسناء رقيقة ، وكانت تضع دائماً عقداً من اللؤلؤ على

عنقها ، وتلبس ثياباً حسنة ، لم يتزوج أكسابرين مرة أخرى ، وإن لم تنقصه الوسائل لذلك ، وإنما قضى حياته كالطائر الطنّان ، أريد هذه ، ولا أريد تلك ، لي من هذه ولد وأدفع نفقاتِ تعليمه حتى يصبح خورياً ، ولي من تلك بنت وسأفتتح لها حانة ، وهكذا دائماً . أوصى أكسابرين بصنع بلاطة من الرخام الأبيض من أجل ضريح زوجه ، وأمر بأن يُنقش عليها العبارة التالية : لأنك تُسمَّين ماريا ، باسم مريم البتول ، فسوف أشعر بالندم دائماً ، لأني لم أسمح بالتقاط صورة لك أبداً .

ـ أليس هذا شعراً ؟

ـ حسن! لكن اكسابرين لم يعرف الشعر قط .

كان أكسابرين يصنف البُغَضَاء إليه والمحتقرين عنده حسب التسلسل من الأعلى إلى الأسفل ، وهم : الخوارنة ، والعسكريون ، والطليان ، والجمركيّون وحفّارو القبور وقصار القامة والمتعتعون .

ـ والبرتغاليون ؟

ـ كلا! هؤلاء ليسوا كذلك .

سابينيانو سَغْرَمون روديث ، إضافة إلى أنه تعتاع ، كان يطلق نتفاً من البصاق عندالكلام ، سابينيانو كان مقزّزاً قضى عمره في وادي الدموع ، باصقاً على الناس جميعاً ، حتى فقدهم بنتف لعابه ، زوجه خوستينيتا ثِريسال روئيبوس قضت حياتها وهي تخونه حتى سئمت ذات يوم من المداراة والأقاويل فأبعدته عن طريقها ، وحجرت عليه في مشفى الأمراض العقلية ، وتقرّبت من قشتالي يدعى فيليبهِ آلبيول فورنير ، قشتالي من قلعة تشيثِفرت الذي كان يملك معملاً للوز المُلبَّس بالسكّر .

ـ وللفستق الحلبي والبندق والمُكَسّرات الأخرى أيضاً ؟

ـ وهو كذلك ، آلبيول ماكان يقتصر على تلبيس مادة واحدة ، وإنما كان يُلبِّس كلَّ ما يقع تحت يده .

خوستينيتا لم تكن تخون عشيقها ، ولو قُدِّم له الذهب والمال ، ولم تضع قروناً على رأس آلبيول بتاتاً ، بل راحت عرامتُها كلها مع سابنيانو .

ـ أرى ذلك غاية في الطهر!

خوستينيتا كانت بنت أخ المرحومة زوج اكسابرين ، وهي بالتالي تمتُّ إليه بصلة قربى ، كانت خوستينيتا تقلِّد زيَّ أهل المدنية ، وتلبس حذاء أحمر ذا كعب عال ، وكان الحذاء مشدوداً إلى عقبها برباط .

ـ ذلك لا قيمة له . المهم أن تظلّ ملتصقاً بالأرض ، ولا عليك أن تكون صينياً أو من مدينة ثيوداد ريال ، لكنْ لا بدّ لك من أن تكون شيئاً ، لِبْسُ حذاء على طريقة العواهر هو أقل الأمور هواناً ، ينبغي لك أن تكون متجذِّراً في مكان ، وما عدا ذلك لا قيمة له .

استدعى اكسابرين إليه ريموندو كسندولفس .

ـ يبدو أن النفوس أخذت تهدأ ، ماذا ترى أن نصنع بهذا الشقي ؟ وأنت تعلم من أعني .

ـ يمكنك أن تتصوّر فكرتي يا عم إيبليو ، لكن ، يجب الاستماع إلى وجهة نظر كل أفراد العائلة ، وقد طلبت إلى روبين أن يدعوهم للاجتماع .

ـ حسن! لا حاجة بنا للعجلة . ففي العجلة الندامة . لن يفوتنا الوقت .

مروخيتا بوديلون آلباريت ، أو البونفرّديّة التي مضت مع ثلسو باريلا

ما تزال تحتفظ ببطاقة نعي دون خيسوس : معالي السينيور دون خيسوس منثنيدو مونييث العابدُ القانت ، عبدُ سيدنا المسيح ، المحامي والنائب العام في المحاكم ، تُوفي مرتاحاً بتلقّي المساعدة الروحية ، ونال بركة قداسته . فليرقدْ بسلام . هذه البطاقة وصل بكيلو غرام من الخبز يمكن الحصول عليه خلال سبعة أيام من فرن سان كوسمِه ، صدقةً توزع عن روحه . بعض البطاقات يبعث على السرور . أليس كذلك ؟

ـ نعم ، يا بنيّتي ، بعضها يبعث على السرور .

ـ أخيراً ، فَلْيرقد بسلام!

ـ نعم ، وخيرُ برهان على وجود الله قد يكون تمكّن دون خيسوس منثنيدو من الرقاد بسلام .

ماروخيتا بوديلون ركبت رأسَها وتزوجت بمغربي كان في مرافقة فرانكو ، يدعى إدريس بن غزوفات .

ـ هو حسن جداً معي ، ويتصرّف في السرير كما المسيحي ، زوجي إدريس له قضيب يشبه غرمول حمار سان فاكوندو الذي ما إن يخرج من غمده حتى يصيب الناس بالذعر .

ـ ماروخيتا!

ـ معذرة! لقد فلتت مني دون قصد .

سيلزمنا مجهود ضخم كيما تعود الأمور إلى حالتها الطبيعية ، فقد تملّكت الناسَ الرغبةُ في الكفّ عن العمل ، والتسكّع بين هذا الجانب وذاك الجانب ، بذلك لا يمكن للبلد أن ينهض ، وخلال فترة بسيطة سنعاني جميعاً من الجوع ، هذا إن لم نوضع على جبهة الإنكليز أو الألمان .

عبد العزيز بن مروان البرتغالي كان عربياً مغربياً أيضاً ، وإنْ مات منذ بضعة قرون . هنا كان عرب مغاربة دائماً ، بعضهم كان يخزن الذهب والحجارة الكريمة وبعضهم كان ينشر القمل ، ويهرش جراح الجذام ، واليوم يوجد إسبان كثيرون ينحدرون من محمديين مجذومين ، يُعرفون بوظائفهم . دون كليمِنْتِهِ باريث زوج دونيا ريتا المنتحر كان يدعى «وفرة» لأنه كان وافراً بالوزن والمال والقرون والنية السيئة ، وبكل شيء ، بكل ما تعني كل شيء من معنى ، أرادت دونيا ريتا من السيد روسيندو بيلار رجل الدين الذي كانت على علاقة به ثم خُتمت بالزواج ، أن يمنح بركة سِرّ الزيت المقدس إلى دون كليمنته بعد الموت .

ـ لكني لا أستطيع ، يا امرأة ، إذا لم يكنْ خطرُ الموت ناشئاً عن مرض ، لا أستطيع إقامةَ سرّ الدهن بالزيت ، هذا محظور .

ـ لكن ، عن أي حظر تتحدّث ، إذا كان الرجل مات وانتهى أمره ؟

ـ والله ، كلامك صحيح!

أعدّت حينئذ ، دونيا ريتا المنضدة والقماش الأبيض النظيف وصينيّة فيها قطعٌ من القطن الخام اضطُرّت إلى نزعها من ضِمادة صحية لعدم توفّره لديها ، وصينية أخرى فيها فتات خبز وقطع من الليمون ، والماء المبارك ، الخ... ، وصلّى دون روسيندو صلواته .

ـ باركك الله العلي القدير...

ـ آمين!

خيورخينا وآديلا هما بنتا خالة مونتشو بريغيشاس كسبولادو ، خيورخينا قتلت زوجها الأول آدولفيتو بينوتا آوغليبادا ، أوتشوكيرو الذي شنقته على أرجح الظنون ، وهناك من يزعم بأنها سقته منقوع زهرة سان

دييغو السامة ، وكبحت من جماح الزوج الثاني كارميلو منديث الذي قُتل في حصار أوبييدو ، بإعطائه حبيباتٍ خضراً مُسهِّلة كل أسبوع ، آديلا تمضغ أعشاباً سحرية وتقضي أيامها شبه منومة ، مونتشو يشكر لخالته ميكائيلا أمَّ المذكورتين ، شكراً جزيلاً ، لأنها كانت تداعب قضيبه لما كان صغيراً ، فبعض الأمور لا تُنسى أبداً .

ـ العائلات اليوم أكثر تبعثراً مما كانت في الماضي ، كل فرد يمضي في اتجاه .

كان مؤسفاً أن قُتل تبيرون دون أن يتمكّن من سرقة أجراس انطاكية ، لن يكون سهلاً العثورُ على رجل آخر يغوص جيداً كما يصنع تُبيرون .

ـ أتتذكر تلك الليلة لما قصدتما بيت لابروتشا لطرد البرد ؟

ـ بالطبع! وكيف لا أذكرها ؟ فبعض الأشياء لا تُنسى أبداً .

مات المسكين آغيرّه من نزف فموي ، وسرق قبعته إيسيدرو غوميث منديث ، أقول إيسيدرو سواريث منديث كان يسلب الموتى أغراضهم دون أن يعفّ عن أحد منهم ، وقد قُتل في جبهة بوريانا بينا كان يسبح ، لا أدري لماذا أتذكر أحياناً مشاهدَ من المشفى ومن ساحة الحرب ، حسن ، الحقيقة أني أتذكّر كلّ شيء .

ـ وهل هذا أمر حسن ؟

ـ لست واثقاً كلّ الثقة .

ذهبت الآنسة رامونا أيضاً لزيارة أكسابرين الذي كان يشبه زعيماً لا يسمح بمقابلته دائماً . كان لكسابرين وشم على لوح الكتف على شكل حورية بحر ، ما كان يُريه أحداً إلا يوم ١١ أيار ، يوم ذكرى القديس الذي

يحمل اسمه بين جملة قديسين أمثال : آنتيمو ، إيبليو ، ماكسيمو ، باستو ، فابيو ، سيسينيو ، ديو كليتو ، فلورِنثيو ـ أنستاسيو ، تَمَنْغولفو ، ماميرتو ، مايّولو ، إيْلوميْنادو ، فرنسيسكو ديخيروينمو ، ١١ أيار يوم مولد المدفعي كاميلو ، أكسابرين ذو مظهر مُميّز وجمّة جعداء .

ـ انظري ، يا مونتشينيا ، الحياة قاسية علينا جميعاً ، الحياة تدفع عنها الموت ، وكذلك الموت يخنق الحياة ، في النهاية يكسب الموت الجولة دائماً ، ذلك بأنه أقل عجلة وأقل حياء أيضاً .

ـ نعم ، يا عمي .

ـ يقيناً! انظري ، يا مونتشينيا ، انتهت الحرب ، وظلّ منكوبون كثيرون ممزّقي الأحشاء مقطوعي الرؤوس في الجبال والخنادق ، لكننا نحن ـ أقصد رجال عائلتنا ـ ظللنا جميعاً تقريباً في أماكننا دون أن نُضْطر إلى تعلّم لغة أخرى وعادات أخر ، اضطرار المرء إلى تغيير لغته وعاداته سيئ ومؤلم للروح .

ـ نعم ، يا عمي .

ـ نعم ، وحقاً نعم! انظري ، يا مونتشينيا ، قلّما أستلطف الطليان واليونانيين والأتراك ، أنا أفضّل عليهم الإنكليز والهولنديين والنرويجيين ، هؤلاء أقلّ إمتاعاً ، لكنهم أصدق ولا يصرخون جداً .

ـ نعم ، يا عمي!

ـ نعم ، وحقاً نعم! أتريدين قدحاً ؟

ـ نعم ، يا عمي!

ـ ألا تعرفين أن تقولي غير : نعم ، يا عمي ؟

صبّ اكسابرين قدحين من عرق قصب السكر .

ـ هو من نوع فاخر جداً ، هذا العرق لا يؤذي أحداً ، يتناوله البحارة في صراعهم مع البحر ، وهو جيد أيضاً للنساء ، أتعرفين دون آنخيل آليغريّا المختصّ بتقويم المفاصل ؟

ـ لا! ولِمَ ؟

ـ لا لشيء ، هو مجرّد فضول .

القبّرات السبع انتظرن مرور العاصفة إن خيراً أو شراً ، فالأحداث تضعضع عادةً الرجال بعنف أشدّ مما تضعضع النساء ، هذه ليست قاعدة ثابتة ، لكنها تكاد تكون ، أسوأ ما قد يحدث للإنسان هو أنه لا يعرف مآله بعد الموت ، لا أقول مآل الروح إنْ إلى جنة الخلد أو النار الأبدية ، وإنما مصير الجسد وطريقة غيابه ، المغاربة لا يسمحون ببتر إصبع منهم ، إذ لا بدّ لهم من دخول الجنة بكامل أعضائهم ، فلا تستوي جثةٌ مدفونة تأكلها الديدان ، وجثة غارقة في البحر تلتهمها الأسماك ، أو جثة ممزّقة الأوصال تنهشها الكلاب ، أو جثة مترمّدة تذروها الرياح وتصلح عجينة تأكلها العصافير ، جثث الرجال تجد في نهاية المطاف من يأكلها دائماً ، هذه الأحداث الطارئة لا تتعرّض لها النساء ، وما زالت القبراتُ السبع على قيد الحياة دون مشاغل كبرى ، وهن جميلات أيضاً ، وسليمات الأبدان .

ـ ودولورينياس ، أشفيت من التهاب الزائدة الدودية ؟

ـ أين راح عقلك ، يا رجل! الآن ، هي كالزهرة ، تبعث على الفرح رؤيتُها .

روبين لبوتان وريموندو كسندولفس يستطردان في نقاشات فلسفية

جد ظريفة وطويلة ، فقدْ أبقتهما رامونا لتناول طعام العصر عندها ، كان روبين أكثرهما كلاماً ، لأن ريموندو مُتعب قليلاً ، منذ بضعة أيام وهو يعانى من التعب قليلاً .

ـ يمكن للمرء أن يعيش ، ويمكن له أن يتصنَع العيش ، وإذْ كنتُ ضعيفاً ، ولم أكن قوياً جداً ، فإني أعيش حياتي متكلّفاً العيش ، الحقيقة أني عشت قليلاً مقارنةً بما عشتَه أنت ، مثلاً ، ولربما رغبت في أن أعيش غيرَ ما عشتُ ، لكن عليَّ أن أمتثل لوضعي . مَهْلاً! مَهْلاً! أنا أؤمن أن لا حياة ولا وجود لما هو بعيد عنا ، أنت تعرف قصدي : محورُ العالم قلبُنا ذاته وبيتُ مونتشا ، ما هو بعيد عنا غيرُ موجود على الأرجح ، سواء كان هندياً بيروياً ينفخ في ناي من القصب ، أو أحد الأسكيمو يسلخ فقمة ، أو صينياً يدخّن الأفيون ، فتصور! أو زنجياً يعزف على السكسوفون أو مغربيّاً يسحر الحيّات ، أو نابوليتا نيّاً يأكل السباغيتّي ؛ ما أضيقَ الدنيا ، وما أقصرَ الحياة! مونتشو بريغيثاس طاف حول الكرة الأرضية حقاً ، وأحب امرأة في غوياكيل ، لكنكم ، أنتم ، لم تغادروا جبالكم إلا لتقوموا بالحرب ، حتى هذا لم أقمْ به . عفواً لم تغادروا كلكم بل معظمكم ، ولا يستطيع أحد أن يؤكّد بأن الطواف حول العالم شيء حَسَن ، الحُسنُ أن تقوم شابة صغيرة بالعزف على العود جالسةً على مقعد دون مسند قبالة النار المشتعلة ، هي العادات القديمة التي غرقت في مستنقع الفوضى الهائلة ، العادات التي ضاعت وسط الاضطراب الكبير ، والآن ، كل شيء سيكون في وضع أسوأ ، زمن يموت ، وزمن آخر يولد ، الجاودار ينبت ويموت كل عام ، لكن البلوط يعمرَ أكثر مما يعمر بنو البشر ، لا ضرورة لأن يغوص المرء في القذارة ، يا ريموندينيو ، وأنت تفهمني ، خيرٌ له في هذه الحالة أن يُطلق النار على صدغه .

ريموندو كسندولفس كان ذا وجه حزين .

ـ أنت تتحدّث عن الاضطراب الكبير يا روبين ، وهذا حق ، بعض الأشياء لن يكون بالمستطاع إصلاحُها أبداً ، وبعضها الآخر لن نراه قائماً على قدميه مهما عشنا ، كالعادات التي كنسها الاضطراب... ، لا أدري ، أتراني مُقْتَلَع الجذور ؟ لعلني ارتكبتُ خطأ بأنْ لم أمت شاباً ، أي في سنّ أحدث مما أنا عليه الآن... ، أرجو أن تغفرا لي كلاكما . أتناولينني قدحاً من الكونياك ، يا مونتشا ؟

ـ نعم ، يا ريموندو ، أتحبّ أن أعزف على البيانو ؟

تمطر فوق مياه الآرنيغو الذي يجري محرِّكاً الطواحين ، ومخيفاً ذوي اللّغَد ، والذين أصابهم ضفدعُ الشيطان والسمندرُ السامّ بالسوء ، يجري مخيفاً المُحْتَضَرين أيضاً ، بينا كاتوكسا بِنْتَه المغفّلة بنت مرتينيا تصفَر عارية في تلال الإسْبَرّادو وثدياها يقطران ، وشعرها يتدلّى كغصن الصفصاف الباكي ممسكة بيدها فرخَ عصفور دوري .

ـ ستصابين بالتهاب الرئة ، يا كاتوكسا ، أو بشلل في بطنك!

ـ لا يا سيدي . البرد ينزلق عني .

يبدو كأنما كان ذلك بالأمس ، لكن ريح الشمال العاصفة هبّت على هذا المكان وزرعت الألم في الذاكرة .

ـ ماذا نصنع بالقتلى ؟

ـ الأشياء الثلاثة المعتادة ، يا امرأة ، الأشياء الثلاثة التي تُصنع دائماً ، دفنهم بعد غسل وجوههم ، والصلاة عليهم والثأر لهم ، ولا يمكن أن يوزّع الموت مجاناً .

ـ وهذه حقيقة أيضاً .

تمطر على مياه البِرْمون الجدول الذي يئنّ كرضيع يوشك أن يختنق ، تمطر على مياه الأنهار الخمسة ، البينياو الذي يندفع عبر سهول بالدوبرنيرو ، والإسنيرو الذي ينبع من هضاب كريغوس ، والأوسيرا الذي يرطّب من حرارة جلود الرهبان ، والكوميسو الذي ينطلق هارباً صوب الشمال عبر طريق رابوسا رينغادا ، والبورال حيث تغسل فتيات آرغو سنتينيو مناديلَهن ، تمطر على البلّوط والقسطل ، على الكرز والصفصاف ، على الرجال والنساء ، على الدفلى والسرخس وعلى الهيدرا الجليلة ، على الأحياء والأموت ، تمطر على البلد .

ـ وهو الشيء الوحيد الذي لم يستطع أن يزحزحَه أحد .

ـ ذلك بفضل من الله .

التقينا جميعاً أثناء دفن العم كلوديو مونتنيغرو ، وقد سادت لحظات من التوتّر لما حضر الحاكم المدني ، لحسن الحظ ، هدأت النفوس فوراً . لم يسمح العم كلوديو مونتنيغرو لأحد بأن ينال منه أبداً ، فقد اصطاد التعيسَ وينثِسْلاو كَلْدرَاغا بفخ للذئاب وأبقاه ثلاثة أيام دون طعام ولا ماء ، ولما أطلق سراحَه كان وديعاً كأرنب الحظيرة .

ـ وانطلق راكضاً ؟

ـ نعم ، يا سيدي ، انطلق يعرج راكضاً!

القتيل الذي قتل آفوتو ثم ثيدران سغاده لمّا يُقتلْ ، لكنه أصبح غيرَ بعيد عن أن يُقتل ، بين سانتا مارتا وسان لويس قتل خلال ثلاثة أعوام اثني عشر أو خمسة عشر رجلاً على الأقل ، وربما أكثر من ذلك ، والآن تفوح من جسمه رائحة الموت ، ويبتعد الناس عنه إذا رأوه مقبلاً .

ـ ألا تلاحظ أن له رائحةَ محكوم بالإعدام ؟

ذات صباح سقط الأعمى غودنثيو مغشياً عليه وسط الشارع لما كان عائداً من القداس ، سقط كأنما صدمه قطار .

ـ إنه عازف الأكورديون في بيت لابروتشا ، لعله يعاني من الجوع .

قدّمت له القهوة في مخفر شرطة البلدية ، وسرعان ما عاد إليه الوعي .

ـ هل أصبتَ بأذى ، يا سيد ؟

ـ لا ، يا سيدي! شعرت بالإغماء فجلست على الأرض .

لما عاد إلى بيت بروتشا لم يَعْلَم بالحادث أحد ، لأن النساء كنَّ نائمات جميعاً . رافقه شرطي كان يسعل كثيراً .

ـ لقد وصلت .

ـ جزاك الله خيراً .

استلقى الأعمى غودنثيو على السرير ، وغطّى رأسه وجسمه كله كيما يتعرق .

ـ بذلك أستعيد قواي . لا شكّ في أن البرد قرصني وأنا في وضع سيّئ وفي لحظة سيئة .

لما حل الليل ، أخذ غودنثيو يعزف على الأكورديون كعادته .

ـ غودنثيو!

ـ مُرْني ، دون صمويل!

ـ اعزف تلك الماثوركا الجميلةَ جداً ، أنت تعرف قصدي .

ـ نعم ، يا سيدي ، أعرفه . لكن ، ينبغي لك أن تعذرني ، لأن هذا اليومَ غيرُ ملائم لعزفها ، الحقيقة أنني لا أرى يوماً واحداً صالحاً لعزفها .

بسيليسيا المغفلة عاهرة في بيت توناليرا في لاكورونيا ، يقال إن بسيليسيا هي عاهرة العواهر في الدنيا كلها ، وهذا زعم غير صحيح ، وهو أمر لا يمكن التثبّت منه . ظلت بسيليسيا المغفلة ترسل الشوكولا والتبغ إلى المرحوم العريف آنتميل حتى سئمت ، لم تعلم بسيليسيا المغفلة أن العريف آنتميل قد قتل ، وكانت تحسبه غير ثابت على حبها شأنه شأن الرجال كافة باستثناء خبيريتو بِرْتيغا المخنّث الذي يصلح لتكليفه ببعض المهام غير الصعبة وكذلك لتجريب الركل في مؤخرته .

ـ ألا تخجل من حملِكَ أعضاء تتدلّى بين جنبيك ؟

دون ليسمِس كَبِيْثون أورتيغيرا الطبيب المختص بالجراحة الصغرى وأحد رؤساء فرقة صليبيي لاكورونيا سقط في البحر عند مرفأ الصيد ، في ذات المكان حيث عُثر ذات مرة على حوت ، سقط وغرق ، ولعل أحداً ما دفعه . انبعثت دولورينيا آلونترا في الضحك لما حُكي لها الحادث .

ـ كان منافقاً يسيء معاملة النساء . خير له أن غرق .

شبح بنيتونيا كردوثيروس العجوز التي ما كانت تصلح لشيء ، وقتلها المجرم منويلينيو بلانكو رَوْمَسَانتا عضّاً ، لا يزال يطفو فوق غابة بلوط برادو آلبار الملأى بالبلابل .

ـ وفيها أيضاً دنانير وقراقف .

ـ نعم يا سيدتي ، وخضاريّات ، وشحارير ، وقبّرات بلون الأرض ، غابة بلوط برادو آلبار فيها كل أنواع الطير .

يوم الأموات يجب أن يُقضى في هدوء ، من قبلُ كانت العادة أن يُعزف على مزمار القربة ، وتؤكل الحلوى في المقابر ، واليوم يُثقل الأمواتُ على النفوس كثيراً ، ولا ينبغي لأحد أن يرفّه عن نفسه .

ـ أيمكن عدّ الأموات جميعاً ؟

ـ لا يمكن ذلك ، بعضهم يزعم أن الموتى يلدون موتى آخرين ، ربما ، لكنني لا أصدّق .

كانت الحرب العالمية الثانية اندلعت لما حل يوم عيد الأموات[1] ١٩٣٩ ، أما عيد سان كارلوس[2] فيأتي بُعيد عيد الأموات ، إذاً ، يوم عيد سان كارلوس من عام ١٩٣٩ ، اجتمع في بيت الآنسة رامونا اثنان وعشرون رجلاً تجمع بينهم رابطة الدم ، بدعوة من روبين لبوثان : ريموندو كسندولفس ، لا يناديه أحد بكنيته أبداً لأنها تنطوي على ألم كبير ، وهذه حكاية طويلة ومؤلمة ، ريموندو كسندولفس مضى عليه حين من الدهر لا يرغب في الكلام كثيراً ، هو شبه مكتئب ؛ الأخوة غاموثو الأربعة النافعون ، أي ، تانيس بيريلو الذي يستطيع أن يصرع ثوراً بلكمة ، زوجه سقطت عن الدرج وكُسِرت رجلها ، يقيناً كان جسمها مشبعاً باليانسون ، روكينيو كريغو ديكوميسانيا المشهورُ بكبر قضيبه الذي تغيّر لونه قليلاً وإن ظل ذا مظهر حسن كالعادة ، ماتياس تشفريتيرو الذي مضى عليه أشهر لم يرقص فيها ، وخوليان بكسرولو صاحب محل ساعات الجيب والمعصم ، وساعات المنبّه والكوكو ، وساعات المائدة والحائط ، ثلستينو كاروتشا وثفرينو فوريلو لم يحضرا لأنهما خوريان ، وبينيتينيو لاكراو وسالوستيو

---

(١) ٢ تشرين الثاني (المترجم) .

(٢) ٤ تشرين الثاني (المترجم)

ميكسيريكيرو أعفيا من الحضور لعاهتهما ؛ أبناء ماربيس الثلاثة في برينييديلو وهم سيغوندو ، وإيباريستو وكاميلو ، رجال شجعان بالطبع ، ويركبون أعتى المهور عاريةً دون سرج ولا لجام ، ودون أن يمسكوا بأعرافها ، أبوهم روكِه لم يحضر لأنه عجوزهِمِ ، فظل في إسبيريلو قرب زوجه البرتغالية ؛ دون كاميلو والمدفعي كاميلو ، دون كاميلو تؤلمه أذناه ألماً شديداً ، لكنه لا يقول شيئاً ، وإنما يسير مع الاتجاه العام ؛ دون بلتسار ودون إدواردو أخوا دون كاميلو ، الأول محام والآخر مهندس ؛ لوسيو سِغاده وأبناؤه الثلاثة الكبار ، لوثيو ، بِرْفِكْتو ، كاميلو وقد بذل جهداً كبيراً كيما يخضعهم لأنهم يميلون إلى تطبيق القانون بأيديهم ولا يسمعون إلى نصيحة أحد ؛ الخال كليتو الذي ما كان يصافح أحداً خشيةَ انتقال الميكروبات إليه ؛ ماركوس آلبيته الذي كان يتموّج في الطريق فوق صندوقه الذي تدفعه المغفلة بنتُ مرتينيا ، ماركوس آلبيته الصامت كان يبدو تحت مظلّته روحاً مُعذَّبة بلّلها ربنا تعالى بالماء ؛ غودنثيو بيرا ليس ملزماً بالحضور لأنه أعمى ؛ بوليكاربو بن البغنييرا الذي يضع في جيبه فأراً مطيعاً ، ولا يخرجه احتراماً ؛ مونتشو بريغيثاس ، مكتشف شجرة الأوميبل ذات الأوراق مثل لحم الحلزون ؛ العم إيبليو المحترم المعروف بشجاعته ؛ وروبين لبوثان بالطبع ؛ بعضهم قَدِم من مسافة بعيدة وكلهم يغطّون رؤوسهم بقبعات من القش أو الجوخ أو القماش بأشكال شتى ؛ وبعضهم يخاطب الآخر بشكل رسمي ، وبعضهم الإخر بإلفة ودون كلفة ، دون كاميلو يلبس قبّعة من اللبّاد بيضوية الشكل ، ومعطفاً ياقته من جلد الذئب ، وكانت تقوم على خدمتهم الآنسةُ رامونا وآدغا وابنتُها بينيثيا ، والمغفّلةُ بنت مرتينيا وابنتا خالة مونتشو خيورخينا وآديلا ، إذ لا يمكن الاعتماد على خادمي الآنسة رامونا لتقدمّهما في السنّ . تعشّى الرجال مرقاً باللحم ، أو لحمة بالعجين ، حسب الاختيار

وتناولوا جبناً طازجاً وتحلّوا بعد الطعام بمربّى السفرجل أو الخوخ بالقطر ، لما دقت الساعة الثانية عشرة أشار إليهم إشارة فجلسوا جميعاً صامتين وأشعلوا السيجار الذي جلبه دون كاميلو من أجلهم جميعاً ، في حين راحت النساء يقدمن لهم القهوة والعرق ، ثم ذهبن إلى المطبخ ، ولم تمكث أي منهن وراء الباب لأن الرجال وحدهم يتحكّمون بحياة الرجال ، والنساء يعرفن القاعدة ويحترمن العادات والتقاليد ، فبعض القضايا لا تستطيع النساء الحديث عنها إلا في السرير ، ومع رجل واحد ، وليس ذلك دائماً .

ـ قفوا جميعاً : أبانا الذي في السماوات...

ـ أعطنا خبزنا كفاية يومنا .

لما جلسوا جميعاً (في الحقيقة لم يجلسوا جميعاً ، لأن المقاعد لم تكن على عددهم) نظر دون كاميلو صوبَ روبين لِبُوثان .

ـ قريبنا روبين لبوثان كاسترو ديثيلا سينبئكم بنبأ صادق يجلو فيه الحقيقة .

وقص روبين لبوثان بصوت جيد وبتفصيل كبير ما صرنا نعلمه جميعاً ، ولما أنهى كلامه ، سأل :

ـ ألا تريدون أن أخبركم باسم من قتل بلدوميرو وثِيدران ؟

ـ بلى!

وأطرق روبين .

ـ أسأل الله العفو : قد كان من يُسمّى فبايان منغيلا أبْرغان ، الملقب بموتشو كرّوبو وله رقعة من جلد خنزير في جبينه ، كلكلم تعرفون من هو ، ولا ينبغي لأحد منا ، منذ هذه اللحظة ، أن يذكر اسمه على لسانه أبداً .

قطع الصمتَ العم إيبليتو اكسابرين .

ـ لك القرار ، يا كاميلو .

أطرق دون كاميلو مرة أخرى بوجه عبوس دون أن يتكلم كلمة . القرار ، وإن كان منتظراً ، جعل القشعريرة تسري قليلاً في فِقار كل شخص .

ـ ومن تكلّفه بالمهمة ؟

توجّه دون كاميلو الصامت دائماً ببصره صوب تانيس بيريلو ، فنهض هذا الأخير وخلع قبّعته ورسم شارة الصليب .

ـ ليكنْ سيدنا الحواري سنتياغو وقريبنا القديس فرناندس في عوني . اللهم آمين! إذا سمعتم فرقعة السهم الناري ، فاعلموا أن الأمر تمّ .

انفضّ الاجتماع شيئاً فشيئاً وبنظام ، أبناء ماربيس الثلاثة في برينييديلو خرجوا فوراً ممتطين جيادهم لأنهم سيقطعون مسافة بعيدة ، دون بلتسار ودون إدواردو ذهبا ليبيتا في لالين عند الخوري فريكسيدو الذي يمتّ إليهما بقرابة ما ، ذهبا في السيارة لأن الليل كان غاشماً جداً ، وذلك خير لهما لأن الحرس المدني يكون أقلّ إزعاجاً في طلب رخصة السوق ، دون كاميلو راح مع العم إيبليتو اكسابرين ، المدفعي كاميلو بات عند ريموندو كسندولفس ، أبناء غاموثو الثلاثة البعيدون باتوا ليلتهم في بيت أخيهم تانيس ، لقد نظّموا أمورهم جيداً ، ولم يتكلم أحد بأكثر مما ينبغي له ـ الوحيدان اللذان ظلا في بيت الآنسة رامونا ، كانا مونتشو بريغيثاس الذي فقد إحدى ساقيه ، وماركوس آلبيته الذي فقد ساقيه كليهما ، وكان الليل قاسياً جداً حتى لا يسمح للعُرْج بأن يسيروا في الجبل ، كاتوكسا بنته رقدت متكوّمة في الباب ، وران على بيت الآنسة رامونا سكونٌ مباغت عميق

جداً وصامت ، أرسل دون كاميلو قبل أن ينصرف ، أمراً إلى الخوري ثِفِرينو غاموثو صياد السمك ، والقديس بطرس كان صياد سمك أيضاً .

ـ ليُقمْ قدّاساً على روح من أعرف ، ولا يسأل عما يُلزِم الواجب بتخمينه ، وليسكت كالميت .

ـ نعم ، سيد دون كاميلو .

يهبط على بيت الآنسة رامونا ، وكذلك على الرجال وعلى النساء ضباب سيمحو واحدة واحدة كل الكلمات التي قيلت ، ولا تزال تطفو في الهواء ، فالذاكرة لا تصمد أمام امتحان الضباب ، وذلك خير لها .

ـ أنتكلم غداً ؟

ـ حسن! الأفضل بعد غد . غداً ، ينبغي لي أن أرحل إلى كربيينو .

ـ يقال إن القديس سان رامون نوناتو هو شفيع الغشاشين في اللعب ، وفي البيع والشراء والمحتالين والدجالين وكل ضرب من المتسكعين .

ـ ولِمَ هذه الشفاعة ؟

ـ وما أدراني!

لا يمكن اتّهامُ كابوكساتولا بأنها اضطجعت مع من كان ، أنت تعرف من مصّ ثديَيْ كابوكساتولا ، لكن لا تلفظْ اسمه ، كلُّ امرئ يصنع ما يُتاح له ، وهذا لا ينبغي له أن يُعنى به أحد ، أمّا أنها اضطجعت مع هذا أو ذاك ، فلا يعني أحد سواها ، كل النساء لهن الحق بأن يتمرّغن مع من يشأن ويرغبن فيه . أيكون هذا لئيماً ابن قحبة ؟ حسن! ربما ، وما أكثر اللئام أبناء القحاب! لكن النتيجة واحدة .

ـ أتصدّق أن كابوكساتولا تجرؤ على ممارسة الجنس مع خنزير بري ؟

ـ وأنت ماذا يعنيك من ذلك ؟

تمطر دون انقطاع منذ يوم سان رامون نوناتو لما عُثر على وكر للمقامرين في كربيينو على طريق ريبيدابيا ، أقلّ الأيام توقعاً بأن يقبض عليهم الحرس المدنيّ ويُودعِهم السجن جميعاً .

ـ معذرة ، يا سيدي! يوم القبض على وكر القمار في طريق ريبيدابيا ، لم يكون يوم سان رامون نونّاتو ، وإنما يوم سان ماكاريو ، ولا ينبغي لنا الخلط بينهما .

ـ حسن! هما سيان عندي! ذلك إشكال يحلّه القديسان فيما بينهما!

تمطر مطراً واصياً دون عجلة ، على العشب وعلى القرميد والزجاج ، تمطر دون برد ، أعني دون برد شديد ، لو كنتُ أعرف العزف على الكمان ، لقضيت الأماسي عازفاً على الكمان ، ولو كنت أعرف العزف على الهارمونيكا لقضيتُ الأصباحَ والأماسي والليالي عازفاً على الهارمونيكا ، لو كنت أعرف العزف على الأكورديون لقضيت الأصباح والأماسي والليالي ، بل العمر كله عازفاً على الأكورديون الذي يعزف عليه غودنثيو خيراً من أي عازف آخر ، أمّا وأني لا أعرف العزف على الكمان ولا الهارمونيكا ولا الأكورديون ، ولا أعرف العزف على أي شيء ، وكان يمكن لي أن أموت وأنا طفل دون أن يُضْطَرَّ أحد إلى البكاء عليَّ بكاء غزيراً ، فإني أقضي الأماسي ممارساً الفاحشة مع من أستطيع ، لأنني في الأصباح والليالي أكون أميلَ إلى الشرود ، وأحياناً لا أستطيع ممارسةَ الفاحشة مع أحد ، لكن لا فرق عندي ، من أجل ذلك لديّ يدان ، وعلى الرجال أن يتكيّفوا مع المصير الذي أعِدَّ لهم لأن كل ذلك مكتوب حتى قبل أن نجيء إلى الدنيا . دون صمويل

إيغلِسياس مورهِ صاحبُ مصنع للشمع في شارع الأب فيخو ، دون صمويل كان بلون الشمع وكذلك زوجه أيضاً ، ويدعوه الناس باسم ثِلِستيال ، يقصد دون ثلستيال في بعض الأماسي بيت لابروتشا ليرفّه عن نفسه ويستمع إلى الأكودريون قليلاً ، وكان حظُّه سيّئاً في اختيار القطع الموسيقية ، فقد كان معجباً جداً بلحن الماثوركا الذي قلّما يعزفه غودنثيو .

ـ لِمَ لا تعزفه من حين لآخر ؟

ـ وأنت ماذا يعنيك منه ؟

ثلستيال أو السماوي يضطجع في العادة مع مارتا البرتغالية ، التي كان يروق له أن يُسمِعَها أكاذيب .

ـ إذْ هي ثدياء ، فإنها تجلب الراحة إلى النفس والرضا الكبير . البرتغاليات معتبرات جداً .

ـ نعم ، يا سيدي ، كل الناس يقولون ذلك ، وهنّ محترمات للغاية .

ـ وهذا جِدّ مؤكد .

دون سِرْبِنْدو دخل قبل دون صمويل ، دون سِرْبندو ليس مُضطراً إلى انتظار دوره لأنه نائب إقليمي ، دون صمويل جلب إلى مارتا البرتغالية شمعة محزّزة هدية .

ـ أتريدين أن نُوقِدَها ؟

ـ لا! بلْ أحبّ أن أحملها جديدةً إلى سانتوكريستو ديلا سَنْغْرِه ، انتظرْ ريثما أتعرّى وأغسل فرجي قليلاً ، فلديك فسحة من الوقت .

دون سِرْبَنْدو كان يعامل أوتيلو ، أو ثيرولاس باللبط والرفس ، لكنه كان غايةً في اللطف مع دون صمويل .

ـ ليس صعباً أن نميّز بينهما ، دون صمويل سيد محترم ، هو شاحب قليلاً ، لكنه سيد معتبر ، وزوجه دونيا دوريتا سيدة حقيقية ، دونيا دوريتا تزوّد الفقراء بالثياب ، والزوجان كلاهما من أصل كريم ، وذوا عادات أصيلة شريفة ، وموضع ثقة تامة .

دون إسحاق شقيق دون صمويل ، دون إسحاق صاحبُ معمل معجنات ، المعكرونة التي ينتجها من ماركة إيل بوسوبيو مشهورة في كل أنحاء غليشية ، نشأ دون إسحاق مخنّثاً ، هذه مسألة خَلْقية يمكن أن تحدث لأي منا ، يمكن أن تحدث لك ولي مثلاً حتى لا نبتعد كثيراً ، لكنه كان يتصرف بكرامة ، فلم يُضبطْ متلبّساً بالجرم مع أحد ، دون إسحاق إيغلِسياس مورِه يلقب بفيْلْتيْره ، دون إسحاق يعزف على الآرمونيوم في كنيسة سانتا ماريا لامادْرِه ، وفي أماكن أخرى إن دُعي إلى بعض الأعراس ، في بيته يعزف دون إسحاق على اللير ، آلة ينتزع منها ألحاناً جميلة سريعة ، يتقدّم بيتَ إسحاق فيلتيره تمثالٌ نصفي للبابا بيو العاشر من الجص ، ذو ألوان متعددة من قرمزي إلى ذهبي وأزرق وآخر بلون اللحم الخ... يستند التمثال إلى اللير نفسه وإلى منضدة جدارية عليها الراية الإسبانية .

ـ أخي فنّان حقيقي ، فنان لحماً ودماً وموهوب جداً في الموسيقى ، في رأيي صار مخنّثاً بسبب انكبابه على الأمور العاطفية .

ـ ربما ، لا أقول لك لا ، أحياناً يحدث .

لا شك في أن الطّحان لوثيو مورو قتله قاتل الآخرين نفسه .

ـ من هو ؟

ـ اسكت ، يا أحمق! ألا تعرفه ؟

ـ معذرة! لقد سهوت .

أُطلِقت على لوثيو مورو طلقةٌ في ظهره وأخرى في رأسه ، وكان يضع زهرة في قبعته لما قُتل ، الزهرة التي تسمى زرُّ الذهب .

ـ أتتذكّرين يا كاتوكسا ، كم كان طيباً ؟

ـ وكيف لا أتذكر ؟!

روسيكلير كانت في العاشرة من عمرها ، أو لم تكن أتمّتها بعد لما داعبت القرد خريمياس للمرة الأولى حتى استمنى .

ـ وما المناسبة الآن ؟

ـ لا أدري . من المناسب أن نعرف الأشياء .

ـ نعم ، هذا مؤكّد أيضاً .

ـ وفوق ذلك ، هي أفكار تدور في الرأس دون انتباه .

لما اكتشفت روسيكلير أن للقرد قضيباً كما للرجل ، وإن يكنْ بحجم أصغر ، سُرّت غاية السرور .

ـ لا بد لي من أن أنقل ذلك لمونتشا ، بالتأكيد هي تعرف .

ضُبط صاحب معمل الشمع ثلستيال ، أو دون صمويل إيغلِسياس موره ، ذات يوم جاء فيه القرية بعمل ، مضطجعاً مع المغفلة بنت مرتينيا في مستودع بيت ماركوس آلبيته .

ـ وكيف استسلمتِ له ، يا كاتوكسا التعيسة ؟

ـ كما تعلم ، جئت لأغسل صفيحة بول السيد ماركوس ، فأعطاني دون صمويل بيزيته ، وأخرج شيئه .

ـ هكذا ، دون سؤال ولا جواب ؟

ـ نعم ، يا سيدي دون سؤال ولا جواب . قلت له : خُذْ ، خذ ، كل شيء يجب أن تأكله اللعنة ، يا حواري ، يا مجيد ، سان خوداس تاديو الذي كنت أول ملك على بابل ، اجعل آلام قلبي تنقلب سروراً بهذه الصلاة ، ثم قَلّبني فوق التبن .

تانيس بيريلّو يقول لريموندو كسندولفس .

ـ أمْرُ دون كاميلو سيُنَفّذ ، كما الله موجود ، سينفذ! قلّبت الأمر على كل وجه ، ما أحتاج إليه الآن أن أحسّ به إحساساً عميقاً حتى يبدأ ضميري في تأنيبي ، وبعدها يصبح كلُّ شيء شَرْبَةَ ماء . هذ الرجل ليس منيعاً لأنه مطمئِنّ غاية الاطمئنان ، ومن الخير لنا أن يصدّق نفسه بأن كل شيء انتهى ، وأن الأمور باقية على وضعها إلى الأبد ، من الخير أن يصدق ذلك كله ويسير مطمئناً .

شحذ تانيس بيريلو سكّينَيْه الجبليتين على الحجر ، الأولى ذات نصاب من قرن الوعل ، والأخرى من فضة البيرو ، وكلتاهما تحملان الأحرف الأُوَل من اسمه ، سكينا تانيس غاموثو مضى عليهما بضعة أعوام ، لكنهما صالحتان لأنهما من نوع جيد ، وهما جافّتان دائماً ومحفوظتان بعناية .

ـ لم تُغرزا في اللحم إلا مراتٍ قليلة ، لأني لا أُكْثِر الخروج ، فإذا لم تُطعم السكّينُ لحماً تصبح ليّنة .

فقد بوليكاربو بن البغنييرا الرغبة في مشاهدة مرور حافلة سنتياغو وهي تتأرجح على الطريق وتسعل كمصاب بربو برتغالي ، هو ، وإن فقد ثلاثة أصابع فإنه يلفّ السيجارة بشكل حسن جداً ، التبغ الأمريكي الفلش مملوء

بالقش ، فمن الواجب نشرُه على الجريدة لتنقيته من هذا القش الذي إن أُحرق في منفضة أطلق رائحة عَطِرةً ، لأن التبغ مُعطَر بعطر ما ، في حافلة سنتياغو يسافر دائماً خوريان ، أو ثلاثة يأكلون تيناً مجفّفاً وقمر الدين ، يتميّز الخوارنة بحب الأطعمة الحلوة ، وكذلك الكوميديون مولعون بالحلوى ، بوليكاربو بن البغنييرا يزعم أنه قادر على ترويض الضفادع ، لكني لا أصدّقُه تمام الصدق ، لأن الضفادع عصيّة على الترويض ، فهي إما خبيثة أو غبية ، وذلك سيء غاية السوء ، أما النساء فيمكن ترويضهن بالصرامة ، لكن الصعوبة أنهن لا يُسلسن القياد عادة ، وهن اليوم جد وِقاح ونصف متمردات ، بوليكاربو بن البغنييرا يضحك سراً من خواطره ، وكان معجباً جدًا بتشونينيا لادولثه زوجِ بائع الحلويات مِنْديث ، لكن تشونينيا ما كانت تعيره اهتماماً .

المرحوم آنطون غونتميل زوج فينا راموندهِ ، سحقه قطار شحن في محطة أورينسه ، حسن! لم يسحقه وإنما شطره شطرين ، آنطون غونتميل كان تعتاعاً وشبه مغفل ، وكانت زوجه تقول له دائماً :

ـ الراهب الذي يُعلّم في المدرسة المسائية يتمتّع بقضيب كنت أتمنّاه لك ، قضيب مُعْجب ، وهو ضعف ما عندك يا مغفل ، أنت مغفل ، ألا تخجل ؟

ـ كلا ، يا امرأة! ماذا تبغين مني أن أصنع ؟

لما أصيبت الخالة لورديس بالجُدريّ ، تركها الفرنسيون تموت ، لا جدال فيه ، وفوق ذلك ، ألقوْا بجثمانها في قبر مشترك مع البولونيين والغجر والمغاربة ، والهندصينيين . الفرنسيون في هذه النقطة متشدّدون جداً ، ولا يولون كبير اعتبار لهذه المسائل . مونتشو ، ابن عم منويلينيو رمسيرو دومنغيت الذي سُمّي باسم غراب ، بل العكس هو الصحيح ، مات بالسعال الديكي لما كان في السادسة أو السابعة من عمره .

ـ كان عمره قصيراً .

ـ نعم ، الحقيقة أنه لم يعمر طويلاً لأنه لم يكن ذا بنية متينة .

صار الغراب مونتشو يصفر ببعض إيقاعات ماثوركا الأعمى غودنثيو ، لا يزال ينقصه شوطٌ كيما يتعلّمها كاملة .

ـ أصحيح أن منويلينيو رمسيرو كان على علاقة بماريا أوكسيلادورا بورّاس الخطيبة التي تخلت عن آدولفيتو لأن وجهه كان كوجه الموتى ؟

ـ تشنيع ، أي تشنيع! مَنْ قصّ عليك هذه السخافة ؟

لم تكن الآنسة رامونا على حظ عظيم مع الرجال ، أعني مع الأزواج المتوقَّعين ، ذلك بأنها صوّبتْ عالياً جداً ، بالطبع أخطأتِ الهدف ، في هذه المسألة ينبغي للمرء أن يكون متواضعاً ، لأن الزمن يعمل عكس المخطَّطات والإرادات ، فقد توهمّت الآنسة رامونا دائماً أنها تستطيع الزواج بمن تشاء وترغب فيه ، وأنها تستطيع الاختيار والأمر ، لكنها أخطأت ، وستموت اليوم عانساً .

ـ حسن! عانس ، نعم ، لكن ، غيرُ عذراء ، ليكن واضحاً ، إن أزعجني شيء فهو أني لم أفقدْ غشاء البكارة باكراً ، من سوء الحظ أنني أتممت الخامسة والعشرين وكنت لا أزال أحتفظ بغشاء البكارة ، وهذا لا يجري في الحقيقة لأحد من النساء .

روبين لِبُوثان يكتب قصائد بالغليشية ، لكنه ما كان يريد أن يظهرها لأحد .

ـ كلا! يبدو لي قبيحاً أن يلقي المرء قصائده على الآخرين ، ومن يأبه بها ؟

ريموندو كسندولفس لا يزال محزوناً كئيباً ولا يخالط أحداً ، لكن ثقافته الجيدة ذاتُ عون له .

ـ أنا أرغب في سماع فرقعة السهم الناري ، لا بدّ لي من أن أزور في الصباح العم إيبليو ليشجّعَني . واخجلاه! عجوز يواسي شاباً! أمر العم كاميلو لا مناص من الوفاء به ، أعلم ذلك ، فالأوامر هي الأوامر ، لكني أريد سماع صوت السهم الناري ، قتيلٌ لا يعدِلُه غير قتيل آخر ، وهذا ليس وَقْفاً على ذوق أحد ، يجب علينا أن نزيّن قبعاتنا بزهرة زر الذهب أو بزهرة الجولق ، نورييغا باريلا كان يحمل زهور الجولق كلّ أحد وفي الأعياد إلى المقبرة .

ـ من أجل أي ميت ؟

ـ ليس من أجل ميّت معيّن ، أزهار دون أنطونيو كانت لكلّ الأموات ، كل الأموات لله ، الأموات يحبون الزهور ، انتبهي : في المقبرة تنبت دائماً أجملُ الزهور لأن أرواح الموتى تفرّ عبر الأزاهير التي تنبت فوق القبور ، فإذا وُضع حجر فوقها انقطع نفس الروح .

ريموندو كسندولفس يسير في الدرب الجريحةِ بين الأعشاب البرية ، يسير محزوناً منقبضَ النفس .

ـ من هنا مرّ القتيلان وهما يغنّيان ، وكان يجري في عروقهما دمي ذاته ، كانا مثلي على الأرجح ، كانا أنا ذاتي دون أن أدري ، لما سال دمُهما على الأرض ، لما سُفك دمهما فرّت الذئاب عاويةً باكية ، بعض الرجال ما كان ينبغي لهم أن يولدوا ، أنا راغب في سماع صوت السهم الناري ، تانيس يحترم العم كاميلو جداً ، من له الأمر ، يأمر ، حسن! نحن جميعاً نحترم العم كاميلو ، متى يشعلْ تانيس فتيل السهم الناري ، تتنفس الصعداء ، وليحمِنا الله جميعاً ، ولا بد للسلام من أن يجري كالضبّ حين يُطبّق القانون ، ذات القانون الذي يحكم

الجبلَ منذ أمدٍ بعيد ، كل أموات العائلة يطلبون منا أن يُطبق القانون ، بعض الرجال يولدون بدم ، وآخرون بدم آخر ، وهذا ليس مصادفة .

ريموندو كسندولفس يلعب الشطرنج مع روبين لِبُوثّان ويفوز عليه دائماً .

ـ أنت شارد لذهن!

ـ لا! هذي طريقتي في الوجود ، أنا لا أصلح لشيء ، وأنت تعلم ذلك .

بيبينيو بوسادا كوئيريس ، المعروف ببيبينيو اكسوريلو كهربائي ، بالأحرى مساعد كهربائي في معمل التوابيت إيل رِبَوسو ، هنا تكثر معاملُ التوابيت ، بعض التوابيت بيضٌ وسود وهي مختصّة للأطفال الملائكة الصغار ، وبعضها مُترَف من خشب الزان أو الكاؤوبا المقلّد ، لكن ، لا توجد توابيت خضر أو حمر أو صفر . بينينيو كسوريلو يظل فاغر الفم دائماً ، ويحبّ مداعبة أعضاء الأطفال ، أو قل الملائكة الصغار ، بيبينيو أكسوريلو تزوج بكونتشا داكوانا بدافع العادة ورُزِق منها ببنتين مغفلتين ماتتا سريعاً ، كونتشا داكوانا فرت منه لأنها سئمته ، كونتشا داكونا كانت فرحةً جداً ، وتدق الصنّاجات بمهارة ، كانت تقضي وقتها كلّه بدقّ الصنجات ، كما كانت تغني وصلات غنائية ، ضُبط بيبينيو أكسوريلو ذات يوم مع الأبكم سيمونثينيو أو بوتشو ذي الستة أعوام ، والناحل والمذعور حتى كان يُلمح الذعر على وجهه ، وكان يكفي النظر إليه حتى ينبعث المرء في الضحك ، بينبينيو كان يأتيه من الخلف ممسكاً بخناقه حتّى كان يوشك أن يخنقه ، أُرسِل بيبينيو كسوريلو أولاً إلى السجن ثم إلى المصحّ العقلي .

ـ في المشفى يُجلد النزلاءُ أكثر مما في السجن ، يبدو أن جلد المجانين يبعث على السرور .

ـ أي ، نعم ، وأرجح ذلك .

أُطلق سراح بيبينيو اكسوريلو مقابل السماح بخصيه ، الحقيقة أن وضعه لم يتحسن تحسناً كبيراً ، لما بدأت الحرب أخذ بيبينيو يتردّد على الكنيسة كل صباح لسماع القداس ، والسعي من أجل الآخرين المنكوبين طالباً الرحمة والإحسان والرأفة وأشياء أخر صارت مهجورة ، الرحمة للعقارب والعناكب والعلاجيم التي يجب احترام حقها في الحياة وإفساح المجال لها في الهرب ، وهذا الأمر ينطبق على البشر أيضاً ، أمّا الحيوانات الوديعة كالجرذ والحلزون والجُنْدُب ، أو الحيوانات البرية كقطّ الزبّاد والوشق (ويسمى أيضاً الذئب الشرس) والغرير ، فيُمدّ لها جسرٌ من الحور الرومي فوق نهر تخوم الموت ، وتُذَبّ برشّها بالماء المبارك وليس بإطلاق الرصاص .

ـ ولِمَ يكون الإنسان بهيمة مضطربة وعصبيّة المزاج ؟ كل ذلك عائد إلى تأثير الشيطان .

سُرّ روبين لبوثان سروراً كبيراً لما عثر على القوقعة البحرية التي أهدتها إليه أمه ، كانت خلف بعض الكتب ، وكان أتى عليها ما يزيد على عشرة أعوام دون أن يراها ، ولما وضعها على أذنه ، سمع هدير البحر ، وانطلاقة ماثوركا الأعمى غودنثيو ، أعني تلك التي لا يريد أن يعزفها تقريباً ، أعني الماثوركا المحظورة ، بل هي ليست محظورة تماماً ، لكنها تكاد تكون .

ـ أنلعب شوطاً آخر بالشطرنج ؟

ـ كما تريد!

روبين لبوثان ينام في وقت متأخرٍ ، منذ فترة معينة وهو يعاني من الأرق ، أحياناً يستيقظ في الساعة التانية أو التالثة فجراً ثم يسهر ويطول به السهر حتى ينام ، وفي بعض الأوقات يظلّ مستيقظاً حتى الفجر .

ـ لِمَ لا تتناول قدحاً من أزهار الزيزفون قبل النوم ؟

ـ نعم ، سأعمل شيئاً ما ، الأرق عادة سيئة جداً .

الكلبة بِسبورا لم يقتلها أحد ، ولا حاجة إلى ذلك ، لأن الكلبة بسبورا ماتت من مغص حادّ في الأمعاء ، والأرجح أن الخال كليتو تقيّأ طعاماً حاداً في المرتين الأخيرتين ، فالكلاب ضعيفة التحمّل ، أو هي أقل تحملاً مما يُظن ، بينا الكلب تسَارَفيتش متألق جداً وفرح ، وأصبح الآن لا يُنادى باسم تسَارَ فِيتش ولا باسم آخر ، الكلاب تفهم رنّة الصوت خيراً من الكلمات .

ـ أتعرف قصص بيبا لالوبا ، واكْسان الخامس ؟

ـ نعم ، يا سيدي ، أعرف أيضاً قصص تروكو ولوثاو وبينتوسيل .

ـ وقصة ماميد أكسانوبا الذي كان يرتدي ثياب غنيّ ميت ومدفون ؟

ـ نعم ، يا سيدي ، أعرفها كلها ، لما كنت صغيراً علمنيها من الذاكرة قريبي دون مرثلينو آندراده ، حين ضمني إليه إشفاقاً ، وإني أحفظها عن ظهر قلب ، وإذا شئت أبدأ بالقص .

ـ لا! لا حاجة بي إلى ذلك .

إذا استيقظ روبين لبوثان في الليل ، استضاء بضوء قنديل ، لأن الضوء الكهربائي يبدو كالحَبَاحب المسلولة الخائرة القوى ، ولا يصلح لشيء ، ويقرأ روبين لبوثان ما كتبه ، ويُصلح بعض العبارات الركيكة أو المكرّرة ، أو كلمة قليلة الوضوح وغير دقيقة ، ويبدّل أحياناً بعض علامات الترقيم ، هنا يُفضل وضع فاصلة بدلاً من نقطتين ، وهناك لا لزوم لفتح قوسين الخ... ، يرى روبين لبوثان أن كل شيء يتدهور ، والروايات كالحياة نفسها حين تقف بغتة ، أحياناً تتوقّف بغتة ويصعد القلبُ حتى الفم وتموت الحياة ، وتفرّ عبْرَ

العيون ، ومن الفم ، نعم من الفم أيضاً ، تنتهي القصص دائماً بنقطة ، متى يُقتلِ اللئيم ابن القحبة ، يبلغ كلُّ شيء غايته ، تذكّرِ الآن آلان بو مرة أخرى ، أفكارنا كانت بطيئة وحزينة ، وذكرياتنا غادرة ذاوية ، لربما رغبت في ألا يكون لي أفكار ولا ذكريات ، لكنني لا أستطيع ،لربما رغبت في أن أكون كالورود وزهور العسل التي لا تمتلك شيئاً غيرَ بعض الأحاسيس ، ربما كانت أرواح الدويّبات الضعيفة ، والحلزون البزاق واليعاسيب ، خاويةً وحزينة كالورود وأزهار العسل .

ـ أكنت نائماً ؟

ـ لا! وإنما هوّمت بعض التهويمات .

جلس دون كلاوديو بلانكو رسبينو ، وأمر دونيا آرختنينا بيدويرا أرمل سوموثا بالسكوت ، ثم توجه بالخطاب إلى صهره خيراردو باغميان الذي ما كان يلقبه بـ «دون» قائلاً له .

ـ أتتصور ملكاً من القرون الوسطى ، اغتاله مهرّجُه ذاتُه بمشهد من رجال البلاط وقت الاحتفال احتفالاً رائعاً بذكرى انتصار عسكري ؟ إذاً ، هذا ما جرى لدينو . ب ، دوق بيْتِغا الذي كان ذا شعرٍ مستعار ، وعين من زجاج ، ويد من حديد ، وساق من خشب ، قتل أبناؤه السبعة المهرّجَ بالعصي ، وقطّعوه إرْباً ، إرباً ، ليجعلوا عمل النسور سهلاً ، ثم ضحكوا واحتفلوا بيُتْمِهم الميمون بغشيان كل راهبات الدير ، وأحبلوهن جميعاً دون استثناء ، أورد آريستيد المجذوم الحدث في تاريخه ، ذكر أسماءَ وقدّم تفاصيل وافيةً ، أنا لا أستطيع أن استذكر كل مغامرات تلك العائلة .

الآنسة رامونا تشكّك دائماً بكلام كلاوديو بلانكو .

ـ يبدو لي مهرجاً ، نصف ما يرويه مخضٌ أكاذيب .

جاء الخال كليتو لزيارة الآنسة رامونا ، تبدو عليه الهزيمة والاضطراب أكثر من أي وقت آخر ، ويسير متجنّباً أن يطأ الخط والصليب على البلاط ، الخال كليتو يضحك من نفسه ، ويقطّب أنفه ويُطبقُ عينيه نصف إطباق حتى يبدو صينياً ، ويدندن بأغنية «لامادیلون» ، ويوشّي كل فقرة فيها بإطلاق الريح ، الخال كليتو أشدّ قذارة ونظافة مما هو عليه في أي وقت آخر ، سلوك غير مفهوم ، لكنْ هذا هو الوضع ، وعلى وجهه يبدو الانشغال ، الخال كليتو معنيٌ بشؤون الصحة جداً ومغالٍ في التدقيق ، وهو مشهور بين الناس بذلك ، تشغله النظافة جداً ويعمل بمبدأ الوقاية ، ويستهلك كحولاً كثيراً في التعقيم ، لكنه مخلوقٌ من القذارة أيضاً ، فهو لا يبدّل ثيابه الداخلية أبداً ، وإنما يُلقي بها حينما تسقط من البِلى والوسخ ، الخال كليتو يتقيّأ إذا يضجر ، يتقيأ في القصرية أو خلف قطع الأثاث ، وعلى الجدار لا فرق عنده ، وأحياناً يتقيأ على ثيابه لأنه يكون جالساً في وضع مريح ولا يريد أن يتزحزح ، زيارة الخال كليتو للآنسة رامونا جرت منذ فترة معينة أي قُبيل نشوب الحرب .

ـ مونتشينيا ، نحن في لحظة رهيبة ، تنهال علينا مشاكلُ لا بدّ لنا من مواجهتها ، أين سندفن خيسوسا ؟ كل فرد من أقاربنا يرقد في قبر خاص به ، وأصبح المدفن لا يتّسع لمسمار ، لحسن الحظ أني تركت المسكينة لوردس في باريس ، أتتصورين ماذا كان جرى ، لولا أن تركت المسكينة لوردس في باريس ؟ المشكلة الثانية ، وأقول كلها مشاكل ، من أين سنُخرج جثمان خيسوسا ؟ إيميليتا تريد أن نخرجه من الباب الرئيس ، وأنت تعرفين إيميليتا ، ليس في رأسها غيرُ الأوهام ، في هذه الحالة ، يجب

علينا تنظيف ذلك المدخل ، لأنه غاية في القذارة ويبعث على الاشمئزاز التفكير فيه ، فمنذ خمسة عشر عاماً ، لم يدخل البيت منه أحد ، ولا نظف رضه أحد ولا جدرانه أحد ، وبَنَتِ الجرذان أعشاشَها في الأثاث ، والحريش وأبو مِقصّ تسرح وتمرح خلف الألواح ، في الرطوبة الكامنة خلف الألواح ، لأن ألبارونا رطبة جداً .

ـ ألا نستطيع تكليفَ أحد بتنظيفه ؟

ـ نعم ، نعم ، سأقوم بذلك ، وحين أطلب من رجل أن يأتي ويخرج كل شيء من الدهليز : العلب والأوراق والأشياء الثقيلة لتحرقَ كلها ، تدخلين أنت ولا أحد غيرك .

ـ لا بأس عليك بذلك!

الموت حماقة مألوفة ، وتقليد أخذ يفقد سحره ، الشعوب القديمة تحتقر الموت ، الموت عادة من العادات ، لاحظْ أن النساء يشعرن بالمتعة كثيراً في حضور الجنائز ، فيصدرن الأوامر ، ويسدين النصائح ، وتشعر النساء بالراحة في الجنائز . الأب سنتسبان س ، خ يتحدث عن الموت بثقة كبرى ، وربما أَلِف ذلك بحكم المهنة ، جاء في التوراة أن كلباً حيّاً خير من أسد ميت ، هذا حكم صحيح حقاً ، دودة أرض حية خير من امرأة ميتة باهرة الجمال ، ماذا يُجديك إنْ ربحت الدنيا وخسرت روحك ؟ وهذا قول حق أيضاً ، الخال كليتو يعزف الجاز باند بقرع عُصيّة بمنضدة ، أو بصحن ، أو بزجاجة ، أو بالقصرية ، أو بإطار نافذة ، كل شيء من الأشياء له صوتُه المميز ، المهم أن تجعله يطلق الصوت في حينه لا قبل ولا بعد ، الخالة خيسوسا لن تستطيع سماع ضراط الخال كليتو مرة أخرى ، فمن السماء لا تُسمع الأصوات المنكرة ، وظلت الخالة إيميليتا وحيدة للغاية .

ـ قاع ، قاع بحيرة آنتيلا لم يبلغه أحد ، ومن يعبر بحيرة آنتيلا يفقد الذاكرة ويُحكم عليه بالهلاك إلى الأبد ، فاقدو الذاكرة لا يستطيعون النجاة لأن الله والقديسين يقدورون الذاكرة تقديراً جمّاً ، في الذاكرة يعشش الألم ، لكنْ يعشش العزم والإرادة أيضاً .

دون كلوديو بلانكو رسبينو لا ينظر بعين الرضا إلى دونيا آرخينتينا بيدويرا أرملة سوموثا ، لأنها امرأة تتكلم بأكثر مما ينبغي لها ، والثرثرة عادة سيئة تجلب شروراً كبرى على المجتمع ، وما أهون هذه الجملة! بل يمكن للثرثرة أن تشعل الحروب ، وتطلق الأوبئة وكوارث أخر ، دون كلوديو حم الأعور باغميان ظل مطرقاً وصامتاً حتى كان بالإمكان سماع همس طيران ذبابة ، بحيرة آنتيلا ملأى بالبعوض والضفادع وحيات الماء ، وأموات أنطاكية يطلبون المغفرة قارعين الأجراس ليلة سان خوان ، وقلما تدق الأجرس مغمورة بالماء .

ـ ما لي ولهذه الأفكار! ذلك بأن ضميري يؤنبني .

دون أبريخمو فرميناس والد الآنسة رامونا ، كان يعزف على البانخو بحرية كبرى ، السوء في أنه مات ، روكينيو المغفل الذي ظل خمس سنوات في صندوق من الصفيح ذي ألوان بهيجة ، وخطوط تزيينية متشابكة متعرجة ، تنهال عليه أمه بالضرب دائماً ، سيكونديا تدخن حين لا تُرى ، وتغسل أعقاب السجائر بالخل وتحضر التبغ جيداً ، أرسلتها ريميديوس صاحبة حانة روكو .

ـ هي حمارة ، لكنها تعمل جيداً ، والمغفل غير مزعج لأنها تركنه في زاوية ، ويظل هادئاً كل الوقت حتى لا يتنفس أحياناً .

قالت الآنسة رامونا للخال كليتو .

ـ ريميديوس تقول : لا يوجد تحت يدها رجل ، لكن سيكونديدنا ستقوم بالتنظيف جيداً ، يمكنها أن تأتي غداً صباحاً باكراً .

ـ إذاً ، فلتأت غداً الساعة الثانية عشرة وليس قبل ذلك .

أم الآنسة رامونا أغرقت نفسها في نهر آسنيرو ، بعضهم يغرق في طشت ، أم الآنسة رامونا كانت امرأة متميزة ورقيقة ، كانت من تلك النساء اللاتي يرغبن في الموت دائماً .

ـ أتذكر أنها كانت معجبة جداً بشعر بيكر .

ـ هذا لا يدهشني .

كل شيء في بيت الخال كليتو فوضى ومعطّل ، فالمضخة التي ترفع الماء من البئر محطمة ، وزجاج النوافذ مهشّم ، زجاج النوافذ كلها ، ووضع عوضاً عنه ألواح من الكرتون والصفيح ، وكذلك كراسي القش ، والبيت دون نور ، والاتصال الهاتفي مقطوع ، واكتظّ المكان بالعناكب ، وماتت الكلبة بسبورا وهي تعوي ، كانت الكلبة بسبورا تعوي لأنها كانت تشمّ رائحة موتين ، موت الخالة خيسوسا ورائحة موتها ذاته ، سيكونديدنا جمعت كومة من العلب والأوراق والسترات والأحذية ، والمشمع الذي بلغ طولُه عشرةَ أمتار على الأقل ، ثم أضرمت فيها النار لما طلب إليها ذلك ، وليس قبله ، بعضهم يؤمن بالتطيّر ، والبعض الآخر لا يؤمن ، ذلك حسب النشأة والذوق ، بعضهم يؤمن بالمعجزات والمنتجعات الصحية ، وبعضهم ليسوا كذلك ، ربما كان ذلك راجعاً إلى تربية كل فرد أيضاً ، وبعض الآلهة رقيق وحسن التربية مثل سُوثِلوس ذي اللحية وثيرنونّو ذي القرنين ، وبعض الآلهة فظّ وسيّء التربية يجلب سوء الحظ مجرّد ذكر اسمه . موجات من الجهل تنبسط فوقنا جميعاً دون أن نستطيع تجنّبها ولا أن نتوقّاها ، حذر روبين لبوثان الليلة الفائتة الآنسة رامونا من ذلك .

ـ هذا الطوفان من الجهل سيُفسح المجال لردود فعل مرة جداً ، يا مونتشا ، وأنا لا أعرف ترياقاً لهذا السم .

ـ ولا أنا يا روبين ، فلننتظر إلى أن يمر دون أن يجرفنا .

ريموندو كسندولفس يدندن بترنيمة القلب الأقدس وهو يحلق ذقنه ، يا قلب يسوع ذا الجلال غير المحدود ، يا قلب يسوع مصدر كل تعزية .

ـ ألا تعرف شيئاً آخر ؟

ـ وأنتِ ماذا يعنيكِ من ذلك ؟

كان ريموندو يردد أيضاً أغنيتي وجهي صوب الشمس ، وحصاني الصغير ، أما الأوريامندي ، فكان يصفر بها لأنه ما كان يعرف الكلمات ، والشيء ذاته بالنسبة لنشيد رييغو ، لكن ، لا بدّ من الحذر عند ترنيم هذا الأخير لأنه قد يسبّب الضيق لأحد ما . وما كان ريموندو كسندولفس ينسى زهرة الكاميليا البيضاء التي يهديها إلى الآنسة رامونا ، معلوم أن الحزن لم يغزُ ذاكرته .

ـ خذي مونتشا ، هذا يشبه أن يكون التزاماً مني نحوك ، لترَي أني أتذكرك دائماً .

ـ كلا ، يا ريموندينيو ، أنا أعلم أن تصرفك معي يشبه الالتزام ، وأنت تقوله ولا ضرورة لتذكّر الالتزامات فهي كالتنفّس ، أنا بالنسبة لك كالتنفس ، هو محزن لكنه حقيقي ، وقد لا يكون محزناً أيضاً .

بلدوميرو ماربيس كساريس ، أو تريبيرو والد الأخوة غاموثو التسعة ، كان يقول دائماً : الربح صعب كالخسارة ، لا بد لنا من أن نشقّ طريقنا في الحياة بقوة ، نعم ، لكن دون ضوضاء مفرطة ، ودون إلحاق أذى بالغير ،

إلحاق الضرر بالآخرين قد يكون ذا نتائج وخيمة ، لأن الخناجر قد تبرق حينئذ ، وليست كل الأجسام وافرة اللحم ، بل إن بعضها ضامر ، نونثينيا سبديلّه أرادت أن ترى الدنيا ولم تتجاوز بورغاس ، يفكر المرء في أنه سيأكل كل ما يُلقى إليه ، لكنه يرى بعدئذ أن الأمر ليس كذلك ، ولا يأكل حتى قطعة صغيرة ، ثم عليه أن يطأطئ الرأس كيلا يُقتلَ ضرباً بالهراوة ، قاسٍ أن تحمل على الإخفاق والاصطبار ، ضفادع كونتية تيبِّراري ليس لديها ما تنافس فيه ضفادع بحيرة آنتيلا .

ـ أتلقّيت رسالة من دونيا أرخِنتينا ؟

ـ نعم ، كانت رسالة حكت لي فيها قصة الطيارين ، انظر ماذا تقول : هذي هي مدرسة بِدْرينِس باسم طيّار مشهور كان يتعاقد مع لجنة الاحتفالات لمشاهدة الحركات البهلونية التي يؤدّيها بطائرته في الهواء . كانت الألعاب تُعرض ليلاً بطائرة مزدانة بالمصابيح الملونة ، سبق أن قلت لك ذلك . يا له من مشهد احتفالي! كان يُدفع من أجل الجلوس على مقعد قابل للطي من ٢٥ إلى ٥٠ بيزيتة حسب المكان ، أما الآخرون ، وخاصة الأطفال ، فكانوا يتحلّقون حول الملعب . أأتعبك ؟

ـ لا! لا! تابعي!

ـ حسن! كانت النساء يُقبلن أنيقاتٍ للغاية ، ومعتمرات قبّعات مزدانة برسوم الأطفال والعصافير ، ويلبسن تنانير طويلة تصل حتى العقبين . كانت أسماء الطيارين... حسن! لن أتابع القراءة ، فأنت تعرف ذلك كله .التاريخ يجري كحصان دون لجام ، ككلب صيد يطارد أرنباً ، يجري كالحريش ، الأوراق البيض والصفر في التقويم أخذت تساقط كأوراق التين الخضر والصفر ، كأوراق التين اليابسة ، تين لم يبق منه شجرة واحدة ، واخترع

الناس فن تلقيح البقرة على البارد دون أن يعلوها الثور كما جرت العادة منذ أن خلق الله البقرة والثور ، التاريخ يجري فوق الزمن ، أحياناً ، تجري الأشياء خارج زمنها نتيجة خطأ في التاريخ ، مثلاً ، لِمَ لم تخرج الأفيال من سفينة نوح ؟ نوربيرتو سوموثا دونفريان ، حفيد دونيا آرخينتينا ، طبيب بيطري عصري .

ـ نعم ، نعم ، أعلم أنه آخر صيحة في دنيا العلم ، ولست من يُنكر ذلك ، لكن نوربيرتو خنزير يعمل في مجال التلقيح الصناعي ، لا شك في ذلك ، وإذْ أراه يساعد الخوري في القداس بكل تقوى ، أسأل نفسي ، ماذا ينفعه إن كان يكسب عيشه من مداعبة مؤخرات البقر ؟

ما يزال يلزمُ بعضُ الوقت كيما يُمكن فهم هذا الوضع ، والتاريخ ليس دائماً شاهداً على العصور ، ولا هو نور الحقيقة ، أو حياةُ الذاكرة ، الخ... ، حول هذه النقطة يدور لَغَطٌ كبير .

ـ لا أستطيع صنعَ شيء ، أنا راغب في سماع صوت السهم الناري ، وإذا لم أسمع فرقعة السهم الناري ، فلن أستطيع عمل شيء وليست لديّ القوى لأعمل شيئاً . أتناولينني مزيداً من الكونياك ؟

ـ نعم .

لطالما بكت الخالتان خيسوسا وإيميليتا بغزارة ، قضتا نصف حياتهما على الأقل وهما تبكيان ، الخال كليتو ما كان يأبه لهما البتّة ، ولا حاجة به إلى ذلك ، أيعجبهما البكاء ؟ إذاً ، فلتبكيا! بالبكاء لا تزعجان أحداً ، بل قد تسبّبان إزعاجاً أحياناً لكنه لا يبالي بذلك ، على الأرجح ، لا تزال الخالة خيسوسا تبكي في المطهر .

ـ أو في السماء ؟

ـ لا! في السماء لا يبكي أحد .

لما قيل للعم إيبليو اكسابرين إن بِيْثِنْتِهِ تشابرو بن سلمندريروس في مشفى أورينسه ، قال : «فَلْيُقتلْ قبل أن يشفى» ، وتابع التدخين في غليونه الفخّاري ، مقلّداً الإنكليز ، خُنق بيثنته في اليوم التالي بالمخدّة ، إذ سيطر عليه رجلان اثنان ، وجلس رجل آخر فوقه إلى أن لفظ أنفاسه ، ولم يطلق أحد سهماً نارياً واحداً ، الحقيقة أن بِيْثِنْتِهِ تشابرو ضئيل الأهمية ، كان خنزيراً بائساً لا يبلغ أن يكون حقيراً .

ـ كم تَحسَبُ ، يا سيدي ، أن يساوي قتيلٌ تافه الشأن ، وإن كان من أبناء البلد ؟

ـ لا أدري! قد لا يساوي شيئاً كبيراً ، أرجح أن يُقتل مجاناً .

تمطر فوق مفرق آرِنْتِرِينيو وجدول ريكوبيتو حيث تُطفئ الثعلبة حرارة جسمها بينا محور عربة توبوليستان ، أوتوبِلّو ، أمهر صيادي الحيوانات في الأبرشية كلها ، يغني بصرخة جريحة وهو يصعد درب مُوسْتيرون .

ـ أتتذكر منذ متى شُنق أطفال موستيرون الخمسة ؟

تمطر بغزارة على الخطاة والفضلاء ، على العلماء والأبرياء والجداول ، تمطر علينا ، تمطر على الليونيين والبرتغاليين ، على الرجال والنساء وعلى الحيوانات والأشجار والنباتات والصخور ، تمطر على الجلد وعلى القلوب وعلى الروح ، على الروح أيضاً ، تمطر على قوى الروح الثلاث .

ـ أتتذكر لما قتلت الصاعقة طفلين في مرنييس الواقعة خلف جبل فورميغيروس ؟

الآنسة رامونا ، وريموندو كسندولفِس وروبين لبوثان يحملون مظلاتهم ، ويسيرون في نزهة ببطء تحت المطر ، أرجح أنهم يرغبون في أن يتبلّلوا .

ـ أتستطيع العيش في بلد لا تمطر فيه ؟

ـ نعم ، لِمَ لا ؟ الإنسان يعتاد كل شيء ، انظر إلى الإنكليز والهولنديين ، في البلدان التي لا تمطر فيها ، توجد حياة ومشاعر أيضاً ، جهدت كثيراً كيما أستطيع تخيلها ، لكن الأمر هو هكذا ، يقيناً هو هكذا .

بيثِنْتِهِ تشابرو بن سيلمندريروس مات دون أهمية ، فالسيقان والحمقى لا تُدهن بالزيت المقدس ، ولا تُشرّح أيضاً ، ولأي شيء ؟ وإن ماتوا مختنقين محركين سيقانهم ، لم تجر العادة في ذلك ، والفرصة غيرُ متاحةٍ لهم ، ليس لدى أحد وقت فائض ينفقه من أجلهم ، الدجّالون يكفيهم أن يُلقى بهم في حفر مشتركة ، وصلاة « أبانا » لكل اثنين منهم ، بيثنته تشابرو كان سيئاً حتى دون إرادة منه ، وهذا له ثمن .

ـ أأُعْلِمتْ أسرتُه ؟

ـ لا! ولا هي افتقدته أيضاً .

روبين لِبُوثان يتحدّث عن الوحدة بينا يستمع إليه ريموندو كسندولفس والآنسة رامونا ، وهم يسيرون جميعاً تحت المطر برزانة ، صامتين وهادئين وربما سعيدين ، روبين لبوثان كان ، كفيلسوف صغير ، يقطع من حين لآخر حبل الصمت ويتكلم .

ـ الوحدة ليست سيئة ، فالله واحد أحد ، ولا يحتاج إلى صحبة ، بالطبع ، ليس الإنسان إلهاً ، أعرف ذلك ، الكتب المقدسة تقول إن الوحدة سيئ

لكنني لا أؤمن بذلك ، الوحدة تحلّي الروح والاختلاط يدنّسها ، غالباً ما يدنسها ، صحيح أن الشيطان يعشّش في القلب المتوحّد ، لكنْ ليس من الصعب إخافتُه وطرده منه ، الصمت يسع من الفرح أكثر من الهرج ، والهدوء رفيق صاحب الوحدة دائماً ، أتوجد الوحدة إلا إزاء صُحبة غيرِ مرغوب فيها ؟ يهرب الإنسان من الوحدة إذا خاف من نفسه ، إذا ضجر من ذاته ، فالمستمني ، ومعذرةً يا مونتشينيا ، لا يمكن له أن يشعر بتأنيب الضمير ، لا يمكن له أن يضجر وحيداً ، ولا بد للمستمني من أن يستمتعَ بفخرٍ بوحدته المستقلّة الرائعة ، يقول مَتْشادو إن قلباً متوحداً ليس قلباً ، قول جميل وذكي أيضاً ، لكن لا شيء آخر ، لأنه ليس صحيحاً ، والآن ، لا يمكنني الكلام عن متشادو ، عن أنطونيو مَتْشادو ، لكن نعم ، يمكنني الحديث عن مَتْشادو(١) الآخر ، السرّ هو أن تحيا بمعزل عن كل الأشياء ، هو موقف صعب بلوغُه ، يكاد يكون جنة عدن ، توجد إمكانيتان فقط ، إما أن تكون الوحدة مرغوباً فيها ، ويُبحث عنها ، وإما أن تكون الوحدة مخوفة وجالبة للهم ، في الحالة الأولى هي مكافأة ، وفي الحالة الثانية هي ضريبة ، ضريبة الاستقلال ، وهي أثمن بركة يمكن أن تهديها الآلهة لبني البشر ، واعذراني لإزعاجكما بحديثي المطول .

تانيس غاموثو يعبر الطريق بكلباته الأربع ، فلور ، وبيرلا ، وميغا ، بولبوريتا ، هو يخرجها للنزهة ولتنشّط عضلاتها قليلاً ، لكنه لا يدفع بها للصراع مع الذئاب ، لأنها تساوي مبلغاً ضخماً ، الذكور أمثال سلطان ، وموريتو ، وليون ، ومرنييرو ، أصلب عوداً منها ، أما تسار فيعرج من رجله ، حسن! هي ليست أصلب عوداً من الإناث دائماً ، وإنما أرخص منها على الأقل ، ولا يمكن إخراجُ الذكور للنزهة ، لأنها تعضّ بعضها بعضاً ، وهي

---

(١) يقصد مانويل متشادو (١٨٧٤-١٩٤٧) شقيق الشاعر أنطونيو (١٨٧٥- ١٩٣٩) ، وهو شاعر أيضاً (المترجم)

لا تعرف وضعاً آخر غير مواجهة العدو ، إنها نبيلة وهادئة ، لكنها تضجر أحياناً وتتعارك وتتهارش حسبما يُهيأ لها ، حينئذ قد تصبح خطيرة لأنها ذات قوة لا تصدق ، كلاب تانيس يزن الواحد منها فوق ثمانين كيلو غراماً ، وربما وصل وزن مرنييرو إلى مائة كيلو ، ولا موجب للسير بها بعيداً ، الإناث ليست بهذا الوزن ، لكنّ الفروق ليست كبيرة .

ـ متى نسمع صوت السهم الناري ؟

ويبتسم تانيس بيريلو .

ـ عما قليل ، يا امرأة ، عما قليل .

تانيس يُعنى بكلابه عناية فائقة ويحدب عليها ، ويغذّيها كما ينبغي لها ، وينظّفها ويطهرّها من القراد ، ويعطيها اللقاح في موعده ويخرجها لتروض قوائمها ، كلاب تانيس هي موضع إعجاب المنطقة كلّها وحسدها وفخرها ، لا توجد كلاب تضاهيها ، أو تشبهها على بعد فراسخ كثيرة من هنا .

ـ كم تساوي كلابك يا تانيس ؟

ـ ماذا يفيدك إن كنت لا أبيعها ؟

نبشت آدغا قبر القتيل الذي قتل زوجها ، وساعدتها على ذلك بنتها بينيثيا التي حلمتاها كحبتي كستناء تشيع السرور في النفس رؤيتهما ، في هذه الأثناء ، لم يكن القتيل قد قُتل بعد ، لكنه لن يلبث حتى يُقتل ، ولا ضرورة للعجلة ، السهم الناري قد ينفجر في لحظة هي أقل اللحظات توقُّعاً ، وإذا كان من تعرف أكثر اطمئناناً ، فذلك أفضل ، آدِغا تقصّ الحكاية على دون كاميلو ، وليس هو وحده من يعرف الأمور فقط .

ـ أنت ، دون كاميلو ، من آل غوكسينده ، وكان زوجي كذلك ، بل الأحرى ، أنت موراني وقد قلّ عدد آل موران اليوم ، لأن الموت تفشّى فيهم على أرجح الأقوال . نبشتُ الميت الذي قتل زوجي بيدي هاتين بمعونة فأس صغيرة رُشّت بالماء المقدس كيلا تنتقل إليها العدوى ، ساعدتني على ذلك بنتي بينيثيا ولا أحد آخر غيرها ، أنا أعلم جيداً أن الله سيغفر لي أنْ سرقتُ منه ميتاً ، لأن الموتى ملك الله ، كان ذلك يوم القديس الآباتي سان سابا في مقبرة كريبينو ، نقلته على عربة وغطّيته ببعض أغصان الرتم ذاتِ الرائحة الذكية ، قضيت زمناً طويلاً حتى أخرجته من الأرض ، لبثتُ أكثر من ثلاث ساعات ، كانت الديدان تتساقط من الميت وكانت له رائحة هالك نَتِنَة لأن الموتى الذين أرواحهم في الجحيم تسوء رائحتهم . ألقيت بجثته إلى الخنزير ، الذي أكلتُه فيما بعد . كان لحمُه طيّبَ المذاق جداً ، وقطّعته ، لحم الموزات إلى جهة ، والأمعاء إلى جهة أخرى ، ولحم الفخذ عالجته فوق دخان المدفأة ثم لحم الخاصرة والدهن إلى جانب ، حتى لم يبقَ منه شيء ، إذا تذكرتُ القتيل اشمأزّت نفسي ، فأفكّر في شيء آخر ، أفكر في سيدنا المسيح على الصليب ، أفكّر في أخي غودنثيو لما كان طالباً في مدرسة دينية ، ولما صار أعمى يعزف على الأكورديون ، لا فرق عندي ، وأشربُ جرعة من الخمر ، وزّعت قسماً من اللحم على الأقرباء كيما يتذوّقوه ويبلعوا أصابعهم وراءه . كانت الآنسة رامونا الشخصَ الوحيد الذي قصصت عليه ما قمت به ، لم تفتح فمها بكلمة ، وإنما سقطت من عينها دمعة وقبّلَتْني وأعطتني بعض الذهب .

ابتسمت الآنسة رامونا بشيء من الحزن وقالت لآدغا بعض الكلمات التي لم تكنْ تحوي سراً كبيراً .

ـ رجالنا لا يمكن لأحد أن ينال منهم ، يا آدِغا ، ها أنت ترين أين انتهى من يريد خرق قانون الجبل .

روكو صاحب الحانة يقول لعنصر الحرس المدني فاوستو بيلنتشون غونثالث إن غودنثيو لم يعزف الماثوركا (صغيرتي ماريان) إلا مرتين ، يوم سان خواكين عام ١٩٣٦ ويوم آندرس عام ١٩٣٩ .

ـ سمعت أن ذلك كان يوم سان مارتن ١٩٣٦ ، ويوم سان هيلاريو عام ١٩٤٠ .

ـ إذاً ، سمعت خطأً ، الناس تخلط الأمور عمداً ، ولهم دوافعهم الخاصة .

توبوبليستان أوتوبِلّو ذو شاربين خشنين ، وله مظهر ثعلب حذر ناضج يهبط سفح مرتفع فوكسينيو .

ـ ألم ترَ أحداً ؟

ـ ومن ينبغي لي أن أراه ؟

ـ كائناً من كان . ألم ترَ أحداً ؟

ـ لا! يا سيدي ، لم أر أحداً .

ـ أقسم لي على ذلك!

ـ أقسم!

توبوليستان أو توبلو يخمن أن آل غوكسينده استعدوا للحرب ، هم صامتون حقاً لكنهم يقفون متأهبين للحرب ، إذا تحرك آل غوكسينده بصمت ، فالحذر في الابتعاد عنهم ، وإذا كان آل موران وراءهم ، فالخير في عدم الخروج من البيت لأن حريق طروادة سيندلع .

ـ منذ متى لم تشرب من ماء ينبوع بوثاس ديغاغو ؟

ـ منذ شهر على أقل تقدير . أقضي معظم وقتي هذه الأيام في أنحاء كسيري وسانتا ماريا ، آخر ذنب رأيته كان في سان بدرو ديدادين ، تغلغل في جبل داس كوباس في طريق بلدويده .

ـ حسن!

طُرد غودنثيو من المدرسة الدينية لما بدأ يفقد بصره ، لأن إدارة المدرسة لا تريد أن تتحمّل أعباء الإحسان وعقابيله .

ـ لا خوري حتى ينشدَ القداس ، أأنشد هذا القداس ؟ لا ؟ إذاً ، فليُصرف ، المدرسة الدينية ليست ملجأ ، و«سفينة» الكنيسة يجب أن يتاح لها الإبحار الحر دون عقبات غير مجدية .

ـ حقاً ، يا دون خيمينو!

وكان دون خيمينو مدير الدروس في المدرسة الدينية في سان فرناندو دِه أورينسه ، دون خيمينو كان مشهوراً بخبث طويّته وخلوّه من الرحمة . كذلك ، كانت تفوح منه رائحة الثوم ، وهو يتشدّق عادة بكلمات لاتينية ، دون خيمينو كان ضليعاً في اللاتينية ، وكان معجباً على وجه خاص بالعالم الملائكي القديس توما الإكويني «رسالته الجامعة في الرد على الوثنيين» ، تحوي كل معرفة العصور الوسطى ، واليوم تسري ميول شيطانية ومخنّثة ، وتجري تيارات من الأفكار الماسونية والمانعة ، وكان الأعمى غودنثيو حسن الحظ ، الحقيقة أنه لا يستطيع أن يشكو ، ولو فعل لما غفر الله له ، أما وأنه يعرف العزف على الأكورديون ، وأنه من طبيعة مرحة ، فقد استطاع أن يجد الراحة والأمان في بيت لابروتشا ، دونيا بورا إنسان طيب ، صحيح أنها لا تأبه بتعاليم الشريعة الإلهية ، لكنها في جوهرها إنسان صالح .

ـ في الشارع لن تظل ، أتعرف العزف على الأكورديون ؟ إذاً ، فلتعزف ، هذا يجلب الفرح دائماً .

أنونثيا ثيون سبديله أحلى من مارتا البرتغالية ، وكلاهما يحبان الأعمى غودنثيو ، كون المرء أعمى يساعده كثيراً على اكتساب حظوة عند النساء . بريثيبتو منديث ، صاحب محلات تصوير منديث عمل حوالي دستتين من الصور الفنية لبروتشا الشابة ، عارية أو متدثّرة بطرحتها الحريرية ، من المؤسف ألا يستطيع غودنثيو رؤيتها ، فالعميان لا تثار غرائزهم بالبصر ، وإنما بالسمع والشم والذوق واللمس ، خاصة اللمس ، نساء اليوم يبدون فظّاتٍ بالمقارنة مع بروتشا بطرحتها الحريرية ، وأحد ثدييها مظلل والآخر في الضوء ، والفن هو الفن ، واليوم يسود انفلاش كبير من القيود ، بيسي لها زبن أكثر عدداً من فيرمينا ، لها ضعفها تقريباً ، وهذا ما لا أفهمه ، لكن الوضع هكذا ، والناس غريبو الأطور جداً ، دون تيودوسيو يشغل عادة ببيسي ، المرأة التي تعرف أكاذيبه وهوسه ، ويعود دون تيودوسيو إلى منزله منشرح الصدر سعيداً .

ـ لا تكثري من شرب اليانسون يا خيما ، قلت لك إنه ضار بالحكة الشرجية .

ـ اخرس ، أنت!

ـ كما يعجبك ، الحكة حكتك .

فلوريان سوتولو دوريكسان ، الشرطي في مخفر باركو ديبلديوراس والخبير في العزف على مزمار القربة ، والماهر في المداواة بالعزائم وفنون السحر ، قتل في جبهة ترويل ، فما إن وصل : ثاث! حتى أصيب بطلقة بين حاجبيه وخر صريعاً ، فلوريان سوتولو كان له سالفان على شكل حرف

فأس ، وشاربان أنيقان ، نصف علبة التبغ التي يحملها إلى العالم الآخر ، دخّنها الخوري .

ـ امنحه الراحةَ الأبدية ، يا الله ، واجعل نورك الأزلي يضيء دربه ، يا ربنا .

في مجال الحروب والموت الذي يوزّع مجاناً ، مَنْ لا يُسرع ، يُمزق ، ظلت بسيليسيا المغفّلة ترسل التبغ والشوكولا للعريف بسكوالينو آنتميل كتشيشو بعد موته ، ما كانت بسيليسيا تعلم بمقتله ، وكانت تظن أنه التقى امرأة أخرى خيراً منها ، وكانت تجهل أنها صارت حرّةً من كل التزام . أحياناً كثيرة نجهل موقعنا ذاته ، وعلى وجه خاص في الحروب ، بعضهم يموت من قبلُ ، وبعضهم يموت من بعدُ ، وبعضهم يبقى على قيد الحياة ليقصَّ ذلك كلّه . وشوكولا القتلى وتبغهم تذهب لمنفعة أحد ما ، فهنا لا يضيع أي شيء .

ـ أتعلم كم الساعة الآن ؟

ـ لا! ولم أعرفها أبداً ؛ وهو أمر لا يهمني في شيء .

قُتل ميثيفو دون أن يحزن عليه أحد ، ودون فخر ، ولم تسكبْ عليه دمعة واحدة أيٌّ من عواهر بيت بروتشا ، بل على العكس من ذلك ، ابتهجن جميعاً ، بعضهن كثيراً والبعض الآخر قليلاً .

ـ أكان سفّاحاً مثل دون خيسوس منثنيدو ؟

ـ كلاهما من طينة واحدة ، كان مختلفاً عنه ، لكنْ لم يكنْ لدى أيّ منهما شيء إلا عند الآخر مثله .

قُتل لاثرو كودسال ولمّا يكتملْ نموُّه ، أحياناً يأتي الموت عجلانَ

عجلة فعالة جداً وحارّة ، لاثرو كودسال قتله مغربي في حملة الريف ، فالرصاص ليس مغربياً ولا مسيحياً ، الرصاص قاسٍ ولا يميّز بين هذا وذاك ، هو أعمى أيضاً وكل العميان تقريباً يعرفون العزف على الأكورديون ، حرف الجبل امّحى مذ قُتل لاثرو كودسال ولم يرَه أحد مرّةً أخرى ، حتى الذئاب والبومات والنسور لم تره ، لاثرو كودسال كان ذا شعر بلون الجزر ، وعيناه زرقاوان غامضتان كالتركواز ، كان مؤسفاً أن أصابه المغربيُّ التيس ، ولا يعرف أحد من كان هذا المغربي ولا هو نفسه يعرفه .

ـ أتريد قهوة ؟

ـ لا! هي تحرمني النوم .

عاد روبين لبوثان إلى ما كَتَبَهَ ، هو يحفظ مقاطع كاملة منه عن ظهر قلب ، ويتذكّر حتى الشطبات ، كان لاثرو كودسال القتيلَ الأول في هذه القصة الحقيقية التي ما إن بُدئ بقصها حتى قيل : روبيستيانو تروله مات في مراكش في موقع عليشيك ، قتله مغربي من قبيلة أورياكيل حسب أرجح الآراء ، وروبيستيانو تاروله كان ماهراً جداً بإحبال الفتيات ، أو كان يجعلهن يحبلن بفن ، وكان هواه أن يفعل ذلك ، القتيل الأخير لما يُقتل ، يوجد دائماً قتيل معلّق في هذه القصة التي لا تنتهي كسلسلة متصلة من القتلى ، سلسلة تحركها العطالة . ربما كان لاثرو كودسال غروباس ، روبيستيانو تاروله غروباس نفسه ، وقد لا يكون ، تلك الحرب جرت منذ أمدٍ بعيد ، في جانب منها وقف المسيحيون ، وفي الجانب الآخر المغاربة وهكذا لا مجال للبْس ، يومئذ ، كانت الأخبار تصلُ متأخرة ، وكان الناس أقلّ هلعاً وفساداً ، وكانت الأمراض أوسع انتشاراً ، لكن ، ما كان يُهدر كلُّ هذا الدم دون سبب ، والدم المهدور ليس كمية ، وإنما هو نسبة ، وأنا أعرف نفسي .

ـ أتعلم أنه يسير في هذه الأنحاء ؟

ـ لا!

ـ أتريد أن أقول لك أين ؟

ـ لا بأس!

بوليكاربو بن البغنييرا فقد ثلاثة أصابع من يده ، نزعها منه حصان ، بوليكاربو بن البغنييرا يستطيع ترويض حيوانات الجبل الوديعة منها والوحشية ، والحيوانات التي تثبُتُ في مواقعها وتعضّ ، والحيوانات التي تختفي وتهرب ، بوليكاربو بن البغنييرا يخفّض صوته .

ـ إذاً ، هو في بيغا ده آبيكسو ، في بيت مينغوس بن مرّوبيو ، غداً سيتوجّه إلى سيلبابوا .

ـ كيف عرفت ؟

ـ حكته لي أونكسيا بنت مينغوس ، أظنّ أن أباها أرسلها إليّ .

ـ ممكن!

تانيس غاموثو كان ذا قوة تشبه قوّةَ ثور ، كان يستطيع أن يُوْقف بغلة بيده ، كلاب تانيس كريمة الأصل وهادئة وقوية وشجاعة وذكية ، متى تضجر تعض بعضها بعضاً ، وكل الناس تعلم أن سلطان وموريتو يكفيان وحدهما لإخافة ذئب ثاكوميرا ، أو خنزير دوبالداس إيغواس الذي يتسلّق البلّوط ليأكل الثمار . سلطان ومورتيو يشمّان رائحة ابن القحبة من مسافة بعيدة ، يتشمّان رائحة العلامات التسع ، بعض العلامات لا تُطلق الرائحةَ بوضوح ، الحقيقة أنها لا تطلق أية رائحة تقريباً ، حسن! اثنتان منها تطلقان رائحة عرق اليدين ، ورائحة نتن قلفته الحزينة ، لكن الشم هو التشم ، سلطان

وموريتو واثقان بنفسيهما جداً ، ورصينان ، وإذا شاءا انقلبا شرسين ، يكادان لا يحتاجان إلى ذلك أبداً لأنهما ذوا قوة خارقة .

ـ ماذا ستصنع ؟

ـ وأنت ماذا يعنيك من ذلك ؟

صار تانيس غاموثو شبه طائش ، تانيس غاموثو يتحرّك دائماً بخفّة فائقة ، لكنه الآن نصف طائش ، ذلك بأن الأفكار تتزاحم عليه ، بعضها في رأسه ، وبعضها الآخر في قلبه ، والبعض الثالث في حلقه ، بعض الأفكار بطيئة ذاوية ، وتتراكم الذكريات أيضاً كالزنانير ، وهي ذكريات غدّارة حزينة .

ـ أحقاً تؤلمك أسنانك ؟

ـ ومن قال لك ذلك ؟

ـ أحقاً تؤلمك أذناك ؟

ـ وأنت ما لك ولهذا!

يحاول تانيس غاموثو أن ينظِّم أفكارَه وذكرياته ، وكذلك رغباته أيضاً ، وواجباته وسلوكه ، الخوف حشرجة تقضمُ عظام الروح ، على الأرجح تقضم عظام الروح الرقيقة منذ سنين طوال دون أن يدري بها أحد ، فالخطوات التي كُتِب عليك أن تخطوَها ، تخطوها ببساطة ، وعند الضرورة تخطوها وأنت مغمض العينين ، ولا يمكن للمرء أن يسأل نفسه عن ذلك ، فوق البشر شريعة الله ، الشريعة التي تحكمنا ، ذلك كأنما الله يرصدنا من كوّة بين سحابتين ، والله يحمل دائماً في يده صاعقة .

ـ لقد قلّبت الأمر على كل وجوهه ، وليغفر الله لي! نعم ، أمعنت التفكير فيه ، ويلزمني الآن أن أحس به حتى يأخذ ضميري بتأنيبي ،

تأنيباً ضئيلاً أولاً ، ثم يتصاعد حتى يصبح أخيراً ألماً في الأسنان وفي السمع ، ومنذ تلك اللحظة ، يمسي كل شيء شربة ماء ، ولا يهمني حينئذ أن تؤلمني أضراسي وأذناي قليلاً ، بل هي تؤلمني جَداً ، لكنني لا أبالي وسوف يزول الألم عنّي .

كان الليل لا يزال مخيماً لما وصل تانيس غاموثو إلى جبل لامينياس بين سيلبابوا وفلوغوسا وموستيرون ، وكان الناس لا يزالون نياماً ، والكلاب تعوي عند انبلاج الفجر ، تانيس غاموثو يسير وكلبين فقط ، فقد يصعب التحكم بها إذا زاد عددها وشكلت سرباً ، لأنها تعمى أبصارها وتصبح مجنونة وتفقد احترامها لسيدها إذا زادت عن ثلاثة واندفعت في غلوانها .

ـ لو شئت تخلّيت عنه ، وهي تمطر الآن ، الحقيقة أنها تمطر دائماً ، والآن تؤلمني أسناني وأذناي ألماً شديداً ، لكني لا أبالي بالألم حقاً ، أنا أُمرتُ بما أمرت ، لكن لم يُقل لي أنّ الأمر لا بد من أن ينفّذ يوم ثلاثاء أو أربعاء أو خميس . لم يُحدّد لي الوقت ، لو أردت تخليت عنه ، أستطيع أن أتخلى عنه إذا أردت ، لكن المسألة أني لا أريد .

تمطر على أرض الجبل وعلى ماء الجداول والينابيع ، تمطر على الرتم وعلى البلوط والأورطنسيا وقصب الطاحون وأزاهير المقبرة ، تمطر على الأحياء والأموات وعلى من يوشك أن يموت ، تمطر على البشر وعلى الحيوانات الوديعة والشرسة ، على النساء وعلى النباتات البرية ، ونباتات الحديقة ، تمطر على جبل سنغينيو وعلى غدير داس بوثاس ديغاغو الذي يشرب منه الذئب أحياناً ، وأحياناً عنز ضائعة لن تعود إلى حظيرتها أبداً ، تمطر كما الحياة كلها ، كما الموت كله ، تمطر كما في الحرب وكما في السلم ، تبعث على الإعجاب رؤية المطر الذي لا تُعرف نهايته وربما كانت نهاية المطر نهاية

الحياة ، تمطر سحاً كما كانت تمطر قبل خلق الشمس ، تمطر برتابة ، لكن برحمة أيضاً ، تمطر دون أن تملّ السماء من أن تمطر وتمطر .

تانيس غاموثو وكلباه يسيرون تحت المطر تلفهم سحابة خرساء خادعة ، وفابيان منغيلا يسير في درب سيلبابوا ويعبر نهر الأوسيرا عند بيغاديريبا ، هو خائف ، منذ بعض الوقت وهو نهب الخوف ، ويحمل بندقية .

ـ إذا طلع عليّ ديّوث ، أقتله ، كما الله موجود أقتله .

يجلس تانيس غاموثو على صخرة ، ويمسك كلباً بيد ، وكلباً آخر باليد الأخرى ، يلفّ تانيس غاموثو سيجارة ويسحب منها نفساً عميقاً مهدئاً .

ـ أيمكن قتل اللئام أبناء القحاب كما تقتل الثعالب دون إنذار ؟

أخذ الصبح يتنفس ، لما وقف موتشو كروبو ليشرب من غدير داس بوثاس ، دنا منه تانيس غاموثو .

ـ أقول لك إني سأقتلك ، وأنا أنبّهك ، وإن كنت غير جدير بذلك .

يرفع إيل موتشو بندقيته ، ويجرده منها تانيس بعصاه ، يركع إيل موتشو على الأرض ، ويبكي ويتوسّل ، ويقول له تانيس غاموثو .

ـ لستُ أنا من يقتلك ، وإنما هو قانون الجبل ، أنا لا أستطيع أن ألقي بقانون الجبل وراء ظهري .

يتنّحى تانيس غاموتو ، ويأخذ سلطان وموريتو بعضّ إيل موتشو العض الكافي ، العض الضروري دون عضّة واحدة نافلة .

ـ كفى!

يترك سلطان وموريتو القتيل وهما يبصبصان فرحاً ، ومات فابيان منغيلا دون أن يأسف عليه أحد ، ودون مجد ، وبعد فترة قصيرة ، بعد ساعتين أو ما يقرب من ذلك ، انفجر السهم الناري الذي طار عالياً جداً .

ابتسمت الآنسة رامونا .

ـ الحمد والشكر لله!

تلك الليلة ، عزف الأعمى غودنثيو ، عازف الأكورديون في بيت العواهر ، بنفس نقية كسوسنة سان خوان ، الماثوركا : صغيرتي ماريان ، عزفها بلذة فائقة جداً وظل يعزفها حتى مطلع الفجر .

ـ ألا تعرف شيئاً آخر غيرها ؟

ـ لا!

سأل دون كَنْديدو بلّيلا سانشث التاجرُ المتجوّل ، العازف الأعمى .

ـ قل لي : أيفرحك أنْ قُتل هذا الرجل ؟

ـ نعم ، أنا فرح . ماذا تريد!

ـ أَوَ يفرحك أن يلقي به الله ربُّنا في قاع الجحيم ؟

ـ يفرحني ذلك!

ملحق وحيد

تقرير طبي شرعي

في المكان والتاريخ المذكورين سابقاً ، الخ... ،

اسم صاحب الجثة فابيان منغيلا أبرغان .

فحص الجثة خارجياً

هي جثة رجل بالغ في الخامسة والعشرين من العمر ، طوله ١,٦٠ م ، ووزنه ٥٥ كغ تقريباً . النمط المنطقي : ضعيف البنية . حالته الغذائية سليمة . مث أو إفراز دهني مفرط في المنطقة الجبهية الجدارية الخلفية من كلا الجانبين . صلع وشيك والشعر كستنائي غامق . توجد شامة في المنطقة الجبهية عليها شعر غزير .

يلبس صاحب الجثة الذي يبدو في وضع منبطح وطرفه الأماميان مثنيان ، بنطالاً مخملياً بُنيّ اللون شبه مستهلك يشاهد عليه تمزق وبقع

مشربة بالدم ، ولطخ خاصة في القسم السفلي ؛ يلبس أيضاً سترة من مخمل يميل إلى الخضرة مع تهتك وتمزق في الكم الأيسر ، ومنطقة الكتف من الجهة ذاتها . ياقة السترة عليها بقع دم بعضها مشرب ، وبعضها الآخر على شكل لطخ . يوجد تمزق في الجيب الأيمن . يلبس قميصاً من القطن رمادي اللون شبه مستهلك ، ومتسخاً عند الياقة التي فقد منها زر . تظهر على ياقة القميص المذكورة بقع كبيرة من الدم بعضها على شكل مشرب ، وبعضها على شكل راشح ، وفي الجهة اليمنى يغرق الدم كنزة من الصوف بلون أزرق يرتديها صاحب الجثة تحت القميص . البنطال الداخلي من الحرير الأبيض ومتسخ بإفراز عجيني الشكل وببقع رطبة من البول . القميص الداخلي بنصف كم ، ومن الحرير الأبيض ، وجدت عليه بقع من الدم في منطقة الكتف اليمنى والجانب الأمامي منها . يلبس القتيل حذاء بني اللون وجوربين أسودين من القطن وهي كلها ممزقة ومشربة بالدم .

تبدو على الجثة الإصابات الخارجية التالية :

تمزقات في المنطقة اليمنى من العنق حيث ترى عضلات تلك المنطقة مشرحة بصورة عملية ، توجد خزعة من الجلد تحتوي على نسيج خلوي - تحت جلدي ، وألياف كثيرة من جلد الرقبة تقع على بعد ٢ سم تحت الغضروف الدرقي ، وعلى بعد ١ سم من قبضة القص . جانب من التمزق يمتد حتى انحناءة عظم الترقوة الأمامي وبطول ٧ سم ، وجانب آخر يصل إلى المغرز الأمامي للعظم اللامي بطول ٥سم . حوافّ الجرح غير واضحة ، وإنما متهتكة وبعمق ١ سم بصورة ثابتة . لاحظنا إصاباتٍ واضحةً ناجمة عن العض بالأسنان بخط إصابة نموذجي بشكل زوايا حادة ، (أسنان غير بشرية) ، كما لاحظنا طبعة سنية في المنطقة الجانبية الخلفية اليمنى من العنق خلف

النتوء القصي الترقوي الخشائي ، وأمام الحافة النازلة من العضلة شبه المنحرفة ، توجد تهشمات كبيرة في العضلة القصية الترقوية الخشائية اليمنى ، والقصية الدرقية نفسها من ذات الجانب ، وقد ضاعت العلامات التشريحية ضياعاً كاملاً في الحزمة الوعائية العصبية ، إذ هي في حالة مزرية مع تمزق في الودج والشريان السباتي .

وجدنا إصابات ناجمة عن العض في صيوان الأذن اليمنى ، والمنطقة الحجاجية اليمنى مع تمزق كبير يبدأ من المنطقة الوجنية وينتهي قريباً من الصوار الشفوي الأيمن . على الأنف سحجات وتمزقات صغيرة ليست من المصدر ذاته الذي تسبب في الإصابات الأُخَر ، لأنها خالية من آثار الأسنان ، وقد تكون بسبب شكلها الطولاني ناجمة عن السقوط والجر . رأس الجثة ممرّغ بكمية كبيرة من أوراق الشجر الموجودة في المكان حيث عثر عليها . توجد آثار من الدم في الفم والأنف .

توجد إصابة ناجمة عن العض في الذراع الأيسر ، على أن هذه المنطقة تبدي إصابات خفيفة من ورم دموي عائدة إلى الآثار المخمدة للثياب . في اليد اليسرى توجد كسور كبيرة على مستوى الحافة الداخلية ومنطقة الضرّة . كما وجدنا إصبعي الخنصر والبنصر مهشمين جداً ، وقد صارت المنطقة الفاصلة بينهما على شكل خزعة . توجد تمزقات أيضاً في منطقة الرسغ الأيسر ، وإن لم تكن كبيرة لحماية نطاق الساعة الجلدي لها ، وقد تحطم الميناء تحطماً كاملاً ؛ في اليد اليمنى طبعة أسنان في منطقة عضلة الضرة مع خدوش متعددة على طرفي عظم الذراع وراء الرسغ . اليد المذكورة مضرجة بالدم تماماً ، ووجدنا بين الأصابع والأظفار بعض الأوبار المستقيمة والقصيرة بطول ٥ سم ، وهي مدببة في طرفها الأقصى وذات لون أبيض يميل إلى

الرمادي . بالنظر المجرد تبدو شعراً غير شعر بشري . على الذراع الأيسر يوجد وشم بلون أسود مدقوق بشكل سيء تلاحظ فيه صورة قلب يخترقه سهم مع حرفي .R T. توجد تمزقات كبيرة في عضلتي الساقين ناجمة عن العض ، وعثرنا على آثار من دم جاف على كلتا الساقين .

درجة تصلب الجثة كاملة . . لوحظت ستارة آحية على كلتا القرنيتين ، وبداية بقعة خضراء حشوية في الحفرة الإربية اليمنى . حسب طول شعر اللحية ، يبدو أن صاحب الجثة حلق لحيته منذ حوالي سبعين ساعة .

فحص الجثة داخلياً

فتحت الجثة حسب تقنية ماتا المعدلة .

ـ تجويف الجمجمة : ـ لم نعثر على أي كسر في قبة الجمجمة أو قاعدتها . السحايا طبيعية مع وزمة خفيفة في الغشاء العنكبوتي . الدماغ طبيعي ، بعمل مقطع فيه تبدو علامات الإقفار عليه . الشرايين المحيطة بالدماغ طبيعية . وجدنا في مضلع ويليس بعض العصائد الصغيرة . استدارة المخيخ وبصلته طبيعيتان .

ـ التجويف الصدري : ـ الرئتان محتقنتان بشكل خفيف مع اشتمالهما على كمية كبيرة من المواد الكربونية على السطح وفي العمق . وجدنا التصاقات فيما بين الجَنَب في نصف القص الصدري الأيمن مع علامات على تليف قاس في المنطقة العلوية اليمنى ، وربما بتأثير فِيْمة قديمة . القلب منقبض وخال من الدم مع آثار من نسيج رغوي دموي في تجويفيه الأيمنين . الدسامات القلبية والشريانان التاجيّان طبيعية .

ـ التجويف البطني : ـ في المعدة بقايا طعام نصف مهضوم . (تلاحظ بقايا بقولية مع ألياف من اللحم وبيض مسلوق) . الكبد متضخم ، جغرافي ، مع وزمة دون تدهور تشمعي ، غير أننا شخّصنا الحالة بأنها كبد كحولية . كيس المرارة متوتر ، الكليتان شاحبتان ، والمثانة فارغة ، بقية الأوعية طبيعية وتخلو من أية أهمية طبية شرعية .

تشريح الرقبة : ـ بعد عمل مقطع في المنطقة الأمامية للرقبة على شكل حرف H ، نشير إلى ما سبق أن لاحظناه في الفحص الخارجي . بالتشريح الدقيق ، عثرنا على كسور في النتوءات الجانبية للغضروف الدرقي ، وانسحاق ثلاث حلقات من الرغامى أدى إلى نزف دموي منها طغى على الحنجرة والحلق والفم . هذ الدم بلون وردي شاحب ومختلط بإفرازات قصبية . وجدنا الودج مقطوعاً تماماً بحواف غير منتظمة بشدة ، والشريان السباتي ممزقاً بطول ١ سم مع ورم دموي في الطبقة الوسطى ، وإصابات تذكر بعلامة أموسانت قريباً جداً من الكبة أو الجيب .

بدراسة الصفة التشريحية للجثة ، توصلنا إلى النتائج التالية :

تقديرات طبية شرعية

١ـ لم تكن الوفاة طبيعية ، وإنما عنيفة مسبوقة بصراع ودفاع عن النفس ، (خدوج في براجم اليد اليمنى ، وتمزق في الثياب)

٢ـ لم يكن المعتدي ـ كما يبدو ـ كائناً بشرياً ، ما دمنا لم نعثر على إصابات يسببها في العادة البشر ، (جروح قاطعة واضحة المعالم ، رضوض ، طعنات ، خدوش ، إصابات ناجمة عن الضرب ، أثلام ناتجة عن الخنق ، الخ...) ، ولم نلاحظ غير إصابات ناجمة عن العض . أكبر العضات كانت في الجهة اليمنى من الرقبة وسببت موت الشخص .

٣ـ نرى أن الحيوان المعتدي ربما كان ذئباً ، يستدل على ذلك من شكل الإصابات وحجمها وتوزعها وشدتها والمنطقة الجغرافية التي جرى فيها الاعتداء ، وكذلك من بقايا الوبر الذي وجد في يد الضحية اليمنى ، وعلى أظفاره .

٤ـ من تناظر العضات وشدتها نستنتج أن الشخص لم يهاجمه حيوان واحد وإنما اثنان على الأقل .

٥ـ إذا أعدنا تمثيل الاعتداء والصراع ذهنياً نستطيع اختصاره إلى المراحل التالية :

آ ـ يسير الشخص في الجبل ، ويحس قبل الهجوم عليه بثوانٍ بأن ذئباً ينقض على رقبته . يرفع ذراعه الأيسر غريزياً مغطّياً بساعده الوجه والرقبة حيث تلقى العضة الأولى دون أن يتاح له الوقت الكافي لاستعمال السلاح الذي كان يحمله ووجد على مسافة معينة من الجثة . يعض الذئب بعدئذ عضة أخرى على بعد سنتيمترات إلى اليسار حيث وجد اليد مسبباً الإصابات الموصوفة سابقاً . في هذه الأثناء ، يسقط الرجل على الأرض ويصارع الحيوانَ محاولاً الإمساك به بيده اليمنى ، ويلكمه بقبضته اليمنى أيضاً من أجل القبض عليه في النهاية من عنقه أو رأسه ، (خدوش في اليد ووبر فيها وفي الأظفار) . في تلك اللحظة ، يهجم عليه ذئب أو ذئاب أخرى لما رأته يسقط ، محاولة الإمساك بالأعضاء الأكثر تحركاً (كلتا الساقين) متبعة غريزة القطيع حسب تحرك الفريسة ، (إصابات في ربلتي الساقين مع تمزق في البنطال) . أثناء الصراع تتمزق الثياب ،

وتفقد الأزرار ، الخ... ، أخيراً ، يقبض ذئب آخر ، أو الذئب الذي هاجمه أول مرة على منطقة العنق اليمنى لمرتين . (طبعتا أسنان في منطقة ما تحت العظم الخشائي) مؤدية إلى الكسور الموصوفة . الإصابات في المنطقة الوجنية قد تكون ناجمة عن عضة سابقة مباشرة للعضات في الرقبة ، وصححها الحيوان مرة واحدة . (طبعتان اثنتان) .

ب ـ لما سقط الشخص على الأرض وهو ينزف بغزارة ، راح يتخبّط إلى هذا الحد أو ذاك بصورة واعية ، متخلياً عن الحيوان ، لامساً المناطق المجروحة ، (بقع مشربة بالدم على كلتا اليدين) إلى أن مات .

جـ ـ الملاحظة الغريبة للغاية هي أن جسم الرجل الذي مزعته العضات لم يُلتهم منه شيء أبداً ، وهذا يجعل هجوم الذئاب العنيف غير مفهوم . التفسير المنطقي الوحيد هو أن الذئاب ، بعد أن صرعت فريستها ، تخلّت عنها خوفاً من ضوضاء أو أصوات ، أو طلقات نارية ، أو أي ظرف آخر يصعب تخيله .

بدراسة تشريح الجثة الراهن ، نستطيع الوصول إلى النتائج الطبية الشرعية التالية :

١ـ سبب الموت يعود إلى نزف خارجي معمم بدءاً من منطقة الشريان السباتي ـ الودجي ، اليمنى .

٢ـ من المرجح أن تتدخل في آلية الموت هذه ، آليات مبهمية من التثبيط بفعل تحريض الجيب السباتي . (تلاحظ علامة أموسانت)

٣ـ الجروح سببتها ـ كم يبدو ـ ذئاب ، وهي جروح ناجمة عن العض .

٤ـ نقدر تاريخ الوفاة في الساعة السابعة من صباح أمس .

٥ـ نظراً لعدم وجود تدخل إرادة بشرية ، وانعدام وجود علامات للصراع والاعتداء البشري ، نستنتج أن الموت كان نتيجة حادث ، من وجهة النظر الطبية الشرعية .

الطبيب الشرعي

مارثيال مِنديث سانتوس

(توقيع وإمضاء)

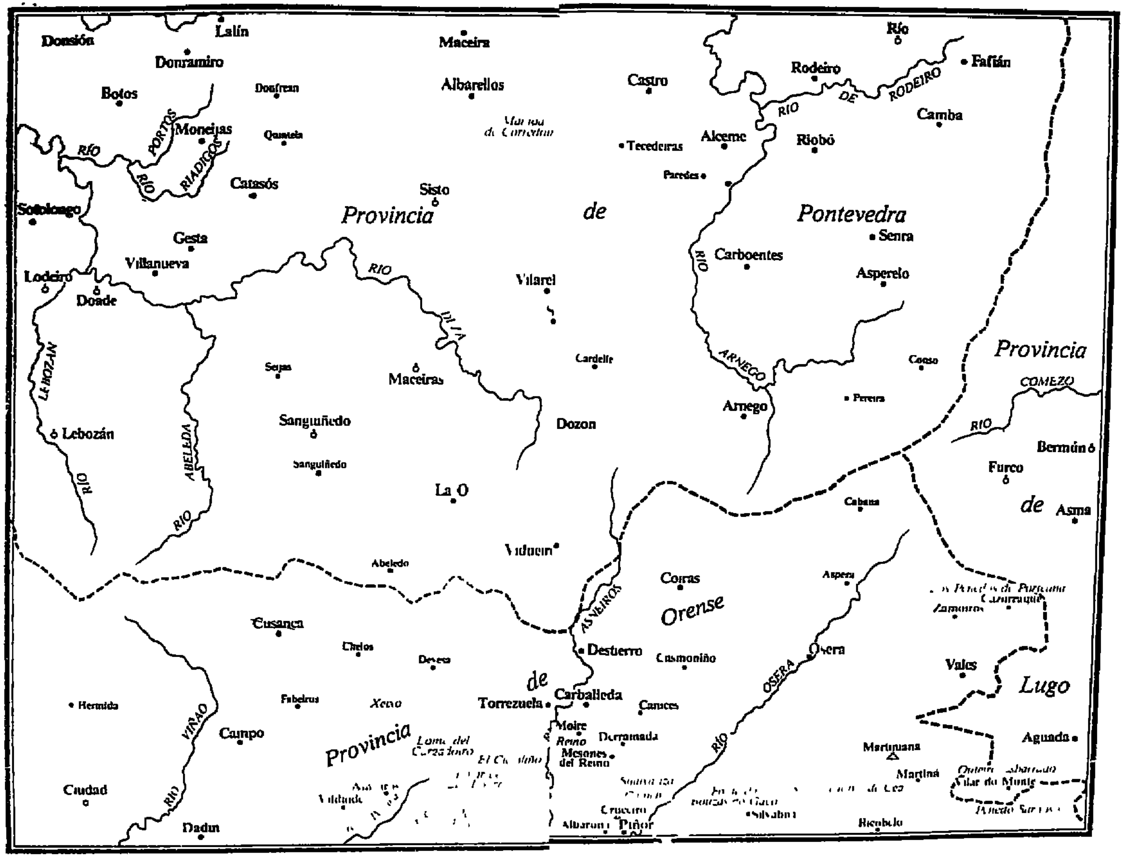

Donsión
Lalín
Donramiro
Botos
Doufrean
Moneixas
Quintela
Catasós
Sotolongo
Gesta
Villanueva
Lodeiro
Doade
Río Portos
Río Riadigos
Maceira
Albarellos
Sisto
Provincia de Pontevedra
Castro
Tecedeiras
Alceme
Paredes
Rodeiro
Río de Rodeiro
Río
Fafián
Camba
Riobó
Senra
Carboentes
Asperelo
Río Arnego
Arnego
Pereira
Coeso
Vilarel
Cardelle
Dozon
Río Deza
Río Lebozán
Lebozán
Río Abeleda
Seijas
Maceiras
Sanguiñedo
La O
Viduein
Abeledo
Provincia de Lugo
Río Comezo
Bermún
Furco
de
Asma
Cabana
Aspera
Coiras
Orense
Río Asneiros
Desterro
Casmoniño
Río Osera
Osera
Vales
Lugo
Zamoros
Aguada
Martinpana
Martiná
Vilar do Monte
Provincia de Orense
Cusanca
Chelos
Devesa
Fabeiros
Xeno
Torrezuela
Carballeda
Cances
Moire
Reino
Derramada
Mesones del Reino
Hermida
Campo
Río Viñao
Ciudad
Dadin
Crucero
Albarone
Piñor
Silvabria
Ricobelo

كاميلو خوسيه

نوبل 1989

كاميلو خوسيه ثيلا (11 مايو 1916 - 17 يناير 2002)، أديب وشاعر إسباني. حصل على جائزة نوبل في الأدب لسنة 1989. في الحرب الأهلية الإسبانية حارب إلى جانب فرانسيسكو فرانكو ولكنه أصبح أحد منتقديه فيما بعد.

تدور أحداث الرواية حول حادثتي قتل وثأر وقد مثلنا نقطتا ارتكاز في نسيج العمل، يعرض الروائي نماذج حياتية متعددة ضمن مناخ الحرب الاهلية الاسبانية ليصل إلى النتيجة التالية:
المصير البشري والتشاؤم والنذالة والقسوة العمياء اللامعتدلة لا يمكن علاجها أبداً.

تمثل الرواية عملاً كلاسيكياً رائعاً في الادب الاسباني التي حازت على جائزة نوبل.

ISBN:2-84305-619-X
9 782843 056192

علي مولا